

اجى تملكران

الجبل العميق

رؤية إنسانية معاصرة حول المسألة الأرمينية

ترجمة:

ميسرة صلاح الدين

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

الجبل العميق

رواية انسانية معاصرة حول المسألةالأرمينية

اجى تملكران

ترجمة

ميسر صلاح الدين

ميسرة صلاح الدين/ شاعر وكاتب مسرحي؛ له إسهامات في النقد وكتابات في الصحافة، كتب العديد من الأغاني لفرق فنية مستقلة، وترجمت بعض قصائده للانجليزية والإيطالية.

....

الجبل العميق

الطبعة الأولى مايو 2016

رقم الإيــــــداع: 2016/9643

الترقيم الدولي: 4-77-5154-977-978

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

The publisher gratefully acknowledge the support of the Dutch Foundation for Literature

تمت ترجمة هذا العمل بدعم من المؤسسة الهولندية للآداب



Nederlands letterenfonds
dutch foundation for literature

elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

إلى جبل أرارات وإلى هرانت

شكر وتقدير

أود أن أشكر كُ لاً من :

ـ ثيودور زالدن على الأسئلة التى طرحها والأسئلة التي شجعني على أن اطرحها على نفسي

ـ د / كاليبسو نيكوليدس مدير جامعة أكسفورد ومركز الدراسات الأوروبية ،

ـ والدكتور شارميلا بوس ، مدير معهد رويترز في جامعة أكسفورد ، لمساعدتي " على الانطلاق خارج المنزل "

ـ محمد كارلى ووجوخان يوسيل لمساعدتهم لي في الفترة الأخيرة

ـ البروفيسور ثيو فانلينت ، لإيمانه بي

ـ سوزان سنبوسك لدعمها الدافئ

ـ صديقتى العزيزة " المترجمة " ريم أبو الفضل ، لمساهماتها في هذا الكتاب

ـ الكاتبة هيبرتا فون فوس التي جعلتني أشعر أن لي منزلاً آخرَ فى برلين بخلاف منزلى

ـ برنادردو دريانو لقصصه الرائعة

ـ د / كريم أوكتيم من مركز الدراسات الأوربي لرؤيته حول " التجريد "،

ـ أود أن أشكرَ أيضً ا سادات المحرر العام السابق لجريدة "ميليت " لأنه دبر خروجي لتلك الرحلة .

ـ مستشاري القانوني فكرت الكيز لأنه حماني من ملاحقات قانونية جراء كتاباتي

ـ وصديقي ومحرري شيدام سو

ـ وأنا ممتنة إلى الأبد لفطنة ورجاحة عقل الرائع أوزغر مومجو الذى قابلته وتزوجته خلال رحلة البحث الخاصة بالكتاب .

مقدمة المترجم

" الجبل العميق" قراءة جديدة لتاريخ لا تندمل جراحه

عندما طلب منى الناشر والصديق محمد البعلى في إحدى جلساتنا فى بداية صيف 2014 التعاون مع دار صفصافة في ترجمة إحدى مشروعاتها الجديدة ، انتابنتى حالة من السعادة والقلق الذى اختلط بالفضول.

كنت اتمنى ان يعهد إلي بترجمة انطولوجيا شعرية أو حتى رواية كمنطقة آمنة بالنسبة لى كشاعر وكاتب مسرحي ،لكن الموقف أصبح مربكا فور علمي بأن الكتاب الذي رشحنى لترجمته هو " الجبل العميق " للكاتبة الصحفية اجى تملكران.

فالكتاب يوضح المجازر البشعة التي شنت على الأرمن عام 1915 على يد القوات العثمانية. و ما أن تسلمت النسخة وبدأت في القراءة ، حتى أدركت أنني أمام تحفة فنية بديعة ،جمعت العديد من الفنون الابداعية بين طياتها.

استطاعت الكاتبة أن تجمع عمق المادة الصحفية وبراعة التحليل الاستقصائى فى قالب مشوق يبارى الرواية فى سردها والشعر فى زهوته.

الترجمه للوهلة الأولى تبدو عمل بسيط ، لكن الأمر يختلف تماما أمام كتاب عامر بالتفاصيل الحقيقية الدقيقة عن أشخاص ،أماكن وأحداث ، البحث عنها ودراستها أمر حتمي للتمكن من الدخول لعمق النص وتجاوز إطاره الخارجي.

بدأت رحلتي في البحث و القراءة للتاريخ الأرمينى / التركى مرة آخرى من وجهات نظر مختلفة ليست فقط بين قطبى الصراع ولكن بين التيارات المختلفة داخل المجتمع الأرمينى والمجتمع التركي ، نائيا بنفسى من الحكم و التورط، محافظا على أمانة الترجمة وجزالة النص الذى يتناول بشكل معاصر ما يطلق عليه "الجريمة العظمى, الإبادة الجماعية, التطهير العرقى, مذبحة

الأرمن، عملية التهجير, قانون النقل والإسكان"..

وهو ما يصف ما قامت به الامبراطورية العثمانية تجاه رعاياها الأرمن فى 24 أبريل لعام 1915م من أحداث دموية أدت لمقتل أعداد كبيرة منهم فى سبيل نقلهم من قراهم فى الأناضول وغيرها من مناطق تركيا، لمناطق إستيطانية جديدة فى سوريا، وذلك حسب الرواية الرسمية للحكومة التركية التى تضع دائما فى خلفية المشهد الحرب العالمية الأولى التى خسرت فيها تركيا العديد من أراضيها ومنيت بهزائم عسكرية مذلة وخاصة على يد القوات الروسية الأرثوزكسية التى كانت على اتصال بالأرمن فى ذلك الوقت ، بعكس ما وقر فى الضمير الجمعى للأرمن: أن ما حدث هو محاولة للتطهير العرقى، والإبادة الجماعية للأرمن من قِبل الامبراطورية العثمانية القومية المسلمة ،وبالطبع انطلق الأرمن كسفراء لقضيتهم فى كل دول العالم، وظلت لعنة تلك الأحداث تلاحق كل مرتكبيها فأنهارت الامبراطورية العثمانية فى نهاية الحرب وفقدت أغلب أراضيها وأصبح قادتها السياسين وكوادر الحزب الحاكم آنذاك " حزب الإتحاد والترقى" بين منفى ومقتول وهارب، وأُعدم طلعت باشا وزير الداخلية رميا بالرصاص كمجرم حرب، وخُلِع السلطان عبد الحميد الثانى، ووُضِع بالإقامة الجبرية حتى مماته .

ولم تمر أشهر قليلة ألا وكنت قد انتهيت من ترجمة الكتاب ومراجعته وقد أضافت تلك التجربة لرصيدى الانسانى والثقافى بما فاق كل توقعاتي.

ميسرة صلاح الدين

مقدمة المؤلف

ما بدأ باعتبارهِ عملاً صحفيًا بسيطًا انتهى بمقتل صديقي الصحفي هرانت دينك, وهو تركي- أرميني ومن دعاة الحوار الهادف بين الأتراك والأرمن. لقد قطعت تركيا العلاقات الدبلوماسية مع أرمينيا في عام 1993 وأغلقت الحدود معها، ولكن بالرغم من ذلك فقد انخرط المثقفون والمنظمات غير الحكومية في كلا البلدين في حالة من التبادل الثقافي وأطلقت العديد من الدعوات لفتح الحدود.

وباعتبارى كاتبةً مخضرمةً في صحيفة " ميليت " التركية كلفت بالسفر إلى أرمينيا لتسجيل انطباعاتي في سلسلة من المقالات نشرت فى مايو 2006 بعنوان "أرمينيا جارتنا الأكثرَ بُعدًا"

تجربتي في أرمينيا أعطتني شغفًا أكبرَ لمعرفة مدى تأثير النزعات القومية الوطنية في عرقلة الحوار المتعلق بالقضية الأرمينية.

أرسلتني صحيفة " ميليت " إلى فرنسا لمقابلة القادة البارزين في مجتمع الأرمن النازحين المهاجرين "الشتات" في خريف 2006، وفى الوقت الذي كان فيه البرلمان الفرنسي يناقش قانون "تجريم إنكار الإبادة الجماعية للأرمن" نشرت بعض هذه المقالات فى ديسمبر 2006

بعد ذلك بشهر تقريبًا فى 19 يناير 2007 قتل هرانت دينك رميًا بالرصاص أمام مكتبه بوسط مدينة اسطنبول، وتكريمًا لهرانت قررت أن أؤلف كتابًا يحتوى على مادة من المقالات الصحفية وكذلك بعض المواد التي جمعتها من أمريكا : مقرَّ معظم الصاخبين والنشطاء في الحقل السياسي من النازحين الأرمن وكانت الأسباب التى دفعتنى للعمل على هذا الكتاب تنقسم إلى شقين: الأول من الناحية العملية وهو إعطاء الأتراك صورة حقيقية وشاملة عن المسألة الأرمينية وكذلك وجهات نظر مختلفة حول روايات ومشاعر الأرمن في أرمينيا

نفسها وخارجها. والثاني على المستوى الشخصي حيث بدا لي أهمية الاعتراف والتعبير عن حجم المشاعر التي حملت بها، والتي جعلت العملَ أقلَّ موضوعيةً ولكنَّه أكثرُ تبصرًا بالحقيقة. أكثرُ ممَّا يمكن لأيِّ كاتبٍ غربيٍّ أن يُدرَكَهُ

اجى تملكران , 2010

الجزءُ الأوَّلُ

أَيَّتُها الشَّابَ ةُ ...

عَلَى الأَقَلِّ نملِكُ رُوحاً

الفصل الأول: "أنا لم أسرق جبل أَحَد"

الشمسُ تغربُ على شاطئ فينسيا بولاية لوس انجلوس الأمريكية، وهنالك على امتداد البصر يقرع بعض الرجال الطبول، بينما ترقص النساء وبأياديهن زجاجات الويسكى. المحيط كأنه فراغ رمادي لا متناهٍ، والشمس في نهاياته تسقط في المياه. لقد كنت أتساءل دائما من منهما المسئول عن لون الآخر؟ هل البحر هو الذي قرر أن يصبح رماديًّا؟ أم إن السماءَ هي التي حرضته على ذلك الشحوب؟

أشعر بشيء من التعب بينما أجلس على الرمال كصورة باهتة من نفسي. أنا الآن في المحطة الأخيرة من رحلةٍ طويلةٍ ، مرهقةٌ من الخسائر، أواجه المحيط مدخنةً سيجارتي الأخيرةَ وبجانبي "يورتاش" يلعب بآلة التصوير الخاصة به. لا بد أنه يشعر هو أيضا ببعض الكآبة وهو يغنى تلك الأغنية الفلكلورية الحزينة. في هذه اللحظة رأيتها؛ تلك السيدة الشابة التي تجلس على مقربة منا، تلك السيدة التي ما إن بدأت تستمع إلى كلمات الأغنية حتى مالت بظهرها للوراء وأدارت ظهرها ناحيتنا، شعرها بني فاتح مموج تماما كشعري، وعيناها بنية داكنة تماما كعيني، وربما تكون في نفس عمري؛ نفس الأنف، نفس العيون الغائرة، يبدو واضحا أن لنا نفسَ الجذور

يبدو أنها لاحظت أنني أراقبها؛ لأنها أدارت لنا ظهرها وراحت تنظر في اتجاه المحيط، ولكنى كنت ألمحها بطرف عيني تسترق النظر إلينا خلسة مرارا وتكرارا، وكأنها تحتاج لأن تنظر لنا مرة وراء أخرى. لقد استطاعت أن تتعرف على كما تعرفت أنا عليها؛ فهي أرمينية وهذا يفسر ردَّ فعلها السريع عندما سمعت أغنية "يورتاش" حتى وإن كانت الآن لا تستطيع أن تفهم كلمات الأغنية لكنها تعرف أنها قادمة من "الوطن القديم". إنها عصبية ومتوترة كما أنها غاضبة، إنها غاضبة ولكنها ترفض أن تطلق لمشاعرها العنان. أنا أرى ذلك كله، إنها تدور في حلقة مفرغة من المشاعر المتواترة واحدة تلو الأخرى،

العصبية ... التوتر ... الغضب، إنها مشاعر تأتي من جرح قديم، جرح لم يصبها شخصيًّا ولا حتى أصاب أمَّها، وربما أيضا لم يصب جدتها. إنه ألم يعتصرها حتى النخاع، هي تتألم لمعاناة سحيقة عاناها أناسٌ آخرون، ولا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل حيال ذلك .

الآن ماذا أستطيع أن أقول لك يا أختي الأرمينية؟ ماذا أستطيع أن أقول؟ هل ترغبين في اعتذار؟ إن الاعتذار الذي يأتي من الغرباء ليس حقيقيًّا، إنه اعتذارٌ رخيصٌ لا معنى له في هذا التوقيت؛ "أنا آسفة" عبارةٌ ربما يمكن أن تكتب على السماء كالدخان المتصاعد من الجراح المنسية والتي لا نسامح من ارتكبها. هنالك هؤلاء الشباب الألمان الذين كبروا وهم يشعرون بالعار حتى من لغتهم، بل إنهم ذهبوا لمستعمرات اليهود في إسرائيل للتكفير عن ذنب ارتكبه أجدادهم. هل هذا هو نوع الاعتذار الذي تريدينه؟ هل يجب أن يولد أبنائي أيضًا وهم يحملون نفسَ الذنب؟ هل تدرين يا أختي ، أن الأطفال في بلادي لا زالوا يعذبون؟ هل تدرين أن الأناس الذين يطالبون باحترام حقوق الإنسان مازالوا يقتلون؟ أختي العزيزة، كيف تتوقعين من بلاد لا تستطيع أن تواجه الحاضر أن تشعر بالذنب على ما ارتكبته من جرائم على مر العصور كما تفعلين؟

إنني لن أتلاعب بالكلمات، ولن أحرفَ الحقيقة. سأسردها كما هي. إن المذبحة التي تنتحبين عليها ما هي إلا نقطةُ البدايةِ في تاريخ بلادي حيث أصبح القتل الجماعي أمرًا اعتياديًّا. نعم يا أختي ، لقد كان ذلك في صيف 1915 عندما بدأت بذور الموت المخبأة تنبت، وبدأ أجدادُك وجداتك في الهجرة خارج الوطن وتفرقوا في البلاد. لقد حمل قومُك قتلاهم على الأكتاف لمسافات طويلة قبل أن يستقروا في أراضٍ بعيدةٍ ، ويصبح الألمُ هو العمودَ الذي يرفع سقفَ منازلكم والذي تلتصقون به، وأصبح همُّ آبائك هو الحفاظَ على هذا الجُرحِ الذي حرص الآخرون على طمسه، وكلما حاولوا طمسَهُ أكثر كلما التصقتم به أكثر. لقد كان خوفُ قومي من فقد بلادهم هو السبب في حدوث

حالة فقدانِ ذاكرةٍ اختياري. هذا هو ما قيل لنا نحن أيضاً

نساءٌ مثلى ومثلك ربما يكنَّ قد أنجبنَ أطفالاً فتضاعف معهم الخوف القديم بنفس الطريقة. لم يعاملوني بعدل عندما لم يخبروني بالحقيقة عن الماضي، وأنت أيضا لم تعاملي بعدل عندما دأبوا على إخبارك بعديد من الحقائق الأليمة عن الماضي وأنت مازلتِ طفلةً. لقد كنا أطفالا أنا وأنت، انظري كيف تمت تنشأتنا، وكيف تم اختيار الحقائق لنا، وكيف تم اختيار القصص كذلك. أنت لم تكوني مهتمة بالموت، وأنا لم أكن مهتمة بالأكاذيب، والآن أُنظري إلى شاطئ المحيط على الجانب الآخر من العالم، كيف يختلس كلٌّ منا من طرفِ عينيه نظرةً للآخر. أُنظري إلينا وتأملي حالنا.

أختي الأرمينية

ماذا يمكنني أن أقول؟ يمكنني أن أقول إنني أفهم وأحسُّ بما تمرين به. أختي، إنني أريد أن أتكلم معك، حتى لو انخرطنا في البكاء فلا بأس، ولو انخرطنا في الضحك ربما كان أفضل. أريد أن نتذكر كلَّ شيء على النحو الصحيح، وربما عندما تبكى كلٌّ منا بقدر ما تريد نستطيع عندها فقط أن ننسى ونسامح، ليس عن طريق الإخفاء، بل عن طريق الصراحة المطلقة، الصراحة الشافية، لوضع الأمور في نصابها السليم، وجعلها قابلةً للنسيان. هناك الكثير لكِ غيرُ الجراح، وهنالك الكثير لي غيرُ الذنب. نحن أفضل من ذلك، وتلك ليست هي الطريقة التي أريد أن أتحدث بها معك. أُنظري لهؤلاء الرجال السود الذين يقرعون الطبول، وهذه المرأة الشقراءِ التي ترقص. إنهم لا يعرفون شيئًا عنا ولا عن التاريخ القديم لبلادنا الذي يربطنا معا. كلَّ عام في الرابع والعشرين من أبريل يصرخ قومُك بينما يحاول قومي إخفاءَ الذكرى. كلُّ ما يعرفه هؤلاء الرجالُ والنساءُ على الشاطئ من أجناس مختلفة، أن هؤلاء الناس ذوي البشرة السمراء يصيحون في بعضهم البعض. سينظرون لنا ونحن نحكي قصتنا القديمة التي تعود لقرن من الزمان "لقد كان قتلاً جماعيًا" - "لا لم يكن قتلاً جماعيًا" سنكون نحن آخرَ شخصين على هذا الشاطئ يمكنهم تبادلُ الحديثِ

مع بعض البعض لهذا السبب بالضبط؛ بسبب هذه القصة القديمة التي تربطنا معا بشكل لا يوجد بين أيِّ اثنين آخرين على هذا الشاطئ.

هل تعرفين ما الذي أفضِّله أنا؟ إنني أفضِّلُ إلقاءَ النكاتِ لك، أفضل أن تسخري مني وأن أستطيع مبادلتك السخريةَ أنا أيضًا. هذا هو مقدارُ الثقةِ التي أرغبُ في وجودها بيننا، وهذا هو ما يحزنني. لا أريد أن أكون بالنسبة لك كأي شخصٍ آخرَ، ولا أن تكوني أنت لي كالآخرين؛ أريد أن نكون على طبيعتنا لتأتي إلي كيفما شئتِ، فقد كنا نحمل أوطاننا على ظهورنا لفترة طويلة، ولنتخفف من هذا الحمل، دعينا نعرفْ تاريخنا المشتركَ ونتقبله ونتشاركه. دعينا نُعِدْ زيارةَ الماضي ثم نعود للمستقبل، ليس كشخصيات هاربة من قصة محبوكة، بل كشخصيتينا الحقيقيتين. دعينا نتساءل ونفاجأ ببعضنا البعض. أريد أن أقابلك بجمال وروعة النفس البشرية، ولأجل هذه الكلمات البسيطة قد سافرت طريقًا صعبًا لبلاد بعيدة، وقابلت رجالاً ونساءً بملامحَ تشبه ملامحَكِ وملامحي. أريد أن أخبرك عن هذه الرحلة الصعبة التي جاءت بى لهذا الشاطئ، وحملتني بهذه الأفكار. أختي الأرمينية العزيزة، أريدك أن تفعلي مثلما فعلت، وتتفهمي مخاوفَك تُجاهَ هويتك. اِنطلقي في رحلة نحوي، أريد لكلينا أن نحظى بأطفال لا نضطرُ إلى أن نشرحَ لهم كلَّ هذه المخاوف. أريد أن يتقابلَ هؤلاء الأطفالُ في أي مكان في العالم فلا يحسون بالاغتراب الذي نحسه نحن الآن. هذه هي الأشياءُ التي أود قولها، ولكنني لم أَنطقْ بكلمة واحدة، بل جَلَسْنا صامتتين.

كلانا تخشى الأخرى بشدة، ونَدير وجهينا للمحيط، المياه ضبابية كلون السماء، الأفق لا نهائي يميل للرمادية، تماما كما انتهت الرحلة على شاطئ كاليفورنيا وكما بدأت على تلال يريفان، فضاءٌ رماديٌ خاوٍ

دعيني أُشِرْ فى نفس الوقت إلى نقطةٍ أخرى فهذا دليلنا السياحي "جابل"، لقد جاء هنا لمدة أسبوع مثلك تماما. عندما أصبحت أرمينيا جزءًا من روسيا أراد أن يرى جبل "أرارات" ولكنَّ السماءَ كانت تمطر ساعتها مثلما تمطر الآن تماما، لهذا قال "ربما كنت أنت أرارات[1] ولكني أنا قيصر، وإن لم أكن أستطيع أن

أراك الآن، فأنت لا تستطيع أن ترى القيصر أيضًا، وربما لا تتاح لك فرصةٌ أخرى لرؤيته فيما بعد". وهذا هو ما حدث بالضبط؛ فبعدها بقليل أطيح بالملكية فى روسيا. لقد انتهت قصته ومكثنا نحدق في الفراغ الرمادي أمامنا، هذا الجبلُ المراوغُ بعيدُ المنالِ أرارات، وتشاركنا قمةَ التل مع تمثالِ الأم الأرمينية "ماير هيوستن" الذى يرمز لمدينة "يريفان"، اِنتظر بنجامين منَّا أن نضحكَ على هذه القصة، ولكن زميلي المصور الصحفي " يورتاش " كان عبوسًا لدرجة أنه لم يضحك على أي شيء، "لقد أخبرتك أننا ملعونون، هذا المطرُ لن يتوقفَ لمدة أسبوع، وإن لم نستطع أن نلتقط صورة لأرارات ستكون تلك نهاية الرحلة. هذا بالضبط ما يحدث عندما نختلط مع الأرمن" وقفنا نحن الثلاثة عاجزين تماما : بنجامين الذي يُحَمِّلُ نفسَهُ المسئوليةَ كاملةً، ويورتاش الذي ينظر في الأفق بكاميرا يصل طول عدستها لنصف المتر، وأنا الغاضبة من أرارات مثلما غضبَ القيصرُ. كلَّ بضعِ ثوانٍ كان بنجامين يقول : "كان من المفترض أن يكون هنا" وكأن الجبل ببساطة قد تحرك من مكانه ويتوقع أن يظهر في أية لحظة، لقد ظل عاقدًا يديه وهو مقتنعٌ أن أرارات سوف يظهر فورًا، ثم قرر أن يُسرِّي عنا بقصةِ حياتِهِ قائلاً " لقد أَجَّرْتُ مكانًا هنا منذ خمسةَ عشرَ عاما، كنت أخطط لبيع الملابس الداخلية النسائية، ولكنني لم أستطع؛ فقد كان ثمنُ القطعة الواحدة دولارين، في حين أن دخلَ الرجلِ فى اليوم الواحد ثلاثةُ دولاراتٍ، لذا فلم أستطع بيعَ قطعةٍ واحدةٍ، لقد استمريت في المحاولة ولكني فشلت. ثم قالوا لي إنهم سيجدون لي زوجةً، ولكن ذلك كان كارثةً هو الآخر، لماذا؟ لأنني قصيرٌ جدًا والنساءُ هنا كلُّهُنَّ طويلاتٌ جدا، لقد اضطررتُ لمقابلة عشرِ فتيات متبايناتٍ حتى أجدَ فتاةً مناسبة لي. الناسُ هنا فقراءُ ، لكنهم قد يقترضون المالَ لإطعام ضيوفهم ويبخلون به على أنفسهم. ياللعجب من ذلك العشاءِ الذى أعدوه لى" " لقد كانت سراويل بنجامين دائما مبللة من الأسفل لأن كل السائحين الذين يزورون أرمينيا أطولُ منه، وقد تمكن أخيرًا من الزواج ولكن زوجته على وشك أن تلقيه خارج المنزل لأنه لا يكسب ما يكفى من المال، ولأنه لا يساهم في أي شيء . سلسلةٌ من المصادفات جمعتنا معه، ورغم أنه

يأخذنا باستمرار إلى المكان الخاطئ، ودائما ما يقاطع مقابلاتنا مع الآخرين، كما اعتقد أنه دائما يريد الظهور في مقدمة أو وسط أية صورة فوتوغرافية نلتقطها، وكذلك كونه كثيرَ الحديث، إلا أننا لا نستطيع الاستغناء عنه.

"يجب أن أذكر أيضًا أنه لا فرق بين أهل يريفان حول من تكون؛ فسواءٌ كنت مسلمًا أم شيوعيا أم حتى كنت تركيًّ، لو صرخت فى منتصف الطريق قائلا "أنا تركى" فسيجيبون ببساطة "يسرنا لقاؤك"، كما أنهم ودودون جدا، على استعداد لتبادل الحديث في أية لحظة" "بالرغم من كونه ثرثارًا جدا لدرجة أنه لا يعطيك الفرصة للتفكير، إلا أننا لا نملك الاستغناء عن بنجامين. "

أتعرفين مصطلح "سويسرا الصغرى" هذا هو الحال هنا تماما، لا ينقصنا إلا المالُ، ولكن الناس هنا يملئون جيوبهم بأشياءَ أخرى بشعةٍ . ياللعجب، لو توقفوا عن فعل ذلك وتحسن الاقتصاد لأصبح هذا المكان كسويسرا تماما. "وهكذا كما كنت أقول لك، نحن لا نستطيع الاستغناء عن بنجامين

"دعينا نتخيل مثلا أنه قد وقع حادث سيارة، ستتوقعين أن تحدث مشاجرة ولكن ما الذي يحدث؟ "يصرخ أحد الرجال 'Ahbercan!' ، وياللعجب فإنهم يحتضنون بعضهم البعض ساعتها. إن الناسَ هنا هادئون ومسالمون كما أنهم متعلمون أيضا. لنأخذ زوجتي على سبيل المثال؛ لقد درست فى مدرسة ثانوية متقدمة فى قرية صغيرة، والنساء هنا قويات جدا يجب أن تترك لهن المنزل فى حالة وقوع الطلاق، لا أحدَ له أن يزعج النساء. فى الشوارع هنا يطلقون على الشرطة أسماء تهكمية " 1000 درهم "؛ لو دفعت 1000 درهم كرشوة يمكنك أن تفعل ما تريد. فكل شخص يملك منزله الخاص، ولو اضطروا لاستئجار المنازل لحدثت ثورة، فهم يملكون المنازل منذ عهد السوفيت." نحن لا نستطيع أن نتركه" هذا صحيح لأنه عندما يكون معنا فانه يكون بعيدًا عن أرمينيا وقريبًا من اسطنبول، إن لديه حماسَ الشخص الغريب الذى عثر على أحد أبناء وطنه ويتطلع إلى أن يحكى له عن أحداثِ خمسةَ عشرَ عامًا من الغربة وعن البلاد "الغريبة" التي وُلِدَ فيها أطفالُه " الثرثرة حول أرمينيا" هذا ما

يريد أن يفعله مع رفاقه "المواطنين" ، هذا ما يجعله يشعر بتحسن، الحنين الى بلاده يدفعه للثرثرة ويجعله يشعر بالسعادة الغامرة لذلك، إنه مع أناس من الوطن، لهذا لا نستطيع الاستغناء عن بنجامين

حكايات بنجامين لا تنتهي، والبرد على سطح التل لا يُحتمل، أخذتُ نفساً عميقاً وقاطعته قائلة:" أنظر يا بنجامين" تجهم وجهُهُ وتظاهر بالجدية كشخصٍ محترفٍ "لقد أخبرتك أننا فى وقت ما يجب أن نتحدث للناس هنا ، يجب أن نستمع إليهم، يجب أن نعرف ما هو الحال هنا حتى نستطيعَ أن نحكى للناس فى تركيا عن أحوال الأرمن، ستكون هذه أولَ سلسلةِ مقالاتٍ تُنشر فى كتاب عن هذا الموضوع على الإطلاق، وكلما تحدثنا لأناسٍ أكثرَ كلما كان ذلك أفضلَ، ولكنك أخذتنا الى هذه الصحراء ولقمم الجبال المريرة، أخبرنى يا بنجامين ما الذى يفترض أن أفعله الآن ؟! "

عندها أصبحَ أقصرَ قامةٍ ومظهرُهُ أكثرَ غباءً وبنطالُه أكثرَ قصراً وتكورَ وجهُهُ خلف زجاج النظارة ثم قال: "من الجيد أن نرى أرارات" قالها بصوت منخفض لدرجة أن الكلمات الأخيرة كانت بالكاد مسموعة وهو يكمل "لقد تقرر أننا لن نستطيع الخروج مجدداً اليوم "

بنجامين يتفحص الأفق ثم يكرر ما ظل يخبرنا به طوال اليوم "لو أمكنكم فقط أن ترونه، أرارات يبدو جميلاً جداً من هنا"

عندما وصلنا ليريفان وفى الأحد الأول، رحبت بنا المدينة على الطريقة الأرمينية، ثم باللون الرمادي الداكن الذي كسا جبل أرارات

مازال بنجامين يطنطن بالنكات والحكايات ونحن فى طريقنا لأسفل التل، توقف يورتاش ليشعل سيجارة ثم قال " إن المكانَ هنا جميلٌ بل رائع فعلاً، لماذا هو بهذه الروعة؟"

الشيء الغريب أنه برغم آلاف المقالات والأبحاث التى نشرت فى تركيا عن

أرمينيا والأرمن إلا أن قليلاً من الاتراك من يعرفون كيف تبدو هذه المدينة، في الواقع لكل منا رأى حول أرمينيا ولكن لا أحد يعرف شيئاً عن حقيقتها ، والأغرب أنه لا أحد في الحقيقة يشعر بالفضول للمعرفة.

ما هو هذا الشيء الغريب حول المسألة الأرمينية الذي يدفعنا للابتعاد عنها، وهى القابعة عبر حدودنا، ما الذي جعل عقولنا مغلقة حتى إننا لا نحمل عنها صورة ذهنية واضحة ؟

رغم عدم ذهابنا لباريس أو نيويورك أو حتى بومباى، إلا أننا قادرون على تخيلها ولكن بالحديث عن أرمينيا نحن "الأتراك" لا نستطيع فقط أن نتخيل "جارتنا المحرمة". والأسوأ أنني أنا الكاتبة للعديد من المقالات حول الشأن الأرميني أجد نفسي مندهشة من جمال المدينة.

تلك المدينة الأوروبية المنفية التى تقع في الشرق الأوسط بالفعل، إن الطريقة الوحيدة التى تستطيع بها أن لا ترى شيئا قريبًا منك هكذا هى أن تنظر إليه نظرةً محملة بالألم خاصة عندما تأخذ في الاعتبار أن أنوار يريفان تُرى بوضح من المدينة الحدودية كارس

توقف يورتاش وقال إنه "يريد أن يأخذ صورًا للمدينة من أعلى التل" فجلست لأكتب تلك الملحوظة فى دفتر ملاحظاتى

"أضواءٌ بعيدةٌ مرئيةٌ من أنحاء متفرقة من تركيا. فى سيارة مغلقة شخص ما يدير مجموعة من الأغانى الرومانسية المتشابهة على أضواء الخروج من إيران، شخص ما ينظر إلى الأضواء المتلألئة في سوريا بينما يلفون هدايا الأعياد استعدادًا لإرسالها لأقاربهم عبر الحدود، طفل يجرى على قمة تل في هكارى وينظر إلى لافتة "مرحبًا بكم في كردستان" على حدود العراق، امرأة فى إزمير ترفع كأسَها المملوءَةَ بمشروب الراكى كنخب حزين للذين وصلوا لشواطئ اليونان وللذين مازالت أرواحهم تسبح حزينة فى بحر إيجا.

وفى اليوم التالى مباشرة نفس الاشخاص على حدود تركيا الأربعة يقرأون عناوين الأخبار اللاذعة عن جارتهم تركيا. تركيا التى يحدها البحر من جهة واحدة ويحدها الحزن من جميع الجهات. هؤلاء الذين فروا قد يفوقون عددًا الذين بقوا، الأمواتُ بالتأكيد يفوقون عددَ الاحياء. لقد أصبحنا معتادين على ألا نرى من يحترقون بجوارنا، حتى أقربُ جيراننا أصبحوا بعيدين جدا"

أشار يوتارش لصاروخ حربي على قمة التل وقال "أُنظري، إنهم يوجهون الصورايخ إلى تركيا مباشرة " ثم استكمل ضاحكا "من يؤدى خدمته العسكرية على جبل أرارات يدربونه يومياً على ما يفترض أن يفعله فى حالة هجوم الأرمن "

وبالكاد قبل أن ينتهي من حديثه حط طائر على رأس الصاروخ الحربى، فأضاف مازحًا "هذا الطائر هو نجم أول صورنا من أرمينيا "

نستطيع من هنا أن نرى مركز المدينة مباشرة أسفل التل، وفى الأسفل مباشرة تمثال للنحات الكلاسيكي المعاصر "اليكساندر تامنيان" الذى شكل وجه يريفان المعاصر، ثم على امتداد البصر منحوتةٌ تمثل قطًّا بديناً "لفرناندو بوتيرو" وكلما توغلنا فى المدينة رأينا المزيد من التماثيل والمنحوتات التى تعبر عن الحياة الثقافية للشعب. تماثيل ما قبل الثورة، تمثال لرجل مسن يعطى الورد لفتيات صغيرات من المدينة، تمثال لطفل يبيع المياه، وبعض التماثيل لموسقيين مشهورين. هذا التنوع الشديد هو بمثابة الشعر بالنسبة لى فعندنا فى تركيا معظم التماثيل هي لأتاتورك. حينما كنت أدون بعض الملاحظات عن التماثيل فى دفترى الصغير لاحظت أن بنجامين بدء يتفاعل مع كلمات رجل عجوز فقير "إنهم يدفعون أموالاً كثيرةً للأرمن الذين يكرسون أنفسهم للفن"

إتكأ يورتاش بظهره على الحائط والتقط بضعَ صورٍ لمساحة خالية محاطة بالحجارة، ضحك بنجامين وهو يقرأ نقشاً على جدار قديم يقول "نشكركم على مساهمتكم فى تدفئة منازل الأسر الأرمينية"، إن هؤلاء الناس يتسمون بالمرح،

فقد وضعوا نصبًا تذكاريًا على شجرة ثم قطعوها بعد ذلك ها ها ها ها"

لقد شاهدت بنجامين وهو يضحك على سذاجة أهل المدينة. إن الواضح لى برغم كونه يعيش هنا منذ خمسةَ عشرَ عاماً، إلا أنه لم يعتبرهم أبداً رفاقَهُ، وبالرغم من أنه يعيش فى جبل أرارات، وبالرغم من أنه أرمينى إلا أنه يشعر بالانتماء لتركيا وليس أرمينيا، إنه ليس يرفينى، بل هو اسطنبولى، وظللت أتساءل عن انتماءاته حتى مررنا بالقرب من مجموعة من المحلات التى تبيع التذكارات، فأشار لمعرضه على شكل ثمرة رمان معروضة فى الواجهة وقال: "الرمان له دلالة مهمة جدًا بالنسبة للأرمن، فهم يلقون ثمارَ الرمان تحت أقدام العروس كرمز للخصوبة، ويعتقدون أن عددَ البذور التى تسقط خارج الثمرة يمثل عددَ الاطفال الذين ستنجبهم"

كنت على وشك أن أسأل سؤالاً حول الرمان حين تحول بنجامين للوقاحة مرة أخرى وبدء وصفه ليريريفان لا يقل سخرية عن وصف عامل تركى لمدينة ألمانية نزل ضيفًا عليها. إنها السخرية اللاذعة لغريب استقر في مكان لا يحبه، كلُّ ما يحدث للغرباء فى ديار لا يعتبرونَها ديارهم قد حدث لبنجامين هنا فى يريفان. ربما تكون هذه هى طريقته فى إبقاء نفسه بعيدًا عن الوطن الذى يصفه للآخرين، ربما تكون طريقته فى صياغة وتركيب الجمل التى تتحدث عن الوطن تعيد بناءَ الوطن فى خياله، لابد أن بنجامين لديه مشاعرُ متداخلةٌ ومختلطةٌ وهى سببُ هذه السخريةِ اللاذعة

تجولنا بلا هدف فى الشوارع والتقطنا المزيدَ من الصور الفوتوغرافية

لماذا يرتدى كلُّ الرجال ستراتٍ جلديةً سوداءَ ؟

على واجهات بعض المنازل المصنوعة من الحجارة الصلبة ما تزال آثارُ الكتابات السيريانية وآثارُ الحروف الأرمينية القديمة

تراجعت تلك اللغةُ اليومَ لتفسح المجالَ لعلاماتٍ تجاريةٍ عالميةٍ بالأحرف

الإنجليزية

تُرى ما رأي الأرمنِ فى عملية الإحلال هذه؟ أو في السيدات العجائز اللاتي يتسولن بالإنجليزية ؟

لمـاذا تم تقسيم المقاهي لحجرات صغيرة؟ ما الذي كان منتصبًا فى قواعد التماثيل الفارغة فى منتصف المدينة ؟

لماذا يجلس الندلاء على طاولات المطاعم عندما لا يقدمون الطلبات؟

ما معنى ان يجتمع كل طلاب المدارس الابتدائية أمام واجهة أحد المحال الذى يعرض كعكة فضية ضخمة؟!

لماذا تغطى واجهة محلات الكتب بصور الفنادق؟

لماذا لا توجد تماثيل أخرى تمثل القيم الجمالية للمجتمع الأرميني ؟

لابـد أن بنجامين قال الحقيقة عن الرمان، مررنا بجانب مجموعة أخرى من واجهات المحلات التي تعرض الحلى وصور الجبال والفاكهة الحمراء، لماذا يمثل الرمان كل هذه الأهمية للأرمن؟ ربما لأنهم انفرطوا حول العالم كحبوب الرمان، ربما لأن بقاءَهم على قيد الحياة يعتمد على الخصوبة والتكاثر الذين تمثلهما هذه الفاكهة الأسطورية ؟

مرت صور المدينة علينا سريعًا مع حلول الظلام على يريفان ، ثم عاد بنجامين لمنزله وأصبحنا وحدنا ولكننا استطعنا أن نجد باراً مبهجا يدعى "شيرز"، تصدح فـى الـداخل موسيقى لاتينة وبجـوار الحـائط حيث تعلق صورة جبل أرارات وصورة تشى جيفارا

يـأتى صاحب البـار الذي يشبه موسيقِيِّ الروك طويلِي الشعر لتحيتنا باللغة الإنجليزية، نومئ له ونبتسم، وبعد حوار قصير حول الموسيقى اللاتينة يسألنا

"من أين أنتم؟"

نجيبه "من اسطنبول "

يرد باستهجان "هل تقصدون القسطنطينية "

نردف "لو كان هذا هو الاسم الذي تفضله فلا بأس، ولكننا فى النهاية نتحدث عن مكان واحد"

يرد عابسا وهو يشير لصورة جبل أرارات

" لقد سرقت أنت القسطنطينية، وأنت سرقتي الجبل "

أرد ضاحكة "أنا ....أنا لم أسرق جبلَ أحد "

اِنتظرته أن يبادلني الضحكات، ولكن يبدو واضحًا أن هذا لن يحدث

يكمل قائلا " ألستم أتراكاً؟"

تجمدت مكاني وأنا أجيبه "أتراك"

يستتبع "إنكم أتراك، لقد سرقتم الجبل منا"

تفحصت وجهه جيدًا لعلى أجد أى بادرة للمزاح ولكن دون جدوى فقلت مبتسمة وأنا أشير لصورة جيفارا

"اليس من الغريب لمن يضع صورة لرجل كان يتحدث باسم الجبال فى كل مكان أن يتصارع على ملكية جبل واحد؟"

"إن لم تعترفي بالمذبحة فلتغادرى محلي"

تسمرت محدقة إليه ثم انصرفنا يورتاش يستشيط غضبًا بينما أنا مشغولةٌ بالتفكير فى سؤال صاحب البار " ألستم أتراكاً"

أتراك .. كيف استطعت مواجهة سؤاله بابتسامة؟ ترى هل هذا الذي يفعله

ينجامين طوال حياته هنا؟ اللجوء إلى السخرية والاستخفاف ؟

أتراك.. أليس الأتراك هم الذين حاصروا أسوار فينا والذين يسيئون إلى الأكراد والذين طردوا الأرمن؟

أليس الأتراك هم الذين ينحدرون من أرض البهجة والرقص الشرقى والشيش كباب أو على الاقل هكذا يبدو الأمر من على السطح الخارجي

الأتراك .. ربما كانت هذه الكلمة تطلق للإشارة إلى أمر معين، لقد تعرضت أمى اليسارية وصديقاتها للتعذيب على يد رجال أطلقوا على أنفسهم الأتراك. منذ مرحلة الدراسة الابتدائية وحتى الثانوية، كنا نجتمع فى الثلوج خارجاً لنسمعَ خطبًا تزكى قوميتنا التركية

رفاقنا فى الجامعة تعرضوا للضرب على يد شبان كانوا مقتنعين أن فضيلة الجنس التركى أعلى من كل الفضائل الاخرى

بينما كان هنالك مسلحون يجوبون الشوارع صائحين "ياالله .. بسم الله .. الله اكبر" وارتكبوا المجازر فى الأناضول باسم القومية التركية

ولكن الاكثر إثارة للقلق بالنسبة لى هى رسائل التهديد التي تصلني فى كل مرة أكتب مقالاً عن الأرمن الكرد أو الجيش

" ألستِ تركية ؟؟.. أو أنتِ تركيةٌ أليس كذلك؟ "نفس السؤال الذى طرح فى البار الذى يدعى "شيرز" وبنفس الحدة

هل يعنى "أنك تركية" أنى واحدة منهم؟ أليس من الممكن أن تكون تركياً ولا تكون جزءًا من كل هذا؟ لماذا لا أشير إلى نفسي مطلقًا بأنني تركية؟ هل هناك شيئٌ يدفعنى لأن أكون أكثر حرصاً من الفرنسي والانجليزي بالرغم من كل تساؤلاتي حول كوني تركية؟ إلا أنني بلا شك فى هذه البلاد تركيةٌ لا محالة. هكذا يتعاملون معي، فالتركي في أرمينيا كالألماني في إسرائيل تماما،

وكاليهودي فى رام الله، وكالأمريكي في أرض السكان الأصليين لأمريكا، وكالفرنسي فى الجزائر، بالطبع هناك أمثلة اخرى ..

إلى أي مدى نحن مسئولون عن خطايا الماضي؟ ما الذي يجب نشعر به تجاهها؟ وهل يجب أن نشعر بأي شيء على الإطلاق تُجاه جرائمَ لم نرتكبْها بأنفسنا؟

ما هى الطريقة المثلى للتعامل مع الناس الذين ينسبون لك أخطاءَ الماضى التي لم ترتكبها أنت؟ كيف تتحدث مع الناس الذين يحنقون عليك حتى قبل لقائك ؟

أستطيع أن أرى الآن أن يريفان لن تكون بالنسبة لى المدينة التي أستطيع أن أضحك فيها وأكون على طبيعتي، سأكون دوماً تركيةً هنا، وفى اللحظة التي يكتشف فيها الناس أننى تركية سيكونون أرمنين بالنسبة لي. لذا كان لزاماً على أن أخرج فى رحلة إلى قلب أرمينيا، إلى القضية الأرمينية، ومن اليوم فصاعدًا سأكمل الرحلة كما بدأتها، كالقذيفة التي لا تدري أين ستنتهي رحلتها التى بدأت فى يريفان وما الذي يكمن تحت سطح هذا اللون الرمادى اللامتناهي.

- جبل أرارات هو أعلى قمة جبلية بتركيا. وهو بركان نائم تغطيه الثلوج، يقع في شمال منطقة شرق الأناضول بمحافظة أجري، على بعد 16 كلم من الحدود مع إيران و 32 كلم من الحدود مع أرمينيا. يرتبط جبال أرارات بعدة ديانات حيث طبقاً لكتابِ التكوينِ، فقد استقرت [illegible] على قمته، كما يحظى بمكانة رفيعة لدى الأرمن، حيث يرتبط بالقومية الأرمينية منذ عصور ما قبل الميلاد. (المترجم)

- يرجح أن يكون هذا اللفظ تعبيرا محليا عن الجزع لدى سكان يريفان ؛ تعذر الحصول على ترجمة مكافئة للكلمة في أي لغة أخرى، وإن كان موقعها من النص يدعم تفسيرنا لها. (المترجم).

الفصل الثانى: أنا مراسلة من آلاسكا

"في بلدكم تشربون نخب (الشرف) أليس كذلك؟ إنه كذلك بالفعل. على أية حال فالناس يرفعون كؤوسهم في نخب الشيء الذي لا يملكونه".

تتجمد يداي في الهواء. ويسود الصمت الحجرة حتى لَيُسمَعُ صوتُ فرقعةِ فقاعاتِ الشمبانيا واحدة تلو الأخرى. حتى مديرُ متحف الإبادة الجماعية "بارسيجين لافرينتي" يجفل تماما مثلنا من اختيار مساعدته للكلمات ونحن على وشك قرع الأكواب. وقد تحرت هي وجهي لتقدر مدى الضرر الذي تسببت فيه. وأشك في أنه كان على وجهي الكثيرُ لتراه، فأنا لم آخذِ الأمرَ على محمل شخصي. وكان صمتهم يقول إنهم ينتظرون مني أن أتفوه بشيء ما، لكنَّ شيئًا لم يَصدر مني. أظن أنني كنت لم أزل بَعدُ أترنح من أثر ما رأيته هذا الصباح.

**

مع صعودنا "تستسيماكابيرد"؛ "قلعة طيور السنونو الصغار" وهو الاسم الذي يعرف به النُّصُبُ التذكاري في أرمينيا، أشار "بنجامين" إلى قمم التلال الأخرى التي تطوق المدينة قائلا: "لقد جلب الأناضوليون الأمريكيون الأناضول معهم" فتلال المدينة مثل "نيو مالاتيا، نيو أزمير، نيو سيفاز" قد سميت على أسماء مدن أناضولية. وهم يطلقون على النصب التذكاري "عُشّ السنونو" لأن القادمين الجددَ من الأناضول كانوا يشبهون طيورَ السنونو المهاجرة.

أنهينا طريقنا بالوصول للتل، كان اليومُ هو السادسَ والعشرين من أبريل، وما زالت بقايا الاحتفالات التذكارية بالرابع والعشرين من أبريل قائمةً . تجولت حافلاتُ أطفال المدارس الابتدائية في أنحاء قلعة طيور السنونو الصغار وبأياديهم الورودُ ، وكانت هناك شعلةُ نيرانٍ أبدية تُضِيءُ في منتصف النصب التذكاري الرخامي. ووضع الأطفال ،بأسًى، باقاتِ الورد على التل الكبير القائم هناك. وعندما قلنا إننا من اسطنبول وننا نود التحدث معهم، أحاطوا بنا وكان

التعبيرُ البادي على وجوههم هو خليطًا من الشك والفضول. وقد صدمني أن أطفال المدارس الابتدائية يَسألونني بشكل تلقائي "هل تعترفين بالإبادة الجماعية ؟ "وهذا في ظني تساؤل ناضج باستخدام ألفاظ ناضجة.

وهو ما يعني بالطبع أن هؤلاء الأطفال على دراية بمعنى كلمة "الإبادة الجماعية " في سن مبكرة جدا، وهو ما يشبه كثيرًا حديثَ أقرانهم في تركيا عن كيف "أننا" هزمنا العدو وأسسنا الجمهورية. فقبل أن ينضجوا بما فيه الكفاية للإلمام بمفهوم الموت؛ يتعلم أطفال تركيا أن يقولوا "لقد ألقينا اليونانيين في البحر".

كانت المدرسة التي ارتدتها في أزمير تسمى "مدرسة التاسع من سبتمبر الابتدائية"، وفي هذا اليوم من كل عام كانوا يعلموننا مرة أخرى كيف تم إلقاء الخائن (روم) في البحر. وفي اللغة التركية يترجم التعبير حرفيا "تم صبه في البحر" ، حيث كان التعبير "الخائن روم تم صبه في البحر" يتكرر كثيرًا حتى غدا وكأنه نوع من الإعصار الكلامى ، أي سلسلة من الكلمات ليست ذات المعنى. وما لم نكن نعرفه أن اسم هذه المدرسة التي كنا نلعب فيها لعبة الاختباء والبحث يشير إلى حدث يمثل مأساة لقوم آخرين . كما لم ندرك أنه شيء يتوجب علينا معرفته. لقد كنت أظن أن (روم) هو مجرد شيء تم صبه في البحر، مجرد سائل كريه تم القاؤه في المياه فاختلط بالماء المالح حتى تلاشى في النهاية. هكذا استطعت تمييز ذلك الامر. فربما كان لدى الأطفال هنا في "يريفان" أفكار مشابهة تتعلق ب"الإبادة الجماعية ". وقد تستحضر صورًا غير معروفة لدى الكبار ، صورًا ينساها الأطفال ما أن يصبحوا راشدين. وفيما يتعلق باللامبالاة التي يشير بها هؤلاء الأطفال إلى مأساة مرعبة، فهم ربما ينظرون للأتراك بنفس الشكل التي نظرت بها أنا لليونانيين فى صغرى ، ربما يتخيلون أن " الإبادة الجماعية " هي نوع من الوحوش.

لقد كانوا جميعًا ينظرون إلينا مفعمين بالغضب الذي يطوف بعقولهم. كنا محاطين بغضب الأطفال وفضولهم، وكانت الدائرة تضيق علينا. لكن كان لزامًا علينا أن نسرع بالذهاب وإلا فوتنا موعدنا مع "بارسيجين لافرينتي" نائب

متحف الإبادة الجماعية الأرميني.

كانت هناك شابة في انتظارنا على باب المتحف الذي يقع تحت النصب التذكاري، أخبرتنا أنها مساعدة المدير لكنها لم تفصح عن اسمها. كنا نقطع ممرًا طويلاً ضيقًا في نهايته يقع مكتب المدير. لكنها لم تكن متعجلة؛ فقد كان لديها شغف لأن تُرِينَا كُلّ تفصيلةٍ في المُتحفِ . ولأن ذلك لم يكن مجردَ مُتحفٍ عادي، ولأننا من تركيا؛ فقد كانت الجولة التي قادتنا فيها السيدة الشابة مشحونةً بالمعاني العميقة والمشاعرِ المختلطة.

في البداية أرتنا خريطةً محفورة في الصخر، في هذه الخريطة بالتحديد كانت أرمينيا الغربية تضم مساحاتٍ شاسعةً مما يعرف اليوم ب"تركيا الشرقية"، وشعرت ساعتها أنني سأطير في الفضاء؛ والحقيقة أنني دومًا ما كنت أظن أن الناس سرعان ما يضيقون بالخطوط المرسومة على الخرائط، خاصة مع الأخذ في الاعتبار أن أغلبنا لم يزر أيًّا من تلك الأماكن المرسومة في هذه الخرائط ولا يعرف كيف يعيش أهلها. بعد أن مررنا بالخرائط وصلنا لقطاع "الوثائق". وثيقة وراء أخرى تعود جميعها لعام 1915.

كان هناك شيء غير عادي؛ فهناك أمر غريب يتعلق بتصميم المتحف واتجاهه. كان التركيز بقدر صغير على توثيق الحزن المتعلق بالمأساة الأليمة بينما كُلّ الاهتمام مُنصَبًّا حول محاولة الإثبات الدقيق لوقوع المأساة بالفعل، وكأنه برغم الغضب الجلي المكتوب في النصوص على حائط المتحف، فإنه- المتحف- يتوقع زوارًا أتراكًا وليس أرمينيين؛ وكأن كل الأشياء الموجودة في المتحف قد اختيرت تحديدًا ووضعت بهذا الشكل من أجل الشرح والتوضيح للأتراك الذين ربما يزورون هذا المتحف يومًا ما. كان المتحف يبدو وكأنه يحمل نبرةَ طفلٍ مضطهدٍ تعرض للإساءة يتحدث من خلال أسنان تصطك ببعضها البعض. وقد منعتني تلك النظرةُ الصارمةُ التي رمقتنى بها نائبة مدير المتحف عن أن أبوح بالأفكار التي تدور برأسى. بعد قسم الوثائق كان هناك قسم للصور الفوتوغرافية لأشخاص على وشك الموت، أو آخرين ماتوا بالفعل من أثر

المجاعة. وبينما كنا نقف لننظر إلى كل صورة من الصور، جعلتني نائبة مدير المتحف أشعر بأنني لم أقف المدة الزمنية الكافية لمشاهدة كل صورة. وكنت أود أن أعلمها أنه لا توجد علاقة بين الفترة الزمنية التي أقضيها محملقةً في هذه الصور ذات اللونين : الأبيضِ والأسودِ ، وبين قدرتي على تقدير المعاناة التي تصورها كُلٌّ منها وتعاطفي معها. لكن ما حيرني حقًّا هو أنه بالرغم من أنني أنظر إلى هذه الصور للمرة الأولى إلا أنني أتحرك من أمامها بشيء من السرعة، لم هذا؟ هل اضطربت بسبب شعوري المباغت بأنني مثقلة بجنسيتي التركية؟ أم إنه ببساطة لأن الصورَ بالفعل مدعاةٌ للاضطراب. لقد رأيت على امتداد سنوات عمري العديدَ من الصور التي لا تقل بشاعةً عن تلك المعلقة على الجدار أمامي الآن. وربما لولا شعوري بالإجبار لكنت قد وقفت فترة أطول محدقةً في الصور؛ وأيًّا كان موضعُ نظري؛ فقد كنت على دراية بأن نائبة المدير تتفحص وجهي دائما، باحثةً فيه عن شيء ما، هل هو علامات الندم أم الذنب؟ أو ربما الدموع؟ ما كنت أُحِسُّهُ ساعتها : هو شعورٌ مزعجٌ بالانفصال، والذي هو بلا شك ردُّ فعلٍ على الموقف الاستعراضي الذي تلعبه نائبة المدير وما كتبته لي فيه من سطور مشحونة بالانفعالات. لقد مررت على الصور سريعًا.

تساءلت عما تشعر به، كان وجهُهَا ممتقعًا ... وجهَ شخصٍ شديدِ الحزنِ أو يحمل همًّا كبيرًا، وجه شخص يخشى أن يفقد السيطرة إذا هو تكلم. وصلنا إلى آخر المتحف. كان هناك حائط كامل مغطى بصورة فوتوغرافية كبيرة للأطفال الذين وصلوا إلى أرمينيا بعد عام 1915. مئات من الأطفال يقفون في صفوف أمام الكاميرا، كلهم جوعى، نحاف، ومكفهروا الوجوه. كلهم من الأناضول، اِلتَقَتْ عيوننا، أنا أعرف هؤلاء الأطفال.

يشيخ أطفال الأناضول مبكرًا ، ربما يكون ذلك راجعًا لسوء التغذية، وربما يكون السبب ببساطة هو لعنةَ الشرق الأوسط بامتلاك أهله لهذه الهيئة المصغرة لوجوه رجال ونساء ناضجين. توحي بأن أصحابها قد عرفوا الرعب وخبروه جيدًا. إن الحرمان من الطفولة وإنكارها على الأطفال هو قدرٌ أسوأُ بكثيرٍ من

الموت نفسه، كنت أفكر في ذلك مع نفسي وأنا أبطئ الخطو لكى أتمعن في وجوههم واحدًا تلو الآخر. لكنني لم أسمح لوجهي أن تبدو عليه أيةُ علاماتٍ للانفعال أمام نائبة المدير، فأكملت السير.

في هذه اللحظة لم يكن من وسيلة أتكهن بها ... أنني بعد وقت طويل جدا، وتحت ظروف مختلفة كليا، سأدرس وجوه الأطفال الشائخة تلك. لذلك تخيلت وأنا أندفع داخلة مكتب "لافرينتي" أنني سأستطيع محو هذه الوجوه من مخيلتي.

امتلأت كؤوسنا سريعًا بالشمبانيا، وأخيرًا أظهرتِ المرأةُ التي قادتنا على امتداد الممر استجابةً على ما أظهرته من ردود فعل أثناء سيري بالممر، أو بالأحرى على قلة ردود فعلي: "على أية حال فالناس يرفعون كؤوسهم في نخب الشيء الذي لا يملكونه".

عندما أدرك السيد "لافرينتي" أنني ليس لدي ما أقوله، تدخل بدبلوماسية قائلا: "الرجال الأرمينيون عادة ما يشربون نخب المرأة الجميلة، هذا نخبك يا سيدتي".

كانت الشمبانيا منعشة والحديثُ مجنونًا، لكنني لم أكن أستطيع التركيز. كنت أفكر في نائبة المدير. كنت أود أن أخبرها بأنني أفهم ما تشعر به، وأنني أتمنى لو أنها لم تكن غاضبة هكذا. كان السيد "لافرينتي" مازال يتحدث "لقد كنا جيرانَ تركيا لمدة 700 عام ولا يمكننا أن نقطع هذه الأواصر بيننا أبدا، لكننا كذلك لا نستطيع تحريفَ الحقائق التاريخية، لقد تعرضنا لتطهير عرقي، وهو أمرٌ ليس في وسعنا نسيانه. وعبر تاريخنا الذي يمتد لأربعة آلاف عام، واجه شعبنا فتراتٍ من الاضطهاد، على سبيل المثال في القرن القرن الرابع الميلادي .... "

شرع السيد "لافرينتي" في تقديم درس تاريخي طويل في الوقت الذي كنت فيه أمعن التفكير في سلوك نائبته. وعلى الرغم من شعوري بأنها قد عاملتنى

بكثير من الظلم، إلا أنني كنت لا أزال أرغب في تبديد غضبها، أنا أعرف أن هذا الغضب يخفي تحته دموعًا، فهو يمكننا من أن نظل صامدين لا ننهزم أمام الأسى.

ما لم أكن أفهمه حقًّا : هو قدرتُها على الإحساس بالألم الشديد جَرَّاءَ شيء قد حدث قبل مولدها بأعوام عديدة. كيف استطاع هذا الألمُ أن يظل حيًّا، حَيًّا لدرجة تجعلها تغضب من شخص تقابله للمرة الأولى ولا تعرفه على الإطلاق.

"مرت دقيقة قبل أن أدرك أن الصمت معناه أنني لابد أن أتحدث " متى أُنشِئَ هذا المتحف ؟"

كان "لافرينتي" هو الوصي على المتحف ومديره منذ افتتاحه عام 1995، فهو سبب وجود المتحف. ولهذا فقد سألته "كيف سيكون شعورك إذا قالت تركيا: نعم لقد كان تطهيرًا عرقيًّا"؟

"الناس ليسوا بحاجة للمال أو للأرض، كلُّ ما يريدونه هو اعتذارٌ . بنفس الطريقة التي اعتذر بها المستشار الألماني "ويلي براندت" عن التطهير العرقي لليهود. لا شيء أكثرَ إيلامًا لنفس الضحية من إنكار وقوع الجريمة. هناك ما بين 500 الف إلى 600 ألف أرميني من "المغتربين" يأتون كلَّ عامٍ لزيارة هذا المتحف، وأنا من أقوم كلَّ مرة بأصطحابهم فى جولة لمختلف أرجائه، ومتى يبكوا .. أبكي."

كان "لافرينتي" سياسيًّا بارعًا يجيد الحديث وتوصيلَ رسالته لجمهور مستمعيه. لقد تكلم عن صور التطور التاريخي والسياسي في محاولة منه لإقناعي على وجه الخصوص " الحكومية العثمانية عام 1915 فوضوا الأكراد لقتل الأرمينيين. وهذا هو سبب مهاجمة الأكراد للقرى الأرمينية.

وبينما أجاهد في متابعة هذا المحور الجديد في الحديث، هدَّأ لافرينتي من نبرة صوته وتساءل قائلاً: وما الضير على أية حال إذا اعتذرت الحكومة

التركية ؟".

كان الدور دوري فى الحديث هذه المرة وأنا وحيدةٌ تمامًا، كنت بالأمس فقط منبوذةً لأنني "تركيـة" واليوم مطلوبٌ مني تقديمُ الاعتذار عن كوني تركيـة. ارتشفت رشفةً صغيرة من الشمبانيا، أتبعتها بأخرى. وقد استشعرَ يورتاش عدمَ ارتياحي فتعلل قائلاً "لقد تأخرنا على موعد هام" وخرجنا دون أن نعتذر.

ونحن نخطو للخارج بصحبة لافرينتي، أشار للمطر المتساقط قائلا: "لو أنكم فقط تستطيعون رؤيته، إن أرارات يبدو رائعَ الجمال من هنا".

علمت ساعتها أنني سأظل طوال فترة وجودي في "يريفان" عالقةً في جنسيتي التركية ومصحوبة بلعنة أرارات". ومع خروجنا اِلتقت عيناي بعيني المساعدة الشابة. وساءلت نفسي عن حال شخص يحيا هنا بين هذه الصور والوثائق، محاطًا بالموت داخل صمت المتحف.

**

"آه لو أنكم استطعت رؤية جمال أرارات من هنا" اِنفجرَ هايجارام ضاحكًا على هذه التحية من "ليفون أنانيان" رئيس اتحاد الكتاب الذي استقبلنا في مبنى خشبي ذي طراز روسي، متقادم وكئيب.

"هايجارام"؟

"هـايجارام ناهابيـديان" يشبه "يريفان" في الكثير: صامت ومتواضع ودقيق. يبدو وكأن المدينة أدركت أن "بنجامين" لن يستطيع العمل بشكل عادل فقررت أن ترسـل إلينـا مرشـدًا آخـرَ . فـارع الطـول، قليـل الكـلام. لكن قبـل أن يقرر مساعدتنا كان قد قابلنا مقابلة استغرقت مدة طويلة لتحديد ما إذا كنا مثل الصحفيين الأتراك السابقين الذين "يكتبون المقالات عن يريفان قبل حتى أن تغادر أقدامهم مدخل فندق الماريوت" ويتخيلون أنه "لا شيء لدى الأرمينيين سوى الإبادة الجماعية ". إنه صُحفي درس "التركيات ". عندما حكينا له عن

مقابلتنا مع مدير المتحف "بارسيجين لافرينتي"، حاول أن يكتم ابتسامة لكنه فشل. قال باستهجان "إنه يحب ذلك" "فهو عمله"، تحدثنا عن المساعدة الشابة ومسألة "الشرف" فقال ردًا على ذلك "لا تتصوروا أن كل فرد في أرمينيا على هذه الشاكلة، لكن أيضًا لا تتوقعوا أن تجدوا ولو فردًا واحدًا ينفض عقله تماما من مسألة الإبادة الجماعية .

قال لنا "هايجرام" إننا يلزم أن نتحدث مع "ليفون أنانيان"، وأن هناك موعدًا قد تحدد لذلك في الحال. مع دخولنا الحجرة كنت أحكي له كم تعذبنا بأمر الجبل المفتقد، وهو ما كان سبب انفجاره بالضحك عندما ذكر "ليفون أنانيان" جبل أرارات.

مازال مبنى اتحاد الكتاب ينعي النظام السوفييتي البائد، والذي يجعله فراغُهُ يبدو أكبرَ حجمًا وأكثرَ كآبةً . كلُّ المباني التي بنيت زيادةً عن الحاجة تكون على هذا الشكل، كلُّ أسرارها تمتصها الجدران وتخفيها بعيدًا في داخلها. كانت حجرة "أنانيان" تقع في مكان ما في متاهة الممرات. على مكتب السكرتارية بجوار هاتف بقرص دائرى قديم يوجد كتيب يعرض أنشطة الاتحاد. من الواضح على أية حال أن الكلمات التي قيلت في هذا المبنى لم تعد تحوز قدرًا كبيرًا من التقدير. وهو يجلس في حجرته الواسعة محاطًا بالكراسي الضخمة، كان "أنانيان" هو الصورة المثلى لربان يهبط مع سفينته نحو الغرق.

"أنانيان" لا يكتفي بالنداء على مساعديه بل هو أيضًا يتحول نحو جهاز تسجيل ويقول موضحًا: "الصحفيون التركيون الآخرون جلبوا لي المشكلات، أتعشم أن تسامحونى فيما سأفعل، لكنني بحاجة إلى تسجيل كل كلمة تدور بيننا".

سألته قائلة: "ألا يمكنك أن تدعي لدقيقتين فقط أنني لست من تركيا؟ " تخيل أنني مراسلة من آلاسكا، فهل يمكن أن نتحدث عن الأرمينيين بشكل عام قبل أن نناقش أحداث عام 1915؟"

حكيت باختصار ما شهدته في المتحف صباحًا، وأكدت بوضوح على أنني أريد التحدث عن الأرمينيين بشكل عام وليس بالضرورة عمّا حدث عام 1915 تحديدًا؟ ابتسم أنانيان وهو يقول "سيدتي الشابة، إنك مثلُ طائر سنونو جمع شعبينا معًا مرة أخرى، لكن أتعلمين سيدتي: إن شعبينا قد افترقا بحكم القدر، وهذا أمر لا مجال لتفاديه".

ألا يمكنني الفرارُ من قدري؟ ولا حتى بقدر ما ؟ هل تحددت مصائرنا بالمجتمعات التي تشكلت والتي ولدنا نحن فيها؟ طافت هذه الأسئلة برأسي حين كان "أنانيان" يكمل حديثه قائلاً "أيًّا كان ما نفعله، سيأتى ذكر الإبادة الجماعية ويفرق بيننا" لن نتمكن يومًا من معرفة الأتراك عن حقٍّ ، ولن يتمكن الأتراك يومًا من معرفتنا. لكن ذلك ليس خطأ الأرمينيين، على المجتمع أن يصنع سلامًا مع تاريخه. إنهم يسعون اليوم لمناقشة هذا الأمر بشكل علمي في المؤتمرات. ويُعَدُّ طرحُ السؤالِ "هل وقعت الإبادة الجماعية عام 1915" بالنسبة لنا هو مِثلَ أن تتساءل قائلا "هل احتل الأتراك اسطنبول عام 1453؟". إنه لمن المستحيل أن تتحدث مع أهل أرمينيا دون أن تتحدث عن الإبادة الجماعية .

رددت قائلة "يبدو ذلك كثيرًا مثل كوننا لا نستطيع تجنب الحديث عن جبل أرارات. كيف يكون شعورك عندما تنتمي إلى جبل لا ينتمي إليك؟ "

أشعل "أنانيان" سيجارة. ونفخ الدخان بشفتين مضمومتين قائلا "لا وجود للأرمينيين دون أرارات، أنتم الأتراك تسمونه (آجري Ağrı) على الرغم من أنه مكتوب في الكتاب المقدس باسم أرارات"، ثم تنامى غضبه وعلا صوته وهو يقول " كل قصيدة شعر أرمينية تشير إلى أرارات، بل إن كل أرميني يعيش في أمريكا يحمل أرارت في قلبه" ثم تنهد قائلا: "كم تمنيت لو فهموا كيف هو شعورنا نحو أرارات، تأكدي سيدتي الشابة أنهم لو عرفوا ذلك حقًّا، فإنَّ أكثرَ الأتراك تعصبًا سيسعده أن يحضرَ لنا هذا الجبلَ محملاً على الشاحنات"

جُلت بعقلي في جبال تركيا جميعها، كانت كلها مزركشة بالنجوم والأهلة

المنقوشة بالطباشير والحجر الأبيض. لا.. لم أكن لأود هدمَ "أرارات" .. أنانيان. وهذا هو السبب في أننا على مدخل المبنى وقفنا أمام صورة لجبل أرارات، هذا الجبل المحلق الذي يعلو طبقة فوق أخرى.

استعادت ذاكرتي صورَ الفنادق التي رأيناها على أغلفة الكتب في نوافذ المحال، وسألت السيد "أنانيان" عنها، فأجاب بابتسامة "إن شعبنا يقرأ كثيرًا، لكن اقتصادَ السوق الحر غَيّرَ كلَّ شيء بالطبع. في أرمينيا السوفييتية كان كتاب الشعر يطبع منه 40000 نسخة ويطبع من كتاب الرواية 60000 ألفًا، كانت الملكية رائعة، لكن عندما حصلنا على الاستقلال وانتهى الدعم الحكومي، أصبح على كاهل الكتاب عبءُ إيجادِ من يمولون أعمالهم، وللممولين شروطهم التي يفرضونها. لذا تجد أن هناك كثيرًا من أغلفة الكتب التي تحمل صورًا للفنادق أو غيرها من الشروط التي يمليها الممولون. إن بلدنا فقير جدًا، هجره أهله. لكننا مازلنا نكتب عن البحار، نحيي ذكريات ذلك الوقت الذي كانت فيه هذه الأرض ممتدة من البحر للبحر. هناك شيء واحد يبقي هذه الأرض حية، إنها مشاعرنا.

"مشاعرنا" .. بدأت الاشياء التي رأيتها تكتسب مزيدا من المعنى. ذكريات الأشجار المتمايلة، "أرارات بنجامين"، مساعدة مدير المتحف، العجوز التي كانت تتسول باللغة الانجليزية أمام مكاتب الصرافة الأجنبية، باقات الورد والأطفال في قلعة طيور السنونو الصغيرة، إنه على كل حال شعب هزمه الاستنزاف المتكرر والتشتت، يستعيض أهله عما فقدوه بجبل.. بألم .. بمشاعرهم. ومع تشتيتهم في أركان العالم الأربعة، فإنهم يؤمنون بأنه طالما بقي هذا الجبل واقفًا والذي يمثل بؤرة كيانهم، فسيظلون هم أيضًا قائمين على وجه الأرض. وفي أعماقهم يكمن عذاب خفي بأنهم متى يحصلون على اعتذار فإنه سيجمع شتاتهم ويمنحهم شعورًا غير مسبوق بذاتهم. كلما كان موقفي بعيدًا عن موقف المتهمة، كلما كان فهمي لقلوب الأرمينيين أفضل، أو هكذا ظننت.

ونحن نترك "أنانيان" في هذا المبنى، الفارغ من الناس والصامت تمامًا، شعرت بالحاجة لإخبار "هايجارام" عن مدى غضبي من الصحفيين الذين يأتون إلى تركيا لبضعة أيام ثم يحاولون اختزال أعمق تعقيداتها في بضع جمل عندما يعودون إلى أوطانهم. إن لكل منا الحق في أن يشعر بالقلق من الصحفيين الذين يأتون لزيارة بلده.

إن هايجارام محمي من قِبَل بلده، وهذا هو سبب ثقتي فيه لأنه لا يبسط الأمور عندما يشرح لي حال الأرمينيين، لأنه قد نَمَّا لدى العاطفةَ ، ولأنه يوضح الأمور باستفاضة. إنك لن تستطيع تعلم شيء حقيقي عن بلد ما إلا بالاستماع لشخص يهتم لأمر هذا البلد بشدة. وهذا هو سبب ثقتي فيه، وأظنه قد بدأ يثق بي في تلك اللحظة التي أخبرته فيها عما دار في عقلي وأنا في المتحف. أو ربما لأنني أخبرتـه كم هو أمر مسيء أن ترى سيدة مسنة تتسول بالإنجليزية في الطرقات. لقد قال لي: "إن التغير الحادث بعد الاستقلال لم يكن هينًا على أي منا، لقد كان الأمر غريبًا"

صمت قليلاً ، ثم بدا متفائلاً عندما طافت برأسه فكرةٌ ما فقال "دعينا نتناول شيئًا ما، هناك مطعم أود أن أريك إياه".

**

"سكاتات الأطفال السوفييتية! حمولة جدًا لدرجة أنك تستطيع استخدامها لمئة عام" وكأن مطعم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية لم يكن حديديًا بما فيه الكفاية، فقد تم وضعه بجوار محل بيع سيارات "بورش". كانت العلامة الموضوعة على الباب حمراءَ كاحمِرارِ سيارات البورش المعروضة. دخلنا...

إذا أردت أن ترسل لستالين "اقتراحاتك وشكاواك" فيوجد صندوق اقتراحات صغير. جاءت الفاتورة مطوية داخل بطاقة هوية قديمة؛ وغُلقت الميداليات على تماثيل لينين، ووضعت على قوائم الطعام طوابع "وثيقة سرية"، حتى إنه

على يمين مدخل المطعم توجد خلية صغيرة للسجناء السياسيين. في هذه الخلية يجلس رجل في ملابس السجناء على سرير ذي طوابق يتناول طعامًا فـي وعـاء معدني. كـانت الحـوائط مزينـة بشـعارات تتفكـه بعقليـة الحقبـة السوفييتية. أمورٌ مثل السكاتة وأن "الرقائق السوفييتية هي أكبرُ رقائق في العـالم". وردت علـى بال "هاياجرام" حكايـة مواتيـة ساعتها فقال" لقد جاءت "صـوفيا لـورين" إلـى اتحـاد الجمهوريات الاشـتراكية السـوفييتية، هذا الجزء صحيح، أما بقية الأمر فهو مزحة. سألها "بريجينيف" : "هل من شيء تودينه آنسة "لورين"؟ فأجابته قائلة: نعم سيكون أمرًا لطيفًا منكم لو فتحتم الحدود سـيد "بـريجينيف" ، فاقترب السكرتير العام منها وسألها متغزلاً "ولم ذلك يا "صوفيا"؟ ألأنك تريدين قضاء بعض الوقت معي على انفراد؟ "

ضــحك "هــاياجرام" وبـدأ يحكـي النكتـة الثانيــة "سـأل المراسـلون السـيد "بريجينيف" ما الذي تفعله في أوقات فراغك؟ فأجاب "أجمع كل ما قيل عني مـن نكـات" وكـان الصـحفي فضوليًا فسـأله "وكم نكتـة جمعت حتـى اليوم؟" فأجابه قائلا "ما يستحق السجن عامين ونصف "

ضحكنا نحن ،الإثنين، طويلاً، وسنعرف في الأيام القادمة أن الحديث الأخير يعد لبعض الناس أمرًا غيرَ مضحك على الإطلاق. لكن بالنسبة لهذه الليلة فقط، وبعد هذا اليوم الطويل العسير كان كل منا يحتاج لضحكة.

قلت لي من الذي كان يعزف اليوم يا "هاياجرام"؟

"أرتوتونج بوياكيان" فريق الموسيقى الخاص بسلاح البحرية الأرمينية.

سلاح البحرية الأرمينية؟؟!! لكن أرمينيا ليس لديها محيط!.

**

قال "أرتوتونج بوياكيان" : "أنا أنتمي إلى نفسي"، قلت لنفسي، أخيرًا وجدت شخصًا أستطيع التحدث إليه. كنت مرتاحة جدًا لأرتوبوياكيان، وهو أرميني

اسطنبولي يقضي وقته مسافرًا بين اسطنبول ويريفان والولايات المتحدة الأمريكيـة، وقد نحينا خلافاتنا جانبا لنكون كأصدقاء قدامى. استرخى في مقعده، رجل ناهز منتصف العمر لكنه يتحدث كطفل كسير القلب. عندما كان يتحدث كان صوته يشي بالغضب حينًا ويصدح بالحزن حينًا آخرَ . "عندما آتي هنا أكون تركيا، وعندما أذهب إلى تركيا أكون أرمينيا. إنهم لا يحبونني كثيرًا لا هنـا ولا هنـاك. شخص ما يجلس هنا بنظرته السياسية الجاهزة، وتأتي أنت وتقول شيئًا يفسد ذلك. إذا جعلتهم يضيقون بك، كيف تتوقع منهم أن يحبوك؟ شيء ما حدث في عام 1915. لقد مات الكثيرون من عائلتي أيضًا. لكن الآن وبينما نحن نتحدث، هناك محطة للطاقة النووية توجد خارج يريفان، لو أنها انصهرت فلن يكون هناك أرمينيون أو أتراك. أتمنى لو أننا جميعًا نكون أبناء الأرض، مواطنين لهذا العالم. اللعنة .. إننا نكب كل هذه الأغنيات لكن الناس لا يتغيرون البتة. إنني فرد في أقلية لأنني أرميني، أنت في أقلية بسبب أفكارك. ما الذي يصنعه ذلك من فارق؟ إن كل "إنسان" حقيقي هو بالفعل فرد في أقلية.

قبل الحفل، وتحت تأثير الضوء الشديد لمصابيح الفلورسنت استمر بوياكيان في الحديث إلى أن لمست نقطة حساسة "أود أن أعيش في الأناضول، بإمكانك أن تبني ماشئت من محطات نووية وصواريخ، لكنك بمجرد أن تفقد الأناضول فإنها ستكون قد ضاعت إلى الأبد. لهذا بنيت منزلا على بعد 150 كيلومترا من "يريفان". لقد ذهبت إلى "أزمير" لكن الأمر مختلف، كما أنك لا تستطيع أن تجد نكـهة الأناضـول فـي "يريفـان" أيضًا. علـى الأقـل خـارج المـدينة سـتستطيع استشعار برودة "سيواس " ، رائحة الأناضول.

بدوري كأحد أبناء الأرض سألت عن صورته على جبل أرارات بعيد المنال، فبدأ يتحدث قائلاً "عندما جئت هنا لأول مرة قضيت الليل في منزل صديق لي" رأيـت صـورة هـذا الجبـل السـاحر علـى الحـائط" فقلت لنفسي: "إن الأرمينيين لـديهم فنـانون رائعـون". فقـط أنظرْ إلى هذه اللوحـة، وعندما استيقظت في الصباح التالي اكتشفت أن ذلك لم يكن لوحة فنية ولكنها مشهد حقيقي لجبل

أرارات من نافذة الحجرة. في هذا اليوم فهمت لماذا يتحدثون دومًا عن هذا الجبل. إنه يبدو كقصيدة شعر من هنا، لقد قضيت فترة تجنيدي في جيل أرارات، لكنني في ذلك الحين لم أكن على علم إلى أي مدى يعد أرارات مهمًا. إنهم يشعرون أنهم ينتمون لهذا الجبل. هناك شعب واحد في هذا العالم يشعر أنه ينتمي إلى جبــل: الشعب الأرميني. لذا دعني أسألك: من الذين يملكون جبلاً ؟ أهم أولئك الذين يملكون جبلاً على حدودهم ؟ أم الذين يشعرون أنهم ينتمون إلى هذا الجبل مهما ذهبوا إلى أي مكان في العالم؟"

آرتو، الذي يعتلي المسرح أمام شعب ينتمي لرؤية بعيدة لجبل، ومن خلال فريق سلاح البحرية الأرمينية يحاول أن ينقد هذا الشعب إلى محيط لا وجود له، سيكون بالتأكيد في قمة التعب من كل التعقيدات والتناقضات التي تكون موجودة في لغة أهله حينما يغني، في أغنيات صنعها بنفسه. وهو على المسرح يتحدث بالتركية من حين لآخر ويقول "إن أفضل لعنة تقال عن بوش تكون باللغة الأرمينية".

يصرخ قائلا إن كلمة "بوش" .. هي المرادف الأرميني لكلمة الأحمق. بينما هو يغني هذه الأغنية دون كلماتٍ مكتوبةٍ سلفًا انضم إليه ابنه ذو الأم الأمريكية وصعد على المسرح يقرع الطبول مع أصدقائه الأفرو- أمريكيين. غنى الجمهور مع آرتو وابنه وهم يرتجلون كلمات للأغنية بترتيب الحروف الأبجدية، ومع كل حرف جديد كانت وجوه الجمهور تبدو وكأنها تضيء.... لماذا؟ لأن كل حرف يرتبط مع بقية الحروف ومع قصصهم الذاتية بنفس الكيفية التي يرتبطون فيها بعام 1915 وبأرارات. هذا السيناريو الذي وضع في القرن الرابع الميلادي يحكي لأطفال "يريفان" عن فنان هيب هوب أمريكي يعيش في أمريكا يأتي من نفس المكان الذي أتوا منه.

وتكون تعبيراتهم عن الفرحة منبعها اكتشاف القصص القديمة والحروف القديمة. وبينما هؤلاء الشباب يبتسمون بسعادة مسحورين بهذه الحروف ذات السبعةَ عشرَ قرنًا من الزمان، كنت أتساءل: تُرى إلى أي مكان يشعر هؤلاء

الشباب بأنهم ينتمون؟

جميعنا، كلُّ أطفال العالم، نتلقن منذ صغرنا قصةً تُعَرِّفُنَا إلى أي نوع من أنواع الحزن ننتمي. كان أهلنا مصرين بقوة على إحياء وتمرير هذه القصص التي تعتمد على شخصية ملحمية بصورة متصاعدة مما يجعل من السهل علينا الضحك عليها. لكن بمجرد أن تبدأ في هذا الضحك تصبح بعيدًا عن مشاعر الإنتماء الذي يسعون لزرعه وإدراكه. والآن في اللغة الأرمينية وهم يغنون هذا الغنوة الشعبية التى تدور حول أبجدية اللغة، أين تقبع تلك القصص التي تلقنوها ؟ هل هم على نفس المسافة من الأشياء التي يحفظونها مثل المسافة التى بيننا وبين الأشياء التي نحفظها؟

- يسمى المواطنون الاتراك اليونانيون الذين أقاموا فى الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة «روم»

- استعادت السلطات التركية السيطرة على أزمير (سمايرنا) في التاسع من سبتمبر عام 1922، بعد أكثر من ثلاثة أعوام من نشر الجيش اليوناني لقواته في ميناء بحر إيجا، تم تدمير أغلب المدينة بالنيران بعد أربعة أيام من استعادة القوات التركية سيطرتها عليها، ادعى الأتراك أن ذلك جزء من سياسة «الأرض المحروقة» اليونانية، في حين ادعى اليونانيون أن القوات التركية تعمدت إطلاق النار على ربع المدينة المسيحي (شكل اليونانيون والأرمن أغلبية سكان سمايرنا في الحقبة العثمانية). تم إجلاء نحو 400000 مواطن مسيحي من المنطقة، وكانت الأغلبية المسيطرة وقتها من الأتراك والمسلمين هي الأعلى على الإطلاق.

- Sivas أو مدينة سيواس، هي عاصمة محافظة سيواس تقع في وسط تركيا. (المترجم).

الشباب بأنهم ينتمون؟

جميعنا، كلٌّ أطفال العالم، نتلقن منذ صغرنا قصةً تُعَرِّفُنَا إلى أي نوع من أنواع الحزن ننتمي. كان أهلنا مصرين بقوة على إحياء وتمرير هذه القصص التي تعتمد على شخصية ملحمية بصورة متصاعدة مما يجعل من السهل علينا الضحك عليها. لكن بمجرد أن تبدأ في هذا الضحك تصبح بعيدًا عن مشاعر الإنتماء الذي يسعون لزرعه وإدراكه. والآن في اللغة الأرمينية وهم يغنون هذا الغنوة الشعبية التى تدور حول أبجدية اللغة، أين تقبع تلك القصص التي تلقنوها ؟ هل هم على نفس المسافة من الأشياء التي يحفظونها مثل المسافة التى بيننا وبين الأشياء التي نحفظها؟

3- يسمى المواطنون الاتراك اليونانيون الذين أقاموا فى الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة «روم»

4- استعادت السلطات التركية السيطرة على أزمير (سمايرنا) في التاسع من سبتمبر عام 1922، بعد أكثر من ثلاثة أعوام من نشر الجيش اليوناني لقواته في ميناء بحر إيجا، تم تدمير أغلب المدينة بالنيران بعد أربعة أيام من استعادة القوات التركية سيطرتها عليها، ادعى الأتراك أن ذلك جزء من سياسة «الأرض المحروقة» اليونانية، في حين ادعى اليونانيون أن القوات التركية تعمدت إطلاق النار على ربع المدينة المسيحي (شكل اليونانيون والأرمن أغلبية سكان سمايرنا في الحقبة العثمانية). تم إجلاء نحو 400000 مواطن مسيحي من المنطقة، وكانت الأغلبية المسيطرة وقتها من الأتراك والمسلمين هي الأعلى على الإطلاق.

5- Sivas أو مدينة سيواس، هي عاصمة محافظة سيواس تقع في وسط تركيا. (المترجم).

الفصل الثالث: ألمْ تملَّ أبدًا من "موضوع الإبادة"؟

"كنتُ دائمًا أعرف..لا أدرى منذ متى" .

تحدق ناتاليا أمامي فى الأفق، وتستغرق في التفكير حينًا قبل أن تضيف قائلةً : "أنا مازلت أتذكر، برغم أننى كنت صغيرة جدًا، كان إخوتى يلعبون لُعبةً تدعى : {ماذا سنفعل عندما يأتى الأتراك} "

إِجتمع طلاب الجامعة الستة حول المائدة، وهم يتذكرون طفولتهم لبضع دقائق، ولكن لم يستطع أحد منهم أن يتذكر متى سمع كلمة "الإبادة الجماعية " لأول مرة، أو متى تعلم لأول مرة أن الأتراك "مرعبون"

كانوا جميعًا متأكدين أنهم سمعوا عن أحداث عام 1915 قبل أن يدرسوها فى المنهج المدرسى الرسمى في عمر أَحَدَ عشرَ عامًا بكثير. حاولوا طويلاً أن يتذكروا بلا فائدة كأنهم يبحثون فى بئر عميقةٍ لا قرار لها

هذا الصمت غير اليقيني يتناقض بشدة مع ثرثرة الطلبة المجتمعين فى بهو الفندق، الفتيات مهندمات وواثقات من أنفسهن، والرجال أكثر دقة وحزمًا كالمسامير، كلهم مستعدون لعقد لقاء مع صحفية تركية، حتى إن بعضهم أتى حاملاً عددًا من الملفات، ولكنْ كُلُّ هذه الحدة اِختفت بمجرد بدء اللقاء، عندما بدأنا الاجتماع وأصبح أكثر حميمية وصلت بنا المحادثة فجأة إلى نقطة مجهولة وغير متوقعة، فسقطوا فى الصمت، هؤلاء الشبان والشابات فى عمر العشرين، العمر الذى تأخذ فيه اللغة والحياة منحنى أكثر جدية مِمَّا كانت عليه فى السابق، وربما أكثر مما سيحدث لاحقًا، لقد كانوا منذ دقائق قليلة يتحدثون بمنتهى الشغف فى كل المواضيع التى تطرح للنقاش.

يدرس جيان، جور، أرام، وهوفهانز علاقات دولية. هوفزيف وهى سورية أرمينية متخصصة فى السياسة، وناتاليا التي تتمنى أن تحصل على درجة علمية فى أشكال التواصل بين الثقافات، يبدو واضحًا أنهم جميعًا يحبون

الحديث عن السياسة، ولكن صمتهم غير المتوقع يدل على أنهم لم يفكروا أبدا فى السؤال الذى طرحته.

كيف علموا بأمر الإبادة الجماعية؟ من أخبرهم ؟ كيف أخبرهم بها؟ وبأي كلمات؟

ماذا كان شعورك عندما سمعت تلك القصة المأساوية لأول مرة ؟

هل هنالك طريقة تقليدية ستمرر تلك القصة بواسطتها للجيل التالى ؟

لقد صعقوا، صعقوا من إدراكهم لجهلهم بأي من إجابات هذه الأسئلة، أو ربما لإدراكهم أن ما أتحدث عنه هو معرفة "مكتسبة.

كانت جيان أول من يعترف أنها تتعجب من كون هذه المعلومات مهمة إلى هذه الدرجة لعمق كيانها، وقالت "نعم فى البداية تعلمنا أن الأتراك هم الأعداء، ولكن أدركنا لاحقًا بالطبع أن الأشخاص العاديين ليسوا هم الأعداء "

إستمر الصمت ولكن هوفهانز الذى يتابع عن كثب السياسات التركية وله نهج أكثر دبلوماسية من الآخرين، قام بتغيير الموضوع قائلاً "أرمينيا هى بلاد جديدة وصغيرة جدًا .نحاول أن نبنى مستقبلنا باهتمام، ولكن بسبب الحدود المغلقة والضغوط التى تمارسها علينا تركيا، لا أستطيع أن أرى المستقبل مشرقًا جدًا كما نأمل"

والآن، عندما أصبح الحوار فى منطقة أكثر أمانًا بدأ الأرمن المشاركة فيه

"عندما نضع الإبادة الجماعية فى بؤرة الاهتمام يستحيل أن يكون هنالك تقارب فى العلاقات مع تركيا"

كدولة لديها اختيارات محدودة، يجب أن يكون أول اهتماماتنا هو فتح الحدود مع تركيا، والتى عاجلاً أو آجلاً سوف تعترف بالابادة الجماعية على أية حال "

كان ايقاع الحديث يزداد سرعة كلما نطقت كلمة "إبادة" أو "حدود" وكأن أحدًا

قد ضغط على زر ما بداخل كل طالب منهم. لقد بدؤوا الجدال فيما بينهم بكلمات مألوفة وتعبيرات ترقد تحت جلودهم وتنساب بسهولة على السنتهم

قالت ناتاليا "إن لم يعترفوا بها خلال مئة عام فلن يعترفوا بها أبدا "

هوفزيف " ولكن لم يكن لدينا دولة مستقلة فى المئة عام السابقة، هذا يصنع فارقا"

ناتاليا "لكن هل سيكون من الصائب فتح الحدود حتى لو لم يعترفوا بالإبادة الجماعية؟"

هوفزيف "نحن نريد مستقبلاً مشرقًا لأولادنا، أليس كذلك؟ الطريق الوحيد لذلك هو إقامة علاقات مع تركيا "

وأضاف "بالطبع عند فتح الحدود لن يهاجم أحدنا الآخر، ولكن تركيا تتوقع أن نطلب منها التخلى عن بعض أراضيها، ولو أن أحدنا يتوقع منهم بالفعل التخلى عن بعض أراضيها لصالح أرمينيا فهو مجنون بالتأكيد"

جور وأرام اللذان التزما صمت متوتر أثناء المحادثة تحدثا أخيرًا

"ماذا تقصد بمجنون؟ ... نحن نتوقع أن نسترجع أراضينا، نعم نحن لن نتفاوض مع تركيا حتى تعترف بالإبادة الجماعية"

وأضاف أرام "أنا اوافق، إن لم نوضح مطالبنا بشكل صحيح فلن يحدث شئ، الأمة التى تنسى تاريخها لا تتقدم، الشعب الذى ينسى تاريخه ...." قاطعته جيان "كما ترين، فإن لدينا شعورًا هائلاً بالمسؤلية خلال حديثنا معك ولو نحينا مسألة الابادة الجماعية جانبا سنشعر كأننا نخون أنفسنا "

خيم الصمت على الجميع مرة أُخرى حتى قال هوفزيف مازحًا "ماذا كان لون ذئابكم المتطرفة مرة أخرى؟ هل كان الأخضر أم الرمادى؟ نعم هذا صحيح، لقد كان الرمادى، حسنًا، فنحن أيضًا لدينا ذئابنا، لا تلقى لهم أدنى اهتمام. كما أن

تنظيم البوزكارت(6) لا يمثل تركيا، فان هؤلاء الذين يطلبون أراضيكم لا يمثلون أرمينيا"

ونحن نتحرك نحو الخارج وجدت نفسى أتساءل، هل يمكن أن نعزل أنفسنا عن القصص التى تم تلقينها لنا أثناء الطفولة؟ هل يمكن استخراجها من مخزون نفوسنا؟ كنا نتحرك باتجاه قاعدة التمثال الخالية فى منتصف المدينة، أنا وهؤلاء الشباب والفتيات الذين يعتبرون أنهم تجاوزا هذه الأحكام المسبقة، والذين يعتبرون أن كل هذا البعد عن الماضى قد لا يعتبر خيانة.

كان ليفون أنانيان محقًّا، إن قدر بلادنا منحوت من قدم التاريخ، ومصيرنا فى الشرق الأوسط كان دومًا مكتوبًا بالسيف والدم، لا نستطيع أن نهرب منه، حتى لو استطعنا أن نهرب من هذا المصير الحتمى، فسنوصم للأبد بوصمة "الخيانة" أو نتشرد فى العالم بلا وطن ولا مأوى فى عداد المنبوذين

كنت مشتتة بين أفكارى عندما أشار هوفهانز لقاعدة التمثال الخالية، وأطلعنى أخيرًا على حقيقته قائلاً : "كان هنا أفضل تماثيل لينين فى كل أنحاء الاتحاد السوفيتى على الإطلاق، ولكنه الآن يرقد مستريحًا خلف المتحف"

يقولون لي إنه في عام 1996 كان هناك جدل سياسي كبير حول التخلص من قاعدة التمثال ، ولكن فى النهاية كل ما تبقى بعد إزالة التمثال الرخامى هو قاعدته التى رفع عليها إعلان دعائي حديث كدليل على انتصار اقتصاديات السوق الحر.

تندروا على الحقبة السوفيتية وضحكنا جميعًا، مما شجعنى على أن أستجمع شجاعتى وأتساءل "ألم تنزعجوا من قضية الابادة الجماعية وما تلقي به من بظلال حول نواياى كصحفية"

كسا وجوههم صمت وظلال من الريبة مرة أخرى عندما تذكروا أننى "تركية"، فقمت بتغيير الموضوع فى وقت قياسى قائلة "أتمنى أن تقوموا قريبًا بزيارة

تركيا.... زيارة اسطنبول بالطبع حتى يتسنى لى أن أدعوكم على شراب الراك بمكان ما قرب البسفور"

ساروا مبتعدين عنى، ولكن كل برهة كان أحدهم يدير رأسه باتجاهى تاركين إياي محملة بنظرات العتاب وبمعرفتى بأننى قد أصبت عصبًا حساسًا. كانوا يسيرون فى الاتجاه الآخر، تدور بينهم مناقشة ساخنة حول اعتبار الحديث مع هذا النوع من الصحفيين دربا من الخيانة

يحافظ المجتمع على طزاجة آلامهِ بزرعها فى اللحم الطرى لأبنائه الصغار، زرعها تحت جلدهم مباشرة.

تذكرت فجأة "التحرير من الغزاة" تلك المسرحية التى عرضت فى جميع أنحاء تركيا، وكيف أعيد عرضها فى كل المدن التركية الحرة ، وكيف كان الأطفال على المسارح يلعبون لعبة التحرير، ويقوم بعضهم بدور الغزاة، ويقوم البعض الآخر بدور الأبطال، جنودنا الأتراك الذين ينتصرون على الانجليز والفرنسيين والأرمن والإغريق، ولعدم الخلط كان الاعداء دائمًا يتخذون أشكالاً لمخلوقات غير آدمية، ليرى الأطفال انتصارَ الخير على الشر، وكان الأطفال من هذا المنظور يتعلمون أننا نحن الأخيار وهم السيئون

لو سُئل الأطفالُ الأتراك ... متى عرفوا أن الأرمن سيئون ؟ ، لكان صمتهم هو الإجابة، تماما مثلما فعل الأرمن

صورة قديمة تومض أمام عينى، كنت فى حوالى الثامنة من العمر عندما قمنا بإعادة تمثيل أحد مشاهد "التحرير"، أحد الأولاد عندما أخبروه أنه سيلعب دور شخص يوناني، بدأ فى البكاء، وكان يصيح أنه لا يريد ان يكون "يونانيًا خائنًا" ، لازلت أذكر الكلمات التى طمأنه بها المعلم قائلاً: "ذلك على سبيل الدعابة يا حبيبى، ولمدة خمسَ عشرةَ دقيقة فقط"

أتذكر كيف رضخ الولد عندما علم أن الأمر سيكون لمدة خمس عشرة دقيقة

فقط وكيف نظر له باقى الأطفال نظرةَ شفقةٍ وهو يؤدى دور يونانى خائن"

لعل شيئًا مشابهًا قد حدث لهؤلاء الشباب والفتيات هنا فى يريفان، شيئًا تغلغل تحت جلودهم وجعلهم غير واثقين حتى فى دعابة لمدة خمس عشرة دقيقة مع العدو، إنه من المستحيل بالنسبة لهم أن يتقبلوا هذه الدعابة، أو حتى أن يتحملوا من أطلقها، إن حدود المزاح تنتهى عند ذكر "الإبادة الجماعية "

كانت هذه إجابة آرت جيكوير مصصم الرسوم لجريدة آجوس، الأرمينى الذى يقيم فى اسطنبول عندما أخبرته عن رد الفعل تجاه سؤالى.

جاء هذا الرد من رجل درس الفن فى إيرفن ولا يتردد أبدًا في الخوض في مواضيعَ حساسةٍ كجبل أرارات، أو عشقه لتركيا، أو اعتباره أقلية فى كلا البلدين، أو أى من المواضيع التى يتحفظ عليها المجتمع الأرمينى.

"النساء هنا قد تحررن بالكامل، ولكن الرجال ما زالوا ذكوريين، على سبيل المثال فالرجل الحقيقى لا يقوم بكنس الشارع. لماذا فى اعتقادك يرتدى كل الرجال معاطف جلدية سوداء؟"

"حقا لماذا ؟! "

"لأنهم لو ارتدوا أى ألوان أخرى ربما ظن البعض أنهم ذوو ميولٍ جنسية مثلية، مؤخرًا بدأ بعض الرجال فى ارتداء ملابس زرقاء فى المنطقة السوفتية، ولكن قيل إن اللون الأزرق هو اللون المفضل للمنحرفين جنسيًا"

آرت برغم من أنه أرميني إلا أنه يستطيع أن يرى الأمور من منظور خارجى، ربما لأنه يعيش فى اسطنبول.

"الأرمن فى تركيا لا يتم القبض عليهم واقتيادهم لمراكز الشرطة، ولكن يتم ترهيبهم بطرق مختلفة لإبقاء رؤوسهم منخفضة، ولكن عندما جئت هنا فى أرمينيا رأيت الرجال مختلفين، ويتقاتلون لأول مرة فى بلادهم، ربما يكون هذا

أمرًا طبيعيًا، ولكنى لا أستطيع أن أنسى الأرمن الذين يصرخون وهم مستمرون فى الحياة، ألم تلاحظى أن المقاهى مقسمة لغرف صغيرة "

"لقد لاحظت بالفعل، ولكن ما معنى هذا؟"

"أعتقد أنهم بحاجة لبعض الخصوصية، بعد فترة الحكم السوفيتى والخوف القديم من أن يسترق أحدهم السمع لما تقول "

وعلى الرغم من أن آرت أتى هنا منذ فترة طويلة، إلا أنه ما زال يتعجب ويسخر من الكثير مما يراه

"سترين بعض الرجال الذين يتحدثون عن المدن التركية الصغيرة مثل توكات وسيفاس، ربما اعتقدتِ أنهم يصفون باريس، ولكن فى الحقيقة لا شئ فى توكات يشبة باريس على الإطلاق، لكنهم لا يدركون ذلك بطبيعة الحال لأن الحدود التركية الارمنية "رسميًا" مغلقةٌ ، و"غيرُ رَسمِيٍّ" هى مفتوحةٌ ولكن ليس للجميع. من الذى يستطيع أن يعبر الحدود؟ سأعرف قريبًا.

ولكن فى الوقت الحالى استمر آرت فى الحديث عن حاله كأرمينى تركى فى أرمينيا "أنا لا أشعر بالانتماء لاسطنبول كما كنت أحسب، لكننى لا أنتمى إلى هنا أيضا، إننى رجل بلا بلد، وأعتقد أن هذا صحيح أيضًا بالنسبة للكثير من الأرمن "وأشار مرة أخرى للسؤال الذى طرحته على الطلاب قائلاً "إنهم يتحدثون عن التطهير العرقى بجدية شديدة لأن مشكلتهم لم تحل حتى الآن، إنهم مازالوا يشعرون أنهم ضحايا "

سبب آخر لاستحضار الشباب الأرمن لجراح الماضى هو إغلاق الحدود التركية - الأرمينية، والتى يعوق انطلاقهم نحو العالم الواسع

أخبرنى آرت أن العديد من الأرمن قد أعادوا تخطيط أموره الشخصية، بما فيها حفلات الزفاف، مواكبة لفتح الحدود مع تركيا، وأقاموا صلاة خصيصًا باسم " صلاة الحدود"

" كيف هذا؟"

"هكذا ببساطة. إننى أصلي كلّ يوم للمسيح حتى يفتح الحدود"

وَجهُ أنيتا له وهجٌ خاص، فهى امرأة ممتلئة الجسم وقوية، "قوية كالدولة" كما يقال، ولكن صوتها ناعم بالرغم من أنها تدير متجرًا فوضويًا فى السوق، زرته مع آرت، وسلوكها متواضع كصاحبة متجر لبيع الملابس والأقمشة الواردة من تركيا.

إختارت أن تتحدث بخفوت، وهى التى تحضر السلع والبضائع بنفسها من اسطنبول وحتى لاليلي

"نحن الآن بمفردنا، ولكن عند يختار جيراننا فتح الحدود، سيكون هذا من مصلحتهم ومصلحتكم أيضًا. يعتمد الاقتصاد على التجارة مع تركيا، كلّ مرة يقولون فيها إنهم لن يفتحوا الحدود تصيبنى أزمة قلبية، تحدثى معهم، أخبريهم كم هو صعب علينا أن نجلب البضائع عبر جورجيا"

بشكل رسمي، الطريقة الوحيدة لعبور الحدود هي باستخدام الطائرة أو بالعبور الى تركيا عبر جورجيا، الأرمن الذين يمرون عبر جورجيا يتعرضون لمضايقات ضباط الجمارك ويضطرون لدفع رشاوى

باعتبار أنيتا واحدة من أقدم "التجار" فإنها عانت من هذه الإجراءات مرارًا وتكرارًا، إنها تقول إنها بدأت الرحلة ذهابًا وعودة إلى تركيا منذ عام 1993. فى البداية جلبت قطع غيار السيارات إلى تركيا مسافرة عبر جوريا الى أرداهان. إنها لا تستطيع أبدًا أن تنسى رحلتها الأولى "لقد كنت مرعوبة، لم أكن أعرف أي شيءٍ عن الأتراك، هل سيهاجمونني؟ ثم تعطلت الحافلة فى طريق ارداهان وكانت مكتظة بالنساء، فجاء أحد الأتراك وأعطانا بعض شرائح البطيخ والجبن، وأصلح الحافلة ولم يطلب أية نقود فى المقابل "

"بيعي بضاعتك ثم ادفعى لى فى طريق العودة "

"هذا ماقاله لى، والآن 90% من البضائع هنا تركية، لو كان هنالك مائة فى عام 1993 فهنالك الآن مليون" هكذا قالت أنيتا مشيرة لحجم البضائع التى ينتقل من وإلى تركيا، وأضافت "البضائع التركية عالية الجودة" قبل أن تخبرني أنها تحلم أن يجد ابنها العاطل وظيفة فى منتجع مارماريس السياحى على بحر إيجة فى الصيف القادم، وفى مرحلة ما أمسكت بيدى بقوة وصاحت "سيكون من الرائع أن تفتح الحدود لنا ولكم، قولي لهم، قولي لهم أن يفتحوا الحدود فى التو واللحظة"

يوحى كلام إنيتا أن مسألة الحدود غير مرتبطة تمامًا بالتطهير العرقى، وكأن الأتراك يغلقون الحدود لأنهم لا يعلمون بمعاناة أنيتا، ولو عرفوا لفتحوا البوابات الحدودية على الفور. فى حقيقة الأمر لا يمكن لأنيتا أن تنسى أن المذبحة هى السبب الرئيسى لإغلاق الحدود، الفقر والأب العاطل وصعوبة التنقل عبر جورجيا لعبوا دورهم فى مخيلة إنيتا، هذا هو الواقع المجرد للخيانة والنكران، فهناك من الناس من هو على استعداد لخيانة ميراث الألم والدم ليخفف أعباء الفقر والحاجة التي يقاسي منها الآن وهنا.

"أنتِ مثل قديسة طالت معاناتها" وجهت حديثى إلى (آلّا) التى امتلأت عيونُها الواسعة بالدموع. كانت عندما تنتحب وكأن أرمينيا كلها تنتحب. لم يتحدث أحدنا للحظة، وإن كانت قبل دقيقة من الآن تقول الكثير من الملاحظات الذكية.

" بنجلاديش" هو الاسم الذى يطلقونه على هذا الطريقِ الممتلئٍ ببرك الطمي والذي تبدو عليه علاماتُ الفقر متناثرةً فى كل مكان

أنا هنا لمقابلة (آلّا) مدرسة الرياضيات ومدربة المسرح، و(روزانا) مدربة كرة السلة فى المدرسة الثانوية فى المبنى الوحيد فى بنغلاديش الذى يبدو عليه بعض السحر، مدرسة من طابق واحد حيث المقاعد فى الفناء محطمة، وتحيط

بها البنايات المتداعية للمساكن العامة، وأمام المدرسة توجد ماكينة الآيس كريم الى تعمل بالديزل على دراجة بخارية، حيث يقف طابور من المراهقات أمام الالة التى تصدر ضوضاء تفوق ضوضاء مصنع كامل. ترتدى الفتيات ملابس رخصية تبدو مستعملة كالملابس التى تبيعها آنيتا، ويتداخل مكياج وجوههم مع صبغات الآيس كريم، حيث يبدو المكياج كمحاكاة رديئة لصور شاهدوها فى احدى المجلات الرخيصة

قُرِعَ جرسُ المدرسة واتبعنا حشدَ الفتيات اللاتى استمرين فى الثرثرة حتى أصبحن فى الداخل، حيث انتظرتنا (آلّا وروزانا) فى مكتب المدير المسؤول، (آلّا) فى الرابعة والأربعين من عمرها، ولديها قدرة على التحمل والثبات تفوق زميلاتها فى جميع أرجاء الشرق الأوسط، من النظرة الأولى لا تستطيع أن تتكهن أنها فى الأربعة عشر عاما الماضية كانت تربى طفلين بمفردها، وأنها تحملت الكثير من الصعوبات الخاصة ببلادها

المرأة التى تقف أمامى فى مكتب المدير المسؤول ليس لديها كلام تقوله، ولا متاعب لترتبط بها، تبدو فقط مستعدة لتقديم بعض الاجابات المقتضبة، وتسرع بالانصراف من نفسها من أمام الصحفية التى ظهرت فجأة فى مكتب المدير. لقد أتيت على ذكر الفتيات اللاتي يأكلن الآيس كريم أمام المدرسة ومكياجهن وملابسهن وروحهن المعنوية العالية الطريقة التى يبدو أن الاستقلال ساهم بها فى تغيير لون حياتهم

"أعتقد" ... ثم قُلتُ "مُضيفةً "إن أُمهاتهن لم تشهدن تلك التغييرات بنفس الطريقة" ظهر التغيير علي وجهها وملابسها وشعرها، وعندها فقط تكلمت، وكأن القشرة الخارجية الصلبة تتصدع ليخرج الصوت "إن المجتمع بأكمله يكافح حتى يبقى الأطفال بمنأى عن الصعوبات التى تواجهنا" قالت هذا ثم شرعت فى إخبارى قصتها "أنا وزوجى كلانا من خريجى الجامعات، وقد كان يعمل مهندسا قبل الاستقلال، ولكننا فقدنا وظائفنا جميعًا، لم يكن هنالك شيءٌ لم يفعله زوجى حتى يحمينا من الجوع حتى إنه كان يذهب إلى تركيا لجلب

البضائع"

كان صوتها يرتعش لكن وجهها يخبرنى أن عمل "تاجر الشنطة" أمرٌ سيِّءٌ كالجوع تمامًا

اِستَرَدَّت رباطةَ جأشها وتابعت حديثها قائلة "هذه الآلام المتصاعدة هى ما ندفعه نظير الحصول على دولة مستقلة وجديدة ولكن .."

لكن؟

" لم يكن لدينا أية فكرة أن هذا الوضع سيستمر طويلاً ، لم يعد فى إمكاني أن أرى طريقي للخروج من هذة الأزمة حتى النهاية"

تجهم وجهها تمامًا، إنها على وشك الهجرة من وطنها بعد أَنِ استنفذت كل قواها الاحتياطية تمامًا

أكلمت قائلة "يمكننى أن أقوم بإجازة قصيرة، وأذهب إلى زوجي فى الصيف وأعياد ميلاد الاطفال والعطلات الرسمية، برغم أننا الآن منفَصِلان إلا أن علاقتنا ما تزال قوية، هذا هو أفضل ما استطعنا الحصول عليه، إنها شراكة وليس زواجًا، فهو يعتنى بالأطفال ماديًّا وأنا أتولى احتياجاتهم العاطفية" وعند كلمة "العاطفية " تسرب شيءٌ ما بداخلها، وانهمرت من عينيها الدموع، عندما قارنتها بالقديسين ابتسمت، ولكن عندما تحدثت مرة أخرى كانت الانفعالات ما تزال تخنق صوتها فيتوقف

" لقد حللنا مشاكلنا المادية، من الممكن حل هذه المشاكل، ولكن من الصعب أن تبقى على العلاقة بين البشر بنفس الطريقة، لقد مضى أربعة عشر عامًا منذ أن عشنا سويا كزوج وزوجة، هل يمكن أن تتخيلي كيف كان الحال؟"

تأثرت (روزانا) بحديث (آلَّا) ودموعها، (روزانا) انفصلت عن زوجها منذ عام واحد فقط لأسباب مشابهة، زوج (روزانا) الذي كان في الماضي مدربًا لكرة

السلة، يبيع الآن الأثاث فى أمريكا، كما يبيع زوج (آلّا) الذى كان فى الماضى منسقًا للزهور فى روسيا، ولروزانا طفلان كآلّا تمامًا لكنهما أصغرُ عمرًا، وبالحكم على انفعالاتها فهى تتوقع أن يتحسن الموقف قبل أن تفقد كل قوتها، إنها مازالت أكثر تماسكا من آلّا التى أغلقت عينيها ولم تعد تستطيع أن ترفع يديها، بينما روزانا كان ما زال هنالك بريق فى عينيها وهى تخبرنى أن زوجها سيعود سريعًا.

لم ترَ النظرة التى رمقتها بها آلّا ولكننى رأيتها "ما تزال هذه أفضل أيامك، اِنتظري حتى لا تعودي قادرة على تذكر وجهه، على تذكر صوته ..... فقط انتظرى حتى تكبري " ربما يكون هذا ما دار بخاطر (آلّا)

أخبرتنى روزانا كم تفتقد زوجها وما الذي تخطط لفعله مع الأولاد عندما يعود، وعندما دارت ببصرها ناحية آلّا تمالكت نفسها وأحست بالخجل من فرحتها وشبابها، ولكن عندما أشاحت ببصرها بعيدا عن (آلّا) أضاء وجهها مرة أخرى وعلا صوتها وتسارعت كلماتها، روزانا مختالة فى عالمها ولا تسمع شكوى (آلّا) "قريبًا ستملين من الانتظار وستمر حياتك" روزانا لا تسمع لأنها مشغولة بالحديث عن زوجها الذى سيعود من أمريكا فى بداية العام الجديد، والذى ربما ستصطحب أولادها وتذهب اليه حيث سيلتحقون بالمدرسة هناك .. فى أي حال من الأحوال سيزورهم قريبًا ، (آلّا) اكتفت بالصمت وبابتسامة حزينة، ربما تلوم نفسها على إحباط حلم روزانا في السعي بخيالاتها

فى أرمينيا يعمل أحد الأفراد فى كل عائلة تقريبا بالخارج، ونساء مثل آلّا وروزانا هن الأشد معاناة من تلك المشكلة الأكثر وضوحًا والأقل أهمية فى تلك البلاد - كما ينام القديس وحيدًا –

عندما قرع الجرس أخرجت كلاهما مرآتها بشكل عفوي وبدأت فى تعديل مكياجها ضحكت آلّا على انعكاسها فى المرآة قائلة

"نحن خيول أرمينيا المقهورة ولكننا يجب أن نستمر فى الركض من أجل

أطفالنا، كلما كانت هناك مشكلة كبيرة، كان على النساء حملُ العبء الأكبرِ من الحل "

وبرؤوس مرفوعة اتجهت المرأتان فى اتجاه باب الخروج، ثم فتحتا الباب لينسل ضجيج الأطفال من الخارج داخلا كماء بارد ينصب على رؤوسهن قبل الخروج إلى قاعة المسرح

ربما يقام فى يوم من الأيام تمثال فى يريفان لهن أيضًا، وسينقش على قاعدته "كل الشكر لنساء أرمينيا الوحيدات اللاتي دفعن ثمن الاستقلال

تلك القديسات المقهورات "

وربما ينسى الناس بعد فترة أسباب معاناة هؤلاء النساء

آنيتا، روزانا، و آلَّا لم تذكر أى منهن ولا مرة واحدة تاريخ المذبحة 1915 ، فأبطال الحياة اليومية يحملون هم أيضًا على أكتفاهم ثقل التاريخ

حتى إذا كانوا لا يتذكرون ما هو السبب وراء ذلك الحمل، الأبطال الحقيقون هم المشغولون بمتاعب الحياة لدرجة أنهم لا يلاحظون كم هم أبطال.

وكما قالت آلَّا "الحياة تمر، والتلميذات فى سن العشرين لا يستطيعن تقدير ذلك كامرأة فى الخمسين"

والحياة تمر ، واحتياطى العاطفة وهو الوقود الذى تعيش عليه سوف ينضب"

وكما ستقول ليليت غدًا صباحًا "لا يمكنك أن تعيش وتتنفس الألم كلَّ يوم"

6- البوزكارت: هو تنظيم يمينى متطرف فى تركيا يطلق عليه ايضا الذئاب الرمادية. (المترجم)

الفصل الرابع: واحد اثنان ثلاثة .. يحيا الأتراك!

دائما ما أعجب بالأرمن الذين إذا تاهوا فى أى مكان فى الدنيا بعيدًا عن بلادهم يستطيعون العودةَ مرةً أخرى إليها، فقط باستخدام خريطةٍ مرسومة فى قلوبهم، يعودون إليها مستخدمين إحداثيات قائمة فى عقلهم، إحداثيات الفخر والخوف والفقد والحداد.

فى شمال يريفان يوجد تمثالُ الأمِّ الأرمينية، وفى الجنوب حصنُ ليتل سوالو وفى الغرب جبلُ أرارات.

وبنفس الطريقة التى تُحبسُ بها المدنُ غيرُ الساحلية، فيريفان أيضًا حبيسةٌ فى إحداثيات المعانى وبخاصة الفخر والحداد

تتوسع المدينة على هيئةِ دوائرَ متحدةِ المركزِ، ويتقاطع القطر الخارجى لهذه الدوائر مع طرقات المدينة الرئيسية بنقاط محددة فى الشمال والجنوب والغرب، ربما لهذا يبدو الناسُ متهالكين تمامًا، هذا ما أظنه عن نفسى، لأنهم محبوسون فى هذه الإحداثيات.

"لا، إطلاقا" قالت ليلي بليان "نحن لا نحيا ونتنفس على ذكرى المذبحة"

ليلى هى مديرة أحد مراكز الحوار المفتوح، والذي تم تأسيسه كمناهض للفكر السياسى المنغلق أثناء فترة الحكم السوفيتى. والمركز منظمة غير حكومية تكرس جهودها لتعزيز الحوار، سواءٌ داخل المجتمع الأرميني أم مع جيران أرمنيا المزعجين.

وبرغم أن ليليت شابة صغيرة السن إلا أن لديها طفلة صغيرة تبلغ من العمر أربعة أعوام، وتبدو كنسخة صغيرة منها، تدعى الفتاة أراكس تيمنا باسم النهر الذى يسير بمحاذاة الحدود الأرمينة -التركية، والتى ترى ليليت أنه يوحد الناس فى البلدين أكثر مما يفرقهم.

تركض أراكس على الأرضية المغطاة بالباركيه، وتحت السقف العالى لمركز الحوار المفتوح يسمع وقع أقدامها الصغيرة تتردد فى المبنى الخشبي، وتعلو على أصواتنا، حيث تختفى وتظهره فجأة من العدم، صائحةً بعيون مفتوحة ولامعة "مفاجأة"، وتكررها مراراً وتكراراً ويجب علينا فى كل مرة أن نتظاهر بالدهشة. قالت ليليت أننا يجب أن نناقش قضايا سياسية "دعم الاتحاد الارمينى الثورى. الحزب الذي اختار المذبحة كنقطة مركزية لسياساته ويبلغ حوالى 6%، ولكن شعبيته تتناقص" ثم أخبرتني بأمرٍ دائما ما يناقش بين أهل يريفان ولكنه لا يتداول أبدا أمام الصحفيين الأتراك فى أرمنيا

"لقد بدأ الناس على استحياء في مناقشة ما إذا كان الساسة الأرمن يحملون بعضًا من المسئولية عن أحداث عام 1915. إذا اجتمعت هذه الرغبة الجديدة للتشكيك في الماضي مع وجود انفتاح إيجابي من تركيا، فسيكون لدينا الفرصة ساعتها لتعزيز الحوار بين شعبينا"

أخبرت ليليت وأنا فى طريقى إلى يريفان أنى أرى أن شعب بلدينا الذى قيل له أن هناك موضوعًا واحدًا فقط يمكن مناقشته بينهما، يجب أن يبدأ الحديث مرة أخرى ليرى ما الذي سيحدث. وأخبرتها أيضًا أنني أعتقد أن بدء الحوار بعيدًا عن احداث 1915 سيمكن شعبينا فى النهاية من التحاور فى المواضيع المؤلمة أيـضًا، وسألتها كيف ستبدو أفكاري للأرمن فأجابت "إن هناك العَديدَ من المواضيع التى يمكن، بل ويجب مناقشتها، لكننا عندما نتحدث عن المذبحة نجد أنفسنا غيرَ قادرين على الكلام إطلاقا"

ليليت وأنا لا نستطيع خوض نقاش عميق بعد الآن، ليس فقط لأن آراكس أصرت أن تغني لنا أغنية يونانية، ولكن لأن لدينا مواعيدَ لمقابلة أناس آخرين هنا فى المركز، ربما كان هذا هو الأفضل، ويرجع الفضل لآراكس في أننا لن نتكلم عن المذبحة، ولكن تكلمنا عن السن الأمثل للإنجاب لدى المرأة، وهل يعد البدء في تكوين أسرة فى سن مبكرة أمرًا جيدًا أم لا. تكلمنا عن آراكس، وتكلمنا عن الحياة، وسرت آراكس فى حوارنا تماما كالنهر الذى سميت باسمه،

لننجرف معها بعيدًا عن الماضى الذى سيكون موضوعنا فى يوم آخر.

نظرت إلى آراكس وهى تجرى فوق الأرض الخشبية، وبدأت أتساءل في داخلى عما سيحدث عندما تبدأ فى السماع عن 1915، وستكون ساعتها أكبرَ عمرًا من أن تجلس بين ذراعي وتغني أغنية يونانية تتحدث عن مأساة أجدادها.

فى اللغة التركية يشار إلى "المصير أو القدر" بالمكتوب انه "المكتوب على الجبين" المحتم من يوم الميلاد، ربما الدول أيضا لها مكتوب

منذ أن كنا صغارًا، وحتى شببنا عن الطوق وتركنا طفولتنا وراءنا، كانت إحدى علامات عبور تلك المراحل هو الاصطباغً بالهوية التاريخية والقدرية للمجتمع، ولكن على عكس المكتوب هل يمكن فعلا تغيير قدر المجتمعات؟

إننا ما أن نبدأ فى تعلمِ أحرفِ الهجاء، نتعلم أيضًا أن أحرف الهجاء الخاصة بالآخرين تختلف عن أحرفنا، ومع كل حرف نتعلمه نغرق أكثر فى هوية الآخرين الذين يشاركوننا نفس الحروف ونفس اللغة، نعتقد أننا نتعلم حروف الهجاء، ولكننا نحن فى الحقيقة نتعلم أننا جزءٌ من مقومات مجتمع متكامل.

أغنيةٌ .. قفزت فجأة إلى ذاكرتي أغنيةٌ ذاتُ لحنٍ تركي كنت أغني كلماتها وأنا صغيرة حتى من قبل أن أصل لسن المدرسة، أغنية لم أدرِ يوما معنى كلماتها

"واحد، اثنان، ثلاثة؛ يحيا الأتراك

أربعة، خمسة ستة؛ تسقط بولندا

سبعة، ثمانية، تسعة؛ الألمان خنازير

عشرة، أحد عشر، اثني عشر؛ الايطاليين ثعالب

ثلاثة عشر، أربعة عشر، خمسة عشر؛ الروس خائنون

ستة عشر، سبعة عشر، ثمانية عشر؛ سنتفوق عليهم

تسعة عشر، والعشرين؛ هذه هى نهاية الأغنية!"

كيف بحق السماء عرفت كلمات تلك الاغنية؟ كيف تعلمتها ومتى وأين؟ كيف لم أستطع اكتشاف أن كلماتها مروعة؟ هل كنت فى عمر آراكس عندما فعلت ذلك؟ استمر هذا الحوار فى رأسى حتى دخل ضيوفي إلى الحجرة حيث أجلس

" ليست لدينا علاقة دبلوماسية، والحدود مغلقة، لكنَّ كلَّ شئ متاحٌ فى مجال التجارة"

الخبير الاقتصادي آرام سافريان هو منتج ومقدم برنامج "حرية التعبير" وبرامج "الحوار السياسي" على قناة تلفزيون الدولة الأرمنية الثانية. إنه كثير الحركة ولديه كرشٌ صغير مما يوحي أنه رجلٌ يستمتع بمباهج الحياة.

استرعت ملابسُهُ انتباهي فهى ليست كالملابس الرمادية التى اعتاد الرجالُ ارتداءها منذ أيام السوفييت، والتى لم أرَ الرجالَ يرتدون سواها منذ أيام

إنه يرتدي ربطة عنق لامعة، وبذلة أنيقة ونظارة من أحدث التصميمات، وهو يتحدث عن الحدود وأنا أتفحصه من أعلى إلى سفل

قلت لسافريان: "ولكننا تمكنا من الحصول على تأشيرة فى غضون عشرين دقيقة فقط، والبضائع التركية تباع هنا فى كل مكان"، فرد معترضًا: "هذا صحيح، إن الحدود مفتوحة أمام التجارة ولكن ليس الجميع تجارًا"

أعتقد أنه لم ينزعج من أسئلتي بقدر ما انزعج من فحوى الموضوع، فهو لا يستطيع أن يجلس هادئًا، وينتفض أثناء حديثه قائلا:

"التجارة الثنائية السنوية تقف عند حد 120 مليون دولار، الصادرات الأرمينية تعادل مليونَ دولارٍ، في حين أن الواردات من تركيا تحقق 119 مليون دولار.

لماذا سترغب تركيا في تغيير أي شيء! وفي الوقت نفسه، هنا في بلدي، يعيش 49 % من السكان تحت خط الفقر"

أخبرنى أن الأرمن أساتذة فى إخفاء الفقر والحرمان تحت الأحجار الضخمة فى مدخل يريفان. وأن للأرمن علاقةً تاريخيةً مع الإخفاء. اِستمعت إليه بانتباه بينما يحدثنى سافريان سريعا كطلقات النيران عن الأسباب التى تحتم على تركيا وأرمنيا إقامة علاقة مباشرة.

"لا يمكن لأمريكا ولا الاتحاد الأوربي إجبار تركيا وأرمينا على الجلوس لطاولة الحوار، فتركيا تنظر لارمنيا باعتبارها امتدادًا لسكان تركيا الأرمينيين"

لكننا دولة شابة مستقلة، لو توقفت تركيا عن البحث عن الدعم الامريكى وركزت جهودها فى لعب دور مؤثر فى الشرق الأوسط لاستطاعت أن تنضم للاتحاد الأوربي بسرعة أكبر، يجب أن تكون أرمينا أكثر من مكب لنفايات البضائع التركية الرخيصة"، لسافريان وجهة نظر محقة؛ فيريفان لها سحر وجمال خاص لا يتفقان والبضائع الرديئة التى تتدفق إليها عبر"تجار الشنطة"

بالفعل محلات أنيتا الرخيصة هى التي تحدد لنساء الأرمن ما الذى يجب ارتداؤه. إننى أفهم لماذا هو غاضب

"ليس على الأرمن ارتداء الملابس التى يأنف الناس في تركيا من ارتدائها، يجب على السلطات ألا تغض الطرف عن تجار الشنطة، لأن ذلك يضر بصغار المستثمرين ودورهم الحيوي فى السوق التجاري "

تحدث سافريان بينما كنت أنا اظن أن هذه العلاقة قد تتغير غدا، وذلك بناء على مثال راسخ، "تخصص أرمينيا 50 مليون دولار سنويا للاستثمار في التكنولوجيا المتقدمة. ويمكن لتركيا أن تفكر فى إنشاء وادي السيليكون هنا، مثل الموجود في الولايات المتحدة. يمكن خلق استثمارات رئيسة في مجال الطاقة. ولكن ما لم تبدأ الدبلوماسية عملها، فإن أيًا من ذلك لن يحدث ."

بحسب سافريان، فان 80% من النوافذ المعزولة بمادة البولي فينيل كلوريد(7) وكل من الورق ومنتجات السيليولوز، وكل منتجات الشوكولاتة تأتي إلى أرمينيا من تركيا، وبرغم ذلك فإنه لا توجد علاقة دبلوماسية رسمية، وسافريان يعتقد أن الوقت قد حان لاختيار "صيغة" أخرى لتستخدم بدلا من كلمة "المذبحة".

"ينبغي أن تضمن تركيا للأرمن الذين عاشوا فيها ذات مرة ولورثتهم الحق في العيش هناك مرة أخرى. وينبغي على هؤلاء الأرمن الذين لهم الحق في العيش في تركيا عدم المطالبة باستعادة الأراضي التي ورثوها عن أجدادهم"

أشرت إلى أن الأراضى لم تعد كما تركوها فى السابق فأجاب سافريان "

"إنهم يتخيلونها جميلة لأنهم ممنوعون من العودة إليها مرة أخرى، إنهم لو زاروا الأماكن التى اعتادوا العيش فيها قديمًا لعادوا إلى أرمنيا مهرولين فى غضون خمسة عشر يوما، ولكن فى جميع الاحوال لو طوينا صفحة العداء جانبا لحدثت ثورة فى العقلية الأرمينية"

يبدو ارام سافريان، المثقف فى بلاد تحاول تنظيم النسل بسبب اغلاق الحدود، غاضبًا ومحبطًا ككل المثقفين الذين يعيشون فى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. لقد أجبر على أن يرى كيف أن كل ما يملكه الناس قد أصبح متاحًا للبيع، والأدهى من ذلك أن الناس يصطفون فى السوق المفتوحة لبيع كل ممتلكاتهم دون مقابل، فقط لتذهب تلك العائدات لبلاد لا تعترف بهم رسميًا، بلادٍ تبيع لهم السلع الرخيصة المستعملة، لقد بيعت حفنة من الميداليات التذكارية مقابل بلوزة من البوليستر الخالص. ربما تكون العقلية الأرمينية قد عانت بما فيه الكفاية من جراء الفكر الثوري حتى الآن، وربما كان هذا هو السبب فى أن النادل فى المطعم عندما لا يقدم خدماته فإنه يجلس على الطاولة، ربما أنهكهم الانتقال السريع من الشيوعية إلى الرأسمالية، ويحتاجون للراحة على المناضد التى تحمل طابع المجتمع القديم، وربما لم يعتادوا حتى

اليوم على أن كل وقتهم قد أصبح ملكًا لصاحب العمل، وأنه أصبح يملك مشاعرهم وايماءاتهم، وحتى أفعالهم.

بعد أن غادر آرام وليليت رحنا نتجول فى الشوارع حتى ظهرت امرأة عجوز أمام بوابات السوق الخاص بشارع الحقبة السوفييتية. كانت تبيع قطعًا من الحلوى تشبه الباذنجان، والحقيقة أنه لم يكن يبدو صالحًا للأكل بالنسبة لنا "ربما لاحقا" قلناها ونحن نعبر بجوارها.

انتهى يورتاش من التقاط الصور فى السوق، وهممنا بترك المكان عندما نادت نفس المرأة بائعة الحلويات بصوت مرتعش "ولكن لقد قلتم لى إنكم ستشترون بعض الحلوى! " ان هذا ليس أسلوب الموردين ولا خبراء التسويق، إنها لا تستطيع أن تستوعب حقًّا كيف أعطيناها الأمل، ثم لم نشترِ منها أى شيءٍ ، هذه هى الطريقة التى يتعامل بها الناس هنا مع السوق الحر، بترقب وإجبار وأصوات مرتعشة

تجولنا عبر سوق فرنسا نشاهد مجموعة من الفنانين الفقراء المتعففين، "مرحبًا" قالها شخص ما بالانجليزية، نظرت ناحيته فابتسم بمودة حتى إنني نسيت أنه أحد التلاميذ الذين قالوا "نحن سنستعيد أراضينا بالطبع"، إنه يبتسم الآن فى سذاجة شاب صغير غير واثق من موضع يديه أو مما يقول، سألنا عن أحوالنا وعما إذا ما كنا فى حاجة للمساعدة، ثم تمنى لنا جولة سعيدة وانصرف مبتعدا وهو يرمقنا بنظرة بين الحين والآخر. لقد أصبح التجوال الثقيل فى يريفان أقل وطأة بعد الظهور المفاجئ لهذا الشاب الذى كان يموج فى وجهه الغضب والفضول والبهجة والفخر والشجاعة والرغبة فى الحياة فى الوقت الحاضر، كان وجهه كوجوه الكثير من الشباب فى منطقة الشرق الأوسط، مَلِئًا بالتعقيدات، ولم يمضِ وقت طويل حتى اختفى فى الشارع المزدحم.

كان يورتاش يلتقط صورًا للرسامين الفقراء ولوحاتهم، وهم يبيعون لوحاتهم الرائعة بأسعار منخفضة جدا، لقد كنا نحن ،الاثنين، فى غاية الحرج من شراء

لوحة، لقد كان الأمر يبدو مخجلاً لاستغلالِ هؤلاء الفنانين الموهوبين المتعلمين، أعتقد أننا ندين بهذا الإحساس بالخجل لأصولنا الشرقية، ولكن سرعان ما اكتشفنا حقيقة أنه فى الشرق الاوسط يعد "العيش بعيدًا عن مائدة الطغاة واعتبار كلِّ يوم فرصة جديدة للأطفال هو بالضبط ما يحاول الأرمن فعله"

تصاعد الدخان من فم "آرمن أوبكيان" تلتها واحدة من أشهر العبارات فى تاريخ الصوفية، إنه مؤلف درامى ومخرج عمل لفترة طويلة فى مسارح أرمينيا، أوبكيان لديه الملامح المميزة للشعب الأرميينى؛ الأنف المميزة والعيون الثاقبة، وثنايا وخطوط وجهه تبدو كوميديَّةً وتراجيدية معًا.

كأنه على وشك أن يُلقي مُزحَةً، أو على وشك البكاء، وهو ممثل محترف يبدو أنه كان فى انتظارنا، وعلى الرغم من وصولنا للمسرح وطلبنا لمقابلته لكنه فوجئ بنا

لقد ابتسم لهذه الصدفة السعيدة ولم يسألنا عن هويتنا التركية أو أسباب الزيارة، بل شرع بسهولة وإسهاب فى ممارسة دور المضيف

كانت أصوات أطفال تأتي من الخارج، حيث يجلسون فى انتظار رفع الستار عن عرض العرائس، كثيرٌ من المقاعد مكسورةٌ والصالة صغيرة وقاتمة والستائر رثة. "إنهم سيشاهدون عرض {دون كيشوت} فى خلال دقائقَ" قالها أوبكيان ونحن نعبر معه الصالة فى اتجاه المكتبة، حيث توجد أعمال فنية ومرايا ودخانُ سجائرَ وهذا العبير السحرى المكون من خليط مساحيقِ الوجهِ ورائحة الخشب الموجودة فى جميع أنحاء المسرح. يبدو أن أوبكيان لاحظ أن عددَ الجمهور قد استرعى انتباهنا، ولذا فقد قال "فى العهد السوفييتى كان المسرح مجانيًا ومتاحًا للجميع، كان يتم اصطحابُ الأطفالِ إلى المسرح سواءٌ احتاجوا اليه أم لا. أما اليوم فلم يعد المسرحُ إجباريًا، وبالرغم من أن جمهورنا أقل من السابق، إلا أنى أعلم على الأقل أن الذين يحتاجون إلى المسرح هم الذين

يأتون إلى هنا" وابتسم أوبكيان لسماع ضحك الأطفال ثم أغلق الباب

"سيكون هنالك دوما حاجة للمسرح.. دوما" قالها وهو يشير إشارة ذات مغزًى ناحيةَ الباب، وعلت وجهَهُ ابتسامةٌ ماكرةٌ، وكأن لديه سرًّا يريد أن يشاركه مع أحد، ترى ما هو هذا السر؟

"كما تعلمون، فقد كان الأرمن مشردين لعدة قرون، وكان علينا أن نجد طريقة لحفظ لغتنا، وذلك لمقاومة الضياع، لقد كانت الكنيسة والمسرح هما من حفظانا من الضياع"

الكنيسة.. هذا صحيح أنني أتذكر كيف يمثل الدين أهمية كبيرة فى الحياة اليومية للأرمن، إذا لماذا لا أرى أية كنيسة فى يريفان ؟

حاولت الإجابة بنفسى على السؤال الذى طرحته، بينما استطرد أوبكيان قائلا "إن هذا هو حال جميع الشعوب المشردة، فالمسرح يحافظ على اللغة والهوية، والشعوب المستقرة لا تستطيع أن تفهم هذا. تعتمد فلسفة المسرح على خلق بطل للناس من زمنهم ليلتفوا حوله، فالشخصيات البطولية تساعد الناس على الاجابة عن الأسئلة التى يطرحونها فى زمانهم"

حسنًا، من هو بطل أرمينيا ويريفان، المدينة التي اتسعت حلقات احداثياتها، الحرمان والفقر والألم؟

"الناس فى بلادى يحبون المسرحيات، إنهم يحبون أيضا المسرحيات التى تجسد الصراع البشرى، فالأرمن يحبون رؤية العمق، ولكن البلاد تمر بمرحلةٍ اِنتقاليةٍ، البطل الأرمينى للقرن الحادى والعشرين لم يظهر بعد، لذلك فنحن ما زلنا نعيد مسرحيات مثل دون كيشوت. ما الذي يمكننى قوله غير ذلك"

ضحكنا طويلا مع أوبكيان

ثم سألت "بالنسبة للأرمن، من هى أو ما هي دولوسينيا التي يحارب دون

كيشوت من أجلها؟"

يأخذ أوبكيان نفسًا عميقا من سيجارته قبل أن يجيب "إنها العيشُ بعيدًا عن مائدة الطغاة، واعتبارُ كلِّ يوم هو فرصةً جديدةً للأطفال، هو بالضبط ما يحاول الأرمن فعله"

أواصل مشاهدةَ المشهدِ الذى يبدو أنه يستمتع به كثيرًا .. "وطواحين الهواء؟"

اِستمر هو فى أداء الشخصية قائلاً: "الحريةُ في بعض الأحيان مثلُ النهر الهائجِ ؛ إنه يجلب الطين أيضًا. في العصور الماضية، كانت الإنسانية فى حاجة إلى الايمان من خلال معرفة وافية وفهم عميق. وظهر الأنبياء عندما كانت مياه ذلك النهر قد هدأت. يجب وجود حماية دائمة لمعنى الإنسانية من الطين ومن النهر الهائج".

يوحى الصمت المفاجئ فى القاعة بأن تأثيرَ سحر المسرح قد بدأ، كما كان دومًا، الأضواءُ الملونة والممثلون المتنكرون والدمى الصغيرة قد حولت المسرح الصغير إلى مملكة خيالية. دون كيشوت فارسٌ على ظهر حصان يحاول تعليمَ الأطفالِ معانى الإنسانية من خلال اجتياز النهر الهائج من أسعار الصرف والأقمشة البوليستر والنساء اللاتى تعلمن الشحاذة باللغة الانجليزية. معظم الاطفال الذين فى نفس عمر آراكس يضحكون الآن، إنهم لا يعرفون حتى الآن، ولكن كلما كان ضحكهم أعلى كلما امتلأت نفوسهم بحقيقة أكبر من مصير شعبهم، حقيقة كونية، الحقيقة التي أشار إليها أوبكيان عندما قال" معرفة وافية"، وكلما شاهدوا وضحكوا كلما امتلأوا بهذه القوة المعالجة وبهذه المعرفة التى لا تعبأ بالناس وإيمانهم وعقائدهم وأعراقهم لأنهم فى النهاية سيكونون أقلية أينما ذهبوا، ولكنهم سيكونون فى نفس الوقت أيضًا جزءًا من البشرية التى هى أكبر وأعمق من ثقافتهم الخاصة. باسم هذا الولاء للإنسانية سيعملون على خلق عالم أفضل، وربما يوجدون فى يوم من الأيام مع أبناء الشعوب التى كانوا يعتبرونها عَدُوَّتَهم ، لن يجدوا مثلهم كثيرًا فى هذا العالم،

سيكونون دائما أقلية وسيفكرون دائما كما أفكر، هل يمكن ان أؤثر فى المجتمع؟ هل يجب على ذلك؟ ماذا لو سحقونى فى ركن ما كما فعلوا مع الآخرين؟

***

"إن كل ما أطلبه هو خدمة صغيرة . إن لم يكن هؤلاء الرجال معها حدثتها بنفسى منذ وقت طويل"

اعجب يورتاش بفتاة فى غفلة من القدر، لقد رأينا الفتاة أولا فى بهو الفندق، ثم رأيناها فى نفس الليلة مجددًا فى ملهى الجاز

لقد اقتنع أنها أُرسِلَتْ إليه من السماء، وحدق فيها وهى فى طريقها لحمام السيدات، خلفنا مباشرة، وعقد العزم على أن يجعلنى أقدمه إليها

التعارفُ على قائمة الأشياء التى لا أحبها، وأفعل كلّ ما باستطاعتى لتجنبها، ولكن لا مفرَّ منها الآن

توجهت إلى حمام السيدات للفتاة مباشرة، ولسوء الحظ أو لحسنه كانت لا تتحدث الإنجليزية أو الفرنسية؟ الروسية؟ أنا لا أتحدث أيًّا من هذه اللغات، لذلك انتهى بنا الأمر ونحن نتعجب ساخرين، لقد تبادل هذان "العاشقان "نظرات الإعجاب فى بهو الفندق، لذلك فقد كانت الفتاة تعي ماذا أحاول فعله. وبدت تشعر بالضيق تماما كيورتاش الذى أحس أنني غير مفيدة ، له ورمقت يورتاش بنظرة يائسة حتى إنني شعرت بالشفقة على" الحبيبين المبعدين عن بعضهما البعض"

وعادت لطاولتها حيث يرافقها مجموعة من الرجال العجائز فى عمر والدها وكومة من أطباق الفاكهه وزجاجات الويسكى والشمبانيا

أصبحت الفتاة أكثر بعدًا عن ناظرينا، ولكنها كانت تدير رأسَها كلَّ فترة لتنظر

نحونـا، لكن الرجـل السمين بجانبها كان يجذبها اليـه حتـى بـدا كأنها تختنق، وبدأت فى الانكماش أكثر وأكثر بجوار رفيقها، وهو على الأرجح رجل ثرى قد قابلته بالتو.

استمر يورتاش فى النقر على الطاولة بشكل متقطع لا يتناسب مع الموسيقا ، وقررت أنا أن أوجه اهتمامى للمسرح. ربما من الجنون الاعتراف بذلك، ولكن وأنـا أتفحـص فـي وجـوه العـازفين والحضـور والـذين أغلبهم من الرجال قد فوجئت بأن هذه الوجوة يمكن أن تكون لأناس أعرفهم ، ولمحاولة فهم أسباب شعوري بالمفاجأة من هذا الأمر فقد رحت أراجع ذاكرتى البصرية

من يشبه هؤلاء الرجـال؟ إنهم يشبهون الرجـال فى الجنـوب الشرقى لتركيـا، رجالَ القرى، كثيرٌ من الوجوهِ التى رأيتها تشبه وجوههم، بل هما وجهان فى الحقيقة، أحدهم يشبهُ تماما صديقًا لى من أيرزروم، كل عائلته من المسلمين المخلصين المحبيين للقومية التركية، وعندما أدركت أسباب شعوري بالمفاجأة صعقت

لأن هذا يمكن أن يعنى ... نعم حتى أنا يمكننى أن أعرف بعض الأرمن الذين ظلوا فى تركيا وتحولوا للإسلام وأصبحوا "أتراكًا" ولكن لو كان هذا صحيحًا لماذا لم يخبرونى؟ هل يعرفون الحقيقة؟ هل يعرفون الحقيقة ولكنهم فضلوا إخفاءَها ؟

"هل تظن أن هؤلاء الرجال يشبهون رجالنا الشرقيين؟ إن أحدهم يشبه تماما صديقًا لى من وان" فى اللحظة التى أكد فيها يورتاش انطباعى هذا، قفز إلى رأسى مصطلح أو قول مأثور كنت قد نسيته وهو "ما تبقى من السيف" إشارة الى من نجا بعد المعركة من الشعب المهزوم، بشكل أكثر دقة من نجا من عام 1915 الذين لم يفروا ولم يتم نفيهم، الذين أخفوا ماضيهم

حدقنا فى وجوه بعضنا البعض، يبدو أننا قد وصلنا لنفس الاستنتاج، هنالك الكثير مما يبدو أننا لا نعرفه، وأقول "يبدو" لأننا لا نتحدث فى تلك الموضوعات

أبدًا، الغريب أن أحدنا لم ينطق بكلمة واحدة، بل قام يورتاش بتغيير الموضوع بالحديث عن الفتاة، وواصلنا الحديث عنها طوال الطريق إلى الفندق، واستمر هو يمزح حول كم أنا صديقة غير ذات نفع، وأنه لن يوافق مرة أخرى على السفر بصحبتى

عدنا للفندق ودلفنا بداخل المصعد قبل أن تغلق أبوابه مباشرة، فوجدنا.. الفتاة تولينا ظهرها وعيونها على انعكاس يورتاش فى المرآة، هزت كتفيها منزعجة وكأنها تقول "ماذا في استطاعتى أن افعل؟"، كان الرجل الذي بجانبها يترنح من تأثير الخمر وهو يبحث عن زر المصعد. هذه الفتاة تجسد مصير بلاد عصية على الإنقاذ، بغض النظر عن عدد رجال "دون كيشوت" التى تحارب فى الأفق، فإن قدر الناس هو أن يسحقوا فى الركن

وبينما هى تسحق فى الركن، يوجد أناسٌ آخرون قد فروا من هذا المصير بالبقاء على أرض أخرى، ليجدوا أنفسهم مسحوقين فى ركن آخر، ركن من نوع مختلف، إن هذه الفتاة و"ما تبقى من السيف" فى الأناضول يتشاركون نفس الصمت

فى خارج الفندق امرأة عجوز، لا تكاد تظهر من الغيوم فى شارع الحقبة السوفييتية، إنها تكنس، تكنس فى اتجاه واحد، ومكنستها الخشبية تنثر التراب جيئة وذهابًا، لكننى عندما كنت أنظر إليها كنت أشعر بأنها تكنس أركان عقلى. فى جنح الليل، غدت هذه العجوز هي الرابط المفتقد، تمثال الأم الأرمينية فى الشمال، وحصن السنونو الصغير فى الجنوب، وجبل أرارات فى الغرب، ومكان ما فى الشرق. امرأة عجوز لا تدرى أين تكنس الطين الذى ألقاه النهر الهائج على المدينه ذات الدوائر متحدة المركز.

7- PVC: مادة بلاستيكية تستخدم ضمن عمليات الإنشاء والبناء وتتصف بكونها سهلة الاستخدام ومنخفضة التكلفة (المترجم).

الفصل الخامس: سأضع "الإبادة الجماعية" بين علامتي تنصيص؛ لأنجو بفعلتي

قال لي هيجرام فى التليفون: "فى ذكرى الإثنين الأحمر، اِعتدنا أن ننظف الشوارع معًا يومين في كل أسبوع. مازال البعض يحيي هذه الذكرى والبعض لا يفعل، ولقد رأيتِ بالأمس هذه العجوز المسكينة "

هناك سؤال آخرُ حول الكنائس يا هيجرام: "لماذا لا تظهر الكنائس للعيان؟ لقد لاحظت أنها مخبأة خلف مبانٍ أخرى"

أحسست بابتسامته على الجانب الآخر من الهاتف.

"ذلك لأنه فى الحقبة السوفييتية، وبغرض حماية الكنائس والمعابد، كنا نلجأ لهذا التكتيك لإخفائها عن طريق إحاطتها بمبانٍ أخرى، ولهذا لا تستطيعين أن تشاهدي أيًّا منها، من المؤكد أنه سيكون هناك غدًا زفاف فى الكنيسة، يمكنك أن تذهبي لمشاهدته"

كان هيجرام يتحدث بسرعة شديدة "هل ستذهبين لاحتفال الأول من مايو؟ يجب أن تسرعى"

" لماذا ؟؟!"

"قريبا ستعرفين"

ترك يورتاش قهوته الأرمينة وهرعنا إلى الشارع، لاح بنجامين لنا فى الأفق ببنطاله المطوي، وأسرع مهرولاً إلينا، واستمر ثلاثتنا فى الركض في الشارع

" لم ينتهِ العرس بعد" قالها بنجامين مُطَمئِنًا لنا، ولكننا وصلنا لاهثين وغير مقتنعين بكلامه فى الساعة العاشرة والربع بالفعل، كان الاحتفال قد بدأ فى العاشرة بالضبط وأوشك على الانتهاء، والعدد الذى يقارب المئة شخص الذين

تجمعوا أمام تمثال أليكسندر ميانسكان الرئيس الأول لأرمينيا السوفتية يستمعون للمتحدث الأخير، توقعت من بنجامين أن يترجم لنا، ولكن بالرغم من ثرثرته المعتادة بقى فمه مغلقا، لكن الخطأ لم يكن خطَأَه هذه المرة؛ لأن مكبر الصوت المستخدم فى الحديث لم يكن مسموعًا

على الجانب البعيد فى نهاية الطريق يوجد ميدان صغير، سائقو العربات التي تمر مصدرة أزيزا، وصوت شاحنة القمامة والعمال حولها، والشاحنات التى تخفض سرعتها ليلقى سائقوها نظرة على الحشد المتجمع، غير عابئين بخفض درجة الصوت المنبعث من مذياعهم، فالكل يحفظ الخطب التى تنبعث من مكبر الصوت عن ظهر قلب، سواء المارة العابرون أم المتجمعون فى الاحتفال

إنهم متجمعون سويًا فى منتصف المدينة، الأطفال مبتسمون فى بهجة، والشباب يلتقطون الصور ويحررون البالونات لتنطلق فى الهواء بجوار قاعدة التمثال الضخمة، يرتدى معظم الرجال والنساء ملابس تعود لأبطال الحرب العالمية الثانية، ويتكِئ بعضهم على بعض حرفياً لحفظ توازنهم، وعندما تتعب أياديهم اليمنى من رفع العلم السوفيتى الأرمينى فإنهم يتكئون على عصيهم ويضعون العلم فى اليد الأخرى

هناك عدد قليل يحمل لافتات تضم أسماء مناطق أعضاء الحزب الشيوعي السوفييتي؛ وهم أيضا يكافحون من أجل الوقوف بشكل مستقيم وسط الحشد.

فى الأول من مايو كلَّ عامٍ ، تجد الميداليات التى لا يشتريها أحد فى السوق الذى يدعى فرنسا منأخيرا من يكترث لها و يضعها على صدره من القادمين إلى الميدان، ليكونوا محط الاهتمام والتصفيق من الحشود، ولكن لا أحد يعبأ بهم، لأن معظم سكان المدينة ما زالوا ينعمون بالدفء فى أسرتهم للحصول على أقصى استفادة من يوم الإجازة

ستنتهى الاحتفالية قريبًا وسيبحث السوفييت عن أقرب مقعد ليغوصوا فيه

الرجال العجائز الذين يملكون حكايات كثيرة وأناس قليلون مستعدون للسمع، متشابهون فى كل انحاء العالم، ولكن حالهم أسوء فى يريفان؛ حيث إنهم متأكدون أنه ليس هناك من يهتم بحكاياتهم على الإطلاق

ولكنهم عندما شاهدوا الكاميرا في يد يورتاش حرصوا على أن يظهروا ميدالياتهم بشكل أكبر، ويوضحوا لنا أهمية حكاياتهم حتى إذا لم نسألهم

"على أي حال، فطلعت باشا كان يهوديًا، جميعنا نعرف هذا" أرشاق ساكيزان الذى كان جلد صدره العاري مغطى بالميداليات، والذى كان قد تأذى من الأتراك، بمجرد أن عرف هويتنا قال "لا يمكن للأتراك ارتكاب مذبحة مثل هذه، لقد كان نسبة كبيرة من الأتراك قديمًا من اليهود، وهم السبب فى جميع ما حدث، وفى العداء بين الأرمن والأتراك"

تذكرت مدير المتحف بارسيجين لافرينتي الذى ادعى أن الأكراد هم الجناة الحقيقيون فيما حدث؟ لماذا يحاول أرمينى أن يعفى تركيا من مسؤليتها عما حدث؟ ما هذا المنطق؟

سيدة عجوز بجوار ارشاق ساركزيان، لم يؤد صبره المطول إلا لأن ينفد صبرها، فلم تستطع إلا أن تقول "إن الاتراك فى الحقيقة يحبوننا أكثر من أهل أذربيجان"، أسمها بانيان إنك، تبلغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، وقفت لترينى الميداليات على صدرها، وانتظرت أن أسألها عنها

هذه الميداليات تمثل حياة كاملة.. بالطبع سألتها

"أنا بطلة العمال، لقد عملت فى مصانع الكيماويات لمدة أربعين عاما، لقد اعتادوا تكريم العمال بعد ثلاثين عاما، وهذه الميداليات هى ما حصلت عليه لكونى بطلة عاملة"

باعتبار أنهم ضحوا بحياتهم من أجل هذه الرموز وما تمثله، ومازالوا يضحون،

أعتقد أنهم مصابون بخيبة أمل من الاحتفال، بانيان انك فاجئتنى قائلة "لقد كان احتفالاً نبيلاً ، لقد أعاد الوفاء للروح" ابتسمت مختاله باعتزاز. ربما كان الناس فى مثل عمرها لهم رؤية أخرى للحياة ربما من وجهة نظرهم فإن يريفان التى تختفى خلف الاعلانات التجارية العالمية لم تعد موجودة

ومن المفارقات أن حاضري المهرجان قد استمعوا إلى الخطاب من المشرف العجوز وظهورهم الرمادية مستندة إلى الحائط المزين لمبنى البلدية الجديد، وهؤلاء المتحدثون الرسميون الذين يستمعون إليهم بانتباه لا يؤثرون فى الروح على الإطلاق، معظم الناس المحيطين بنا تفوح منهم رائحة الفودكا، ليتنى استطيع ان أُشاركهم المعاناة فى حياتهم ولو لدقائق قليلة.

المصور الوحيد فى المشهد هو يورتاش، وهم سعداء جدًا لأنه يلتقط صورهم، وكان من الصعب أن نتركهم ونرحل، على الأقل ليس الآن

جلست على دكة بين سيدة عجوزة وبعض الأطفال، ولعدم وجود لغة مشتركة بيننا لم أستطع أنا والأطفال إلا أن نتبادل الابتسامات، ولكننى فهمت سؤالهم عن بلادى فأجبت قائلة "اسطنبول" بدأت المرأة التى تجلس بجوارى فى الصراخ بصوت عالٍ وهى تشيح بيديها ووضعت وجهها فى مواجهتى قائلة:

" كيف تجرؤين على أن تطلقي على قسطنطينيتنا اسطنبول؟ .كيف تجرؤين على أن تنطقي هذه الكلمة "

إنسحبنا مسرعين، وعندما نظرنا للخلف رأينا بابيان أرشاق يلوحون إلينا بأياديهم مودعين، وأعتقد أنهم وبخوا المرأة على إبعادها المصور الوحيد الذى كان يلتقط صورهم،

"هل شاهدتم المهرجان؟" تساءل هيجرام، فقلت "نعم فعلنا، لاتسألنى عما حدث؛ فأنا أرغب فى النسيان لعدة أيام، فبفضل واحدة منهم تذكرت مرة ثانية أننى من الأتراك"

قام بنجامين بتوجيه سيل من الانتقادات للمرأة التى صرخت بوجهى، منزها نفسه عن سلوكها المشين ليظهر "اندهاشه !!" الشديد لوجود مثل هذه السلوكيات

استمع هيجرام بهدوء وهو يلقي علي نظرة عابرة بين الحين والآخر، ولمعرفته الكافية ببنجامين فقد تجاهل معظم ما قاله.

تبادلنا ابتسامات عارفة، ولكن هيجرام كان يشعر برغبة ملحة فى الشرح "إنك تفهمين أليس كذلك؟ إنها التوقعات بأن يفعل الأتراك ما هو صحيحٌ أخلاقيًا، يتوقع الناس هذا الأمر كنوع من أنواع المجاملة، يتوقعون اعترافًا بآلامهم وخسارتهم، الأمر بالنسبه لهم أكبر من مجرد سياسة، إنه أمر يتعلق بالمشاعر وكلما طال الوقت قبل صدور الاعتراف كلما زاد غضبهم على كل الأتراك "

قلت لهيجرام :"إن الغضب يأتى بصورة أكبر من الأرمن المغتربين خارج أرمنيا، فهز رأسه قائلا: "إن فكرة أن الأرمن المغتربين يبالغون فى التعامل مع القضية، بينما باقى الأرمن يهتمون أكثر للخبز والطعام، ما هى إلا دعاية أطلقتها تركيا. إنك لن تجدي أرمينيا واحدًا لا ينتظر من تركيا أن تعترف بمعاناته وتاريخه، لن تجدي واحدًا فقط فى أرمينا أو فى الخارج، ولكن تركيا تحاول أن تصور هذا الطلب على أنه نوع من النزعة القومية، وأننا نسعى للحصول على الاعتراف بالإبادة الجماعية لأننا نرغب فى الحقيقة فى الحصول على أراضٍ. إنك تعتقدين فى هذا لأنه ليس لديك أية رغبة فى سماع أى رأى مخالف"

على بعد عدة خطوات يقترب منا رجل يبدو واضحًا أنه ليس من السكان المحليين .

الكونياك المحلى" أرارات" يقبع باردًا فى زجاجات على طاولة المطعم وصالة الاستقبال.

الوافد الجديد يبدو أنه من رجال الأعمال، أستطيع أن أحدد ذلك من خاتمه

الذهبى وابتسامته

"عذرًا أنا لا أرغب فى المقاطعة ولكن ...." قالها بالتركية وهو يستأذن فى الجلوس بصحبتنا وقد لخص الموقف فى مُزحَةٍ قائلاً :

"كيف تستطيع أن تحدد أرمينيا وسط الزحام؟ لا حاجة لذلك، سيحضر هو ليعرفك بنفسه"

جائنا أرتو بولنت كليميل لأنه سمعنا نتحدث بالتركية، ولأنه سمع هيجرام نطق اللفظ "مغتربين"

عجوز أرمينى تركى كان من الواضح أنه ينصت لحديثنا لبعض الوقت، وما أن جلس حتى أطلق مزحة عن 1915

"إننى لم أعرف جدي على الإطلاق، بل إنه لا أحد فى سنى يعرف جده. ربما كانت جدتى سيدة محترمة ولكن ليس لنا جميعا جدات محترمات".

ضحك هيرجام، ولكنه كان مستاءً بشكل واضح من اقتحام كليميل للمناقشة مباشرة بنكاته، كنت أظن أن غضب هيجرام لأسباب شخصية بحتة حتى سألت أرتو بولنت كليميل الذى يعيش فى باريس كأحد الأرمن النازحين المغتربين عما اذا كان فى أرمنيا فى رحلة عمل؟

فأفصح بدون تفكير عما تعنى أرمنيا بالنسبة له

"أرمنيا بالنسبة لى هى بقعة سياحية، لماذا أستثمر نقودى هنا؟ لأخسرها؟ الفساد هنا وصل إلى حد لا يصدق "

من الواضح أن هيجرام قد نال كفايته من الأثرياء المتعالين القادمين من المهجر

"أثرياء المهجر فى حاجة لحوافز استثمار خاصة للعمل هنا"

الذهبى وابتسامته

"عذرًا أنا لا أرغب فى المقاطعة ولكن ...." قالها بالتركية وهو يستأذن فى الجلوس بصحبتنا وقد لخص الموقف فى مُزحَةٍ قائلاً:

"كيف تستطيع أن تحدد أرمينيا وسط الزحام؟ لا حاجة لذلك، سيحضر هو ليعرفك بنفسه"

جائنا أرتو بولنت كليميل لأنه سمعنا نتحدث بالتركية، ولأنه سمع هيجرام نطق اللفظ "مغتربين"

عجوز أرمينى تركى كان من الواضح أنه ينصت لحديثنا لبعض الوقت، وما أن جلس حتى أطلق مزحة عن 1915

"إننى لم أعرف جدي على الإطلاق، بل إنه لا أحد فى سنى يعرف جده. ربما كانت جدتى سيدة محترمة ولكن ليس لنا جميعا جدات محترمات".

ضحك هيرجام، ولكنه كان مستاءً بشكل واضح من اقتحام كليميل للمناقشة مباشرة بنكاته، كنت أظن أن غضب هيجرام لأسباب شخصية بحتة حتى سألت أرتو بولنت كليميل الذى يعيش فى باريس كأحد الأرمن النازحين المغتربين عما اذا كان فى أرمنيا فى رحلة عمل؟

فأفصح بدون تفكير عما تعنى أرمنيا بالنسبة له

"أرمنيا بالنسبة لى هى بقعة سياحية، لماذا أستثمر نقودى هنا؟ لأخسرها؟ الفساد هنا وصل إلى حد لا يصدق "

من الواضح أن هيجرام قد نال كفايته من الأثرياء المتعالين القادمين من المهجر

"أثرياء المهجر فى حاجة لحوافز استثمار خاصة للعمل هنا"

تجاهل كليميل هيجرام بينما استمر فى إفشاء أسراره إليّ باعتبارى زميلته من اسطنبول "إنهم هنا حديثو العهد بالرأسمالية، إنهم لا يعرفون شيئًا عن إدارة الأعمال" ثم أضاف "أنا أشعر بالوطن فى تركيا أكثر مما أشعر هنا"

أطلعنى كليميل الذى حضر إلى يريفان لزيارة بعض المتاحف وحضور بعد المسرحيات على التذاكر الخاصه به

"كيف يتوقع مني أن أنتمى إلى هنا؟ أنظرى إلى الطريقة التى كتبوا بها على التذاكر عنوان المسرحية التى سأحضرها، لا أستطيع فهم لغتهم، إنهم يتحدثون لغة أرمينية مختلفة على كل الأحوال، لو كانت هنالك مشكلة فهي فى أن الناس هنا قد فقدوا اتصالهم بتركيا"

إنه يشير إما لهيجرام أو إلى أرمنيا بالكامل، هذه هى الطريقة التى بدأ بها الصراع فيما بينهم، وكل منهم يلقي باللوم على الآخر فى عدم الوصول لتفاهم مع تركيا، مما يشير بأنه يوجد توتر بين الأرمن- الأرمن والأرمن – المهاجرين، توتر أراه للمرة الأولى، لقد كنت أعتقد دائمًا أن كل الأرمن متفقون حول هويتهم، لن يمضى سوى بضعة شهور أخرى وسأفهم بشكل أوضح آثار هذا التقسيم والتوتر.

تفحصت وجه هيجرام وهو يصارع مشاعره حتى يتحمل ما يقال، ربما يتفق هيجرام مع بعض تعليقات كليميل ولكنه لن يدع تاجرًا أرمينيا مهاجرًا من باريس ينتقد بلاده، والغريب فى الموضوع أن هذين الأرمنيين اللذين يعيشان على طرفى نفس القارة غيرُ قادرين على التواصل باللغة الأرمنية، بل يستخدمان التركية، وبينما يتحدثون تذكرت الشبان الذين شاركوا فى احتفالات الأول من مايو، وأتعجب لماذا لم أتساءل من قبل عن دور الشباب الأرمينى فى أحداث 1915. لقد كتبت العديد من المقالات فى تركيا عن الأرمن، عدم اهتمامى بهذا هو بالتأكيد أمر غريب، ربما لأننى دربت نفسى على عدم الشعور بالفضول، وأنا اعرف أن هنالك أشياءَ رهيبةً حدثت وجزء منى لا يريد

أن يعرف عنها شيئًا، ربما لأننى غير مدربة على التعامل مع هذه الموضوعات الشائكة، ولكن فى جميع الاحوال لا شيءَ من المعلومات التى أعرفها يمكن أن يغير الحقيقة على الاطلاق، والمعاناة القديمة قد أصبح لها أشكال جديدة فى حياة الأرمن، فأحداث 1915 تمثل للأرمن جوهرَ هويتهم، وتمثل للاتراك مجرد مزاعمَ وراءها دوافعُ سياسيةٌ ، إننى مترددة حتى لا أخلط بين كل هذه الامور، لقد فسرت عدم اهتمامى بكل هذا الدم الذى سال على أراضى الأناضول عبر التاريخ بأن الدم لن يحوز مزيدًا من الشرعية برغبتنا فى معرفة كل التفاصيل عنه

أسترجع كل المقالات التى كتبتها، وكل الحوارات التى أجريتها حول المشكله الكردية فى مناطق محددة من تركيا، كان البعض غاضبًا لكونى تركية. إن ما تعلمته خلال كل هذه السنوات هو أن أجعل الأكراد الغاضبين يثقون فى كصحفية وإنسانة، لكنَّ هناك أنواعًا مختلفة من الغضب، وربما أمسكنا بخناق بعضنا البعض لفترة طويلة، ولكن الاكراد والأتراك اخوة

وبرغم المشاعر المجروحة، والأسئلة المرتبكة، والاتهامات المتبادلة، والنظرات الغاضبة فإن الشخص الذى يلقى بالاسئلة، والشخص الذى يتولى الإجابة عليها لديهما دائمًا حِسٌّ مشترك بكلمة "نحن".

إننى لا أحب ما وصل له الحال هنا فى علاقتنا مع الأرمن. لماذا ندخل دائما فى مسارات خاطئة وكأن التاريخ قد توقف عن نقطة محددة ولم نعد نستطع التعرف على بعضنا البعض بعد تلك النقطة؟ ربما لهذا أحسست بالتقارب مع المسنين، فهم يتذكرون وجوهًا تشبهنى، ولغة أتكلمها، وربما لهذا بالرغم من أنهم أكثر من عانوا فإنهم مستعدون لمسامحة الأتراك، ربما لهذا يرغبون فى التصديق بأن الأتراك الشباب كانوا يهودًا. لقد صار الشباب الأرمن بالنسبة لى غرباءَ أكثر وأكثر سواء لأنهم تعلموا وجهه نظر واحدة فقط لما حدث من الجيل السابق، أو لأنهم على عكس المسنين، فالأناضول لم تحفر أبدًا طريقها تحت جلودهم.

من المستحيل، بالطبع، على الشباب فهم المعادلة، الأناضول القديمة وكيف قَتَلَ شقيقٌ أخاه. إن الأمر سيستغرق أجيالاً كاملة لشرح خصوصيات هذه المعادلة الغريبة

"هل تسمعيننى؟"

"أفندم؟ نعم"

لم أكن أستمع إليهم منذ فترة طويلة، لذلك لم يكن لدى فكرة عما قال آرتو

" كنت أقول أنه من الممكن أن تزورى باريس فى إحدى المرات لمقابلة المهاجرين"

تمتمت بعبارة مثل "نعم ... بالطبع"

ربما لأن هناك شيئًا يزعجبنى، ما الذى يوجد أكثر مما هو هنا فى يريفان؟ لقد سئمت من إلقاء الأسئلة على أناس يكرهوننى بالفطرة، وأشك في أننى سأقدم على أمر مثل هذا مرة أُخرى. وهناك سؤال آخر يتعلق بتركيا، كيف سأكتب عن الأرمن بدون ذكر "الإبادة الجماعية"؟

ربما سأضعها بين علامتى تنصيص للهروب من هذا المأزق، قلت ذلك لنفسى حتى أتخذ علامات التنصيص كوسيلة لإنقاذ مقالاتي

ولكن الذى لم أدركه أننى بالوصول لهذا، وبعزوفى عن إلقاء المزيد من الاسئلة والمقابلة مع المزيد من الناس، فهذا يعنى أننى وضعت كلّ شيءٍ فى رأسى داخل علامتى تنصيص، وأننى حتمًا لن أذهب إلى باريس.

الفصل السادس: من فضلك افتحي حقائبك

أمامنا مباشرة يتلو العريس والعروس نذورهما وفى الخارج تنتظر السيارة "الهامر" لاصطحاب العروسين لقضاء شهر العسل. وبحسب قول بنجامين فإن المرأة الأرمينية لم تبدأ في ارتداء الملابس القصيرة في الكنيسة إلا مؤخرًا، والكنيسة محاطة بالفعل بمبانٍ عالية ولا تظهر للعيان إلا من جهة واحدة فقط، هذه هي عقلية من يعيشون هنا؛ لقد تعلموا إخفاء أنفسهم جيدا، لقد تعلموا التخفي والتكاثر كبذور الرمان.

**

كنت في منزل تفوح منه رائحة البسكويت بصحبة امرأة عجوز. بسكويت صغير ساخن وطرى، يذوب في كوب الشاي، وجو حميمي يشجع الزوار على الإحساس بمشاعر الطفولة مرة أخرى. في بعض المنازل لا مكان للخير والشر والصواب والخطأ، هنالك فقط مساحة للعيش في أحضان سيدة عجوز قد رأت الكثير من الحياة وتربت على القيم النبيلة. كثير من الأشياء تجمعت في أحضان هذا المنزل لدرجة أنك قد تجد حياتك هنا وإجابات لأسئلتك وقصصًا تهدئ من روع خيالك وكلمات حانية ترفع من معنوياتك وتسهل طريقك وتزيل منه العقبات. لا تحتاج إلا للحظات قليلة كتلك اللحظات اللازمة لذوبان البسكويت في الشاي ليصبح كل شيء على ما يرام

بعد أن عثرنا على المبنى الذي أوشكنا على أن نفقد الأمل في العثور عليه بين الأبراج السكنية القبيحة، صعدنا الدرج المتعرج بين الحوائط الأسمنتية لنصل للسيدة العجوز التي يبدو أنها بمعزل عن الموت .

هكذا تم تقديم تلك السيدة ذات الأربعة والثمانين عاما جابودكيان كأقدم شاعرة في كل أرمينيا، كما قيل لنا عنها أيضًا أشياء أخرى" الشاعرة التي تنبأت بالاستقلال، من معالم الوطن، أفضل شاعرة في أرمينيا، أسطورة حية"

ولكن عندما فتح الباب وقادتنا الممرضة لجوارها لم تحينا كامرأة عجوز منسية ولكن كامرأة مخضرمة قد تمردت على كل متع الحياة

كأس من الكونياك وضع بشكل جميل على الطاولة، وزجاجة كونياك أرارات ، والكعك والمكسرات والمقبلات، وزجاجة من نبيذ الرمان، تحسبا للظروف .

سيلفيا جابودكيان تبدو متحمسة لصحفية من تركيا وتتوق لفتح آخر زجاجة شراب.

كنت أَعزُمُ على ألا أتخطى الحدود فيما بيننا، هذه كانت خطتي على كل حال، ولكنى كنت منهكة جدًا من إجراء المقابلات ولم يكن من الممكن أبدًا أن أفهم الناس في هذه البلاد في أسبوع واحد، فبدأت بالشكوى لهذه الجدة الطيبة

كانت الجريدة تتوقع منى أن أعلم ببواطن قلوب الأرمن في تلك الفترة الزمنية .

أرارات ليس مهمًا للأرمن لأنه مذكور في الإنجيل فقط ولكن لأن الأرمن يتبعون أصولهم حتى سفينة نوح التي يقال إنها هبطت على جبل أرارات، هذه الأسطورة ترجع إلى حياك بطريك الأمة الأرمينية والتي تربط أرارات في التاريخ بشعب أرمينيا العظيم الذي تعرض للفناء عدة مرات عبر التاريخ ولكنه كان دائمًا موعودًا بالبقاء والازدهار على وجه الأرض إلى الأبد .

إنها الآن سعيدة على الأرجح لأنني أتحدث بصوت عالٍ وأضع مكنون رأسي المشوشة على الطاولة متاح للمشاركة مع الجميع.

بدأت في الضحك وهى تصب الكونياك ببطء في الكأس قائلة "مرحبًا بك" نعم يجب أن أهدأ قليلا وأجمع أفكاري، اِهدئي، هكذا نصحت نفسي

كنت لا أزال أرفع الكأس لشفتي عندما تجرعته هي مرة واحدة وانتظرت حتى مرت الجرعة النارية الحلوة من حلقها وانتظرت دقيقة أخرى لتتذوق الطعم

قبل أن تطمئننى كجدة عجوز قائلة "نعم لقد وصلت هنا في وقت عصيب يا صغيرتي، لقد شهدت هذه البلاد تغير طريقها بالكامل في الحياة ثم جاءت الحرب في كاراباخ ثم زلزال 1988 وقتل 50 ألف نسمة ودمرت نصف البلاد وتأخرت المساعدات بسبب الحدود المغلقة، في يوم إعلان الاستقلال لم يكن أحد يتصور أن متاعبنا ستدوم لأكثر من خمسةَ عشرَ عامًا

سيدتي الصغيرة لقد عشنا بدون كهرباء لأربعة أعوام عاشت البلاد على أضواء الشموع لمدة أربعة أعوام كنا جميعا نذهب للفراش بملابسنا الكاملة. واحد من كل أربعة أشخاص قد هاجر وأنتِ يا صغيرة تريدين أن تفهمي أرواح هؤلاء الناس الذين مروا بكل هذا؟"

أعادت ملءَ كأسِها بحرص وبالرغم من ابتسامتها لكن كان من الواضح أن متاعبها الصحية الناجمة عن الأزمة القلبية الأخيرة قد خفت بالمقارنة بآلام الحديث عن متاعب قومها

بدأ المطر يتساقط مرة أخرى وهى ترشف كأس الكونياك الثاني، ثم قالت بصوت أجش "إذن أنت تريدين أن تفهمي روح الشعب الأرميني، حسنًا يمكنني أن أخبرك قصة عمرها أربعة آلاف عام، الأفضل أن نسرع بإنهاء الكونياك"

بعد أن أنهت كأسها الثاني لم تعد تجلس منحنية كامرأة عجوز، بل اتكأت على يد المقعد المجاور وأشاحت بنظرها نحو نقطة بعيدة في الفراغ وهى تقول "إن الناس الذين لديهم الروح هم القادرون على تخطي الأيام المظلمة. أرواحنا "سكتت ونظرت مباشرة في عيني" وأرواحكم كذلك سيدتي الصغيرة، لقد مررنا بفترات صعبة ولكن كما تعرفين فإن لدينا أرواحًا، شعبكم وشعبنا"

حولت كلماتُها هذا المنزل المنعزل في ضواحي المدينة إلى منزل أسطوري، وتحولت الغرفة التي نجلس فيها بالتدريج إلى مركز العالم، كانت كل كلمة تقولها تقع كحجر على المنضدة، كانت رشفاتها للكونياك تتباطأ، وبدت مثل شخص صعد التل وهو الآن أعلى من مستوى الأرض يتمشى ببطء.

نظرت في وجهي نظرة طويلة وهي مبتسمة، إنها بالتأكيد ترى شيئًا ما في وجهي، شيئًا قديمًا قدم الأزل ... صراع من الماضي، نسمة عابرة أو ذكرى عادت مجددًا للحياة، ولكن بدلاً من أن تخبرني بماذا تفكر بدأت في استجوابي "هل زرتِ أيًّا من القرى؟"

كنت على وشك أن أقول "إنها كانت تمطر لمدة أسبوع" عندما جذبتني من يدي وقادتني إلى القرية "عندما ستذهبين في يوم ما سترين الرعاة والحلابين وعندما تسألين عن أسمائهم سيجيبون: أوفيليا وهاملت"

أعلم أنك هنا لطرح أسئلة حول الإبادة الجماعية، ولكن الحياة مليئة بالكثير غير الألم، نحن أيضا نهتم بالأشياء الجميلة في الحياة، هذه بلاد ترجمت شكسبير وقرأته منذ قرنين مضيا، إن هذا يعنى شيئًا. شيئًا مهمًا"

"ولكن أليست الإبادة الجماعية هي المفتاح لفهم الهوية الأرمينية؟ أليس نسيان هذا الألم جريمة في حق الهوية الأرمينية؟ ألا يعرف الأطفال هذا الألم قبل تعلم أي شيء آخر؟ أليس هذا ظلم لهؤلاء الأطفال؟"

"سيدتي الصغيرة. أنت حتى الآن لم تفهمي معنى 1915، إنها تهم المجتمع الأرميني بأكمله. شعوب أخرى قد لا يكون لديها القدرة على التعايش مع القضايا الوطنية. ولكن الشخص الذي لا يعرف شيئًا عن هذه المسألة، ولا يشعر بها في داخله لا يمكن اعتباره واحدًا من الأرمن. ربما تكونين محقة فهذا ليس عدلاً، ولكن الناس تحب أن ترتبط ببعضها البعض بأي وسيلة ممكنة"

توقفت ونظرت إلى يورتاش ووجهت سؤالها له وليس لي

"هل كنت تعرف ناظم ؟ ناظم حكمت "نظر إلى يورتاش في انتظار إجابة

أخبرتها ببساطه تاريخ ميلادنا شربت جرعة كبيرة من الكونياك وظهر عليها العمر لأول مرة

"أُعذروني .. إنها مسألة بيولوجية، الناس لا تستطيع أن تعرف كم كبرت على الإطلاق، ويبدو لنا نحن المسنين أن كل الناس قد شهدت ما شاهدناه" ثم قالت ليورتاش "إنك تشبه ناظمًا كثيرًا"

في عيني سيلفيا الآن نظرة غزل وهى تصف شعر ناظم وعينيه وهيئته وكيف رفعت الكأس في نخبه في تبليسى إحدى المرات، وكيف أطلق عليها "أهم وأجمل شاعرة في جمهورية السوفيت"

يبدو وكأن اللوحة المعلقة لسيلفيا الشابة قد عادت للحياة وهى تقبل ناظمًا على خده كما اعتادت أن تقبله في كل مرة يلتقيان فيها، أنا أعلم هذا الآن ... التجاعيد على خدها قد ارتعشت واصطبغت باللون الوردي.

ربما كانت ملاجئ العجائز مصنوعة من الأوقات الجيدة ويتم فتح أبواب تلك الملاجئ عند حاجتهم لاسترجاع تلك الذكريات الرائعة وربما عندما يعودون من تلك الذكريات الجميلة يعودون أكبر عمرًا. عندما شرعت سيلفيا جابودكيان في الحديث مرة أخرى كانت أكبر عمرًا عما كانت عليه منذ دقائق

"كنت معتادة على المزاح مع ناظم كلما التقينا قائلة فلتعيدوا لنا أرضنا" فكان يبتسم ويجيب "بعد الثورة !!"

هكذا اعتدنا المزاح مع بعضنا البعض. قال لي في يوم ما "إن مجتمعينا شديدا الاختلاط، ربما كان هناك أرمن في عائلتي" فأجبته "ربما أصبحت أنت نفسك أرمينيا"

سألني قائلاً "ما الذي حملك على هذا القول"

فأجبته "لأنك عبقري"

حدقت في النافذة لدقائق وتولى المطر باقي الحديث ثم تمتمت إلى نفسها قائلة "الأيام القديمة .. نحن الآن لا نفعل شيئًا إلا النظر في صور أحفادنا

والتفكير فيما عسانا أن نخبرهم"

ملئت كؤوسنا بالكونياك مرة أخرى وسألتها بالطبع

"هل كانت يريفان أفضل في السابق عما هي عليه حاليا؟ هل يحيا أحفادك حياة أفضل ما حييت أنت أم إن حياتك أنت أفضل؟"

"لقد عانينا من الهجرة في عربات صغيرة ومن قسوة عهد ستالين ولكن فرحة الانتصار في الحرب العالمية الثانية جعلتنا ننسى كل مشاكلنا. إن الجيل الحالي لم يرَ مزايا الحقبة السوفيتية، ونظام بلادنا الحالي نظام جيد إنما لأبناء الأغنياء، ولكن كما تعرفين يا سيدتي الصغيرة هذه بلاد فقيرة"

تملك سيلفيا جابودكيان وجهًا يعكس كل ما مر بقومها، أقسم أن ملامحها كانت تنكمش خلف كأس الكونياك وأن شعرها المجعد كان يقصر ويطول وهى تقول "الشخص الذي رحل" ازدادت التجاعيد في خديها عمقًا

"فى الخمسين عامًا الماضية كانت الأخبار في كل مكان تدعى أننا نجمع الأرمن من كل انحاء العالم ليعيشوا على هذه الأرض. كان هناك فكتور هامبرتوسيومان مؤسس علم الفيزياء الفلكية، فخر شعبنا ورمز اعتزازنا، اعتدنا القول بأن هذا هو المكان الذي تتحدث فيه النجوم بلغة هامبرتوسيومان، ولكن الآن بدء الناس في الهجرة وظلوا يرحلون" بدا وكأنها على وشك البكاء، لكنها تمالكت نفسها وأكملت قائلة "إن قصائدي هي لشعبي، لا تتصوروا أنني شاعرة عالمية، إن الشاعر الذي لا يحب شعبه لا يحب أحدًا"

ما زال حبُّ سيلفيا لشعبها فاعلاً، وكان آخر أنشطتها في حب الشعب هو معارضة نظام الجدارة الحكومي والفساد المحيط به، ولكنها لا تستمتع بالكلام عن السياسة، هي تستمع بالكلام عن قصائدها العاطفية

"كل النساء في أرمينيا يحفظن قصائدي، هل يوجد مصدر للفخر أكبر من هذا؟" قالتها بين رشفات الكونياك وأخيرًا فتحت زجاجة نبيذ الرمان، وبهذا المعدل

المتبع لن يمضى وقت طويل قبل أن نصبح جميعًا في حالة سُكر، سألت جابودكيان السؤال الذي أرغب في طرحه أكثر من أي شيء آخر "وأرارات؟ ماذا عن جبل أرارات الأرميني؟" توقفت للحظات وهى تداعب كأس النبيذ الأحمر براحتي يديها "أرارات .. أرارات هو جبل لا نستطيع الوصول إليه وكلما ابتعد أكثر كلما رأيناه أجمل. أن قلوبنا تحترق تحت أقدامه"

توقفت عن النظر في الكأس أو عبر النافذة وعادت تواجهني بعينيها قائلة "أيتها الشابة، إن أرارات بالنسبة لك هو مجرد مرتفع عن الأرض؛ ولكنه بالنسبة لنا مسألة عمق" وبينما توقفت لدقائق لأدرك معنى القصيدة، صبت لي كأساً آخرَ من النبيذ، وابتسمت لي وهى ترفع يدها لتشرب نخبي وهى تقول بالتركية

في صحتك " Hadi! Eyvallah "

**

السماء صافية لأول مرة منذ أسبوع. مخمورٌ من آثار ضيافة سيلفيا جابودكيان، أصر يورتاش على تسلق التلة التي يقبع أعلاها تمثال الأم الأرمينية لالتقاط صور لجبل أرارات.

قلت له " لا حاجة لهذا، لقد رأينا أرارات من قبل"

وقفنا بالقرب من نافذة نتطلع إلى الأفق الرمادي، وبطبيعة الحال عاد المطر للتساقط مرة أخرى، قال بنجامين وهو يفكر في نفسه كالعادة "" لو أمكنكم فقط أن تروته، أرارات يبدو جميلاً جدًا من هنا"

لم أعد أستطيع أن أغضبه بعد الآن، فقلت: "يا بنجامين، إنك لم تستطع أبدًا أن تجد لنا جبل أرارات" قلتها وأنا أكتب بضعة سطور في الصفحة الأخيرة في مذكرتي الصغيرة الخاصة بأرمينيا"

يبدو وكان أرارات لا يريد أن يكشف لنا عن نفسه، إنه جبل حكيم، وهو يعرف

أكثر منا. إنه لا يريدنا أن ننشغل برؤية الجبل ولكن يريدنا أن ننشغل برؤية الأرمن حول الجبل، وما أن أدركت هذه الرغبة حتى انقشع السحاب للحظات بسيطة، ثم عادت الغيوم مرة أخرى

بلادي.. قلوب كثيرة احترقت هناك، وحتى الآن بعيدًا هناك، مازالوا يتذكرون تلك الأراضي الجرداء بكل جوارحهم وبحزن عميق

ومع مرور كل يوم تبدو الخطوات أكثرَ جمالاً للشخص البعيد، نحن لا نراك ولا نسمع منك، ولكننا نعلم أنك يومًا ما كنت موجودًا معنا

وإلا لماذا الرجل العجائز في الجنوب الشرقي مصابون بالذهول؟ لقد تذكرت هذا الآن بشكل عفوي

" لقد صنعت هذه المباني بيد سادات العمارة الأرمينية، ولا يستطيع أحد اليوم أن يبنى شيئًا بمثل جمالها"

عبارة يقولها النساء في أزمير وهن واقفات في الشرفات للتخفيف عن أنفسهن من حرارة الصيف، ويضفن "كان الأتراك العثمانيون يتركون مسافات بين المنازل حتى يدخل نسيم البحر لتلطيف المدينة، انظرن لحال المدينة الآن"

كانت جدتي تتحدث دائمًا عن "الذين رحلوا" وقالت " لقد تعلمنا منهم تغطية المراتب بالملاءات وصناعة المخللات"

لماذا لم أسألها أبدًا عَنِ "الذين رحلوا"؟ لماذا لم أتذكر تلك الأشياء حتى الآن؟ أشياءُ لم أكن أتخيل أنى سأتذكرها؟ هذه المعلومات المخبأة في مكان ما بداخل جسدي قد عادت للحياة

قلب بلادي- هناك قلوب كثيرة مدفونة هناك. في الحقيقة الجميع هنا يعرف أمر "الذين رحلوا"، الكل يعرف عنهم ويحفظهم في قلبه، في الحقيقة الكل يعرف دون أن يخبره أحد أن "الذين رحلوا" يراقبون هذه الأرض بنظارتهم المكبرة من

مكان بعيد، يعرف الجميع كل ما هو تحت السطح وتحت جبل أرارات، الكل يعرف في صمت ويتذكر في صمت. في صمت مطبق.

البلاد لا تنسى ولا التربة تنسى، إنهم يتذكرون ببساطة ما يجب أن يتم تذكره، ويحتفظون به في أعماقهم

***

"افتحي حقائبك من فضلك"

"أيمكن أن تفتحي حقائبك؟" كانت هذه تحيتنا من رجل الشرطة الذي يرتدى ملابس مدنية في الجمارك على الحدود التركية

_ "لماذا" ؟!

_ "يجب أن نفتش الحقائب"

لقد علمتنا الانقلابات العسكرية أمرًا: أن رجال الشرطة الذين يرتدون ملابس مدنية لا يحبون الأسئلة. ماذا يمكن أن يحدث أكثر من هذا .الشيء الوحيد الذي تفكر فيه بعد أسبوع مرهق في أرمينيا هو الخروج من المطار والعودة للمنزل في أسرع وقت ممكن، وبدلاً من الدخول في معركة تسمحين بتفتيش الحقائب القادمة من "بلاد مشتبه بها" بأشعة إكس، وتتمنين أن ينتهي الأمر سريعًا.

ولكن إذا كنت مثلي، قد تسأل شيئًا على غرار "حتى الأن، هل حاول أي شخص على الإطلاق تهريب قنبلة أو أي شيء آخر من أرمينيا؟"

وبالطبع فالصمت قد يجعلك أكثر إصرارًا على متابعة السؤال "إنني فقط أسأل لأن...." ولكن صمت رجل الشرطة الذي يرتدى ملابس مدينة وعدم تجاوبه بأية طريقة ممكنة يحول السؤال لصمت مطبق.

أصبح التعبير على وجه الشرطي الآن أكثر صرامة، ربما لأنني أصبحت في

نظره "مشتبهًا به كمحب للأرمن" أومئ مقتضبة وأتناول حقائبي شاكرة.

عندما عدنا من شمال العراق اتبعوا معنا نفس الإجراءات "أتذكر" أسأل يورتاش" بحثك العشوائي هذا ... يبدو أنه دائمًا ما يجدنا"

رمقنا اثنان من الشرطة السرية بنظرة تقشعر لها الأبدان، نظرةٍ ذكرتنا من نحن ومن أين أتينا

نفسُ نظرةِ مدير بار "شيرز" الذي جعلنا نطق كلمة "اسطنبول" بدلا من "القسطنطينية" أتراك أكثر من اللازم في نظرة

ولكنَّ نظرةَ الشرطيين هنا توحي بأننا لسنا أتراكًا بما فيه الكفاية. مررنا من تحت لافتة مكتوب عليها "مرحبًا بكم في اسطنبول" وخطر على بالي فجأة أنني يجب أن أعيد صياغة كل هذه المقابلات مرة أخرى.

الفصل السابع: أصدقائي الأرمن الجذابون

كيف أمكنك أن تجعلي الأرمن بهذه الجاذبية؟ ألا يكفيك سوءًا ذهابك إلى هناك؟ لماذا تصرين على الكتابة عن هذا الموضوع؟ كيف يمكنك أن تطلقي على "آغرى" _أعلى جبالنا_ أرارات ؟

هناك كثير لا أفهمه عن الناس، برغم الكتاب الذي ألفته والمقالات التي نشرتها ودستة المحاضرات التي ألقيتها في دستة من القاعات، هناك كثير لا أفهمه حول الناس.

عندما بدأ نشر سلسلة المقالات التي كتبتها حول أرمينيا في الجريدة، أصبحت عندي أسباب جديدة للحيرة وخصوصًا بعد أن تلقيت رسالة الكترونية تحمل نفس اللهجة "لماذا تكتبين عنهم كلامًا جيدًا؟ لماذا تقدمينهم باعتبارهم أناسًا صالحين؟"

كانوا يتملكهم جميعًا غضب جنوني ولا يستطيعون أن يتخيلوا كيف عدت من يريفان بدون أن أضرب أحدًا. وأعتقد أنهم لهذا السبب ودوا لو يحصرونني في الزاوية ويشبعونني ضربًا

كصحفيه فأنا أميل للتورط في الموضوعات التي تعرضني للضرب، فأنا معتادة على التهديد والعصبية ونوبات الغضب، لكن رد الفعل كان مختلفًا هذه المرة؛ فإن أحدًا لم يخبرني برأيه ولم يهددني لم يلعنني، إنهم ببساطة لم يرغبوا فى سماع ما أقوله، كنت كمن فتح بابًا يريدون إغلاقه عنوة، كانوا غاضبين كطفل عبوس أوقظ من نوم عميق.

لقد كنت حريصة جدًا على حماية الجريدة .كنت وأنا "أعيد صياغة" المقابلات تظهر باستمرار كلمةُ "الإبادة الجماعية" بين الأقواس، هذا صحيح، على الرغم من أنني تجنبت التعبير الذي صاغته من قبل، السلطات الرسمية التركية "ما يسمى الإبادة الجماعية."

ولكنني لم أكن أرغب في استخدام أيٍّ من "الإبادة الجماعية" أو "ما يسمى الإبادة الجماعية"

كانت نواياي تنطوي على أن أجد طريقًا ثالثًا لكشف الحقيقة بعيدًا عن المصطلحات اللغوية والسياسية التي تلتف حول الحقيقة.

***

" شكرًا جزيلا" لقد حدثت عديد من الفظائع في هذا المكان ، ثم رحل الأرمن . ياله من أمر يدعو للحسرة ، عملك جيد "

لقد كان هذا كل شيء، رسالة إلكترونية مختصرة جلست أتأملها لعدة أيام. جَدٌّ من الشرق طلب من حفيده أن يكتبها ولم يوقعها أيٌّ منهم.

كنت قد تلقيت رسائل من شباب يعيشون على ذكريات أجدادهم وفى انتظار فتح الحدود، ولكن هذا الخطاب أذهلني، لقد كان رسالة قصيرة من شخص لديه الكثير ليقوله ولكنه لا يعرف كيف يقوله. كانت رسالة قصيرة ومكثفة. تماما كتلك الغمزة المختصرة المشحونة بالمعنى التي منحنا إليها أرارات ونحن على وشك الرحيل من يريفان .

أسأل نفسي، لماذا خلال الزيارات التي قمت بها للمحافظات الواقعة شرق البلاد لم أسأل أحدًا عن هذه المباني الحجرية؟ بالرغم من أنى أعرف الإجابة مسبقًا وأعرف أسباب الصمت حولها وأسباب هذا الإخفاء القاسي. فكرت في النقوش على جدران الكاتدرائية الأرمينية في جزيرة (أحتامار) في منتصف بحيرة فان. الكنائس مخبأة وسط المباني، وحجارة المباني القديمة في اسطنبول متحللة.

**

"لقد قاموا بعمل رائع؟ أليس كذلك يا أختاه؟"

كنت مصابة بالملل من الزحام الخانق والحر الشديد وسائق التاكسي يميل بصدره ناحية عجلة القيادة ومحول السرعات حتى يستطيع أن يمد عنقه للحصول على رؤية أفضل، كان ينظر إلى المباني ذات الحواف الحجرية السوداء في شارع جربيه.

"أعذريني؟ كل هذا المباني تخص الأرمن، أنظري إلى المباني التركية الحديثة ستشعرين أنهم لم يتحملوا مشقة العناء لبنائها بشكل سليم. لو كانوا لا يعرفون تلك الطريقة في البناء كان يمكنهم على الأقل الحفاظ على تلك المباني، وعدم تركها تتهاوى، ولكنهم لم يفعلوا أيًّا من هذا. هكذا هم الأتراك لا يفلحون إلا في الهدم".

"هل أنت أرميني؟" سألت المعماري اليافع! الذي يشغل المقعد الأمامي

انتبه مجيبًا "بالطبع لا.. أنا والحمد لله تركي عن ظهر قلب، ولكن المباني شيء آخر. هذا كل ما قصدته"

" ما الذي حدث للملاك الأصليين لهذه المباني؟"

سألته وأنا مستمتعة بهذه التجربة بينما أشاهده يتوقف عند الحديث كحاسب آلي توقف عن العمل وفى انتظار إعادة التشغيل.

ثم أجاب "ما كان رقم الشارع المتجهه إليه مرة أخرى يا أختاه"

قلت له "من فضلك أنزلني هناك..أمام المنزل رقم سبعة"

حدق فيّ سائق التاكسي وأنا أدلفُ إلى داخل أحد تلك المنازل الحجرية وربما حدث نفسه قائلاً

" هل هي أرمينية؟ هل حقًّا ظنت أنني من الأرمن"

"أُووووه" صاح (هرانت) عند الباب كما يفعل دائما بذراعين مفتوحين وعناق يعتصرني

"ستحطم أضلعي في مرة من تلك المرات" أتذمر فيضحك من شكواي ويقودني من ذراعي لحجرة مكتبه وقال: "لقد كانت مقالاتك جيدة. دعينا نخرج لتناول الطعام فلنذهب لمطعم أرمينيا"

"لا تذكر كلمةَ أرميني أمامي أبدًا؛ لقد اكتفيت من هذا الأمر"

ضحكنا كثيرًا وأنا أحدثه عن رحلتي لأرمينيا، ورد الفعل حولها بعد عودتي إلى تركيا، وفجأة تذكرت هذه الوجوه المألوفة في مقهى الجاز والاستنتاج الذي توصلت إليه.

فقال: لم يمضِ يومٌ واحد عليَّ في المكتب دون مرور أحدهم ليسألني قائلاً: "لدى أوراق ومستندات مكتوبة بالأرمينية، أيعقل أن أكون أرمينيا؟"

كان الأمر بسيطاً في البداية ثم أخذ في الزيادة خلال الأعوام القليلة الماضية

وأخبرني أن بعض من قابلناهم أو عرفناهم كانوا بالفعل أرمينيين، من بينهم "متحـول" وهـو أحـد الموسيقيين المعروفين ووالـد أحـد أصـدقائنا، ولكنـى مندهش لماذا لم يخبرني بهذه المعلومة من قبل؟ لماذا لم يثر هذا الموضوع؟ وهل يهم هذا في شيء على الإطلاق؟

سألني "هل سمعتي عن مشروع القانون الفرنسي؟"، "أي قانون؟"

"إنهم يخططون لإصداره قبل اللقاء الوطني الفرنسي في سبتمبر أو أكتوبر القادمين، سيجعلون عدم الاعتراف بالتطهير العرقي ضد الأرمن جريمة، هل تصدقين ذلك؟ قد جُنُّوا، والأغرب أن الشعب الفرنسي موافق على هذا !!"

لقد كان غاضبًا ولكنه تناول الطعام، ومر الوقت وكان في حالة معنوية مرتفعة عندما ذهب كل منا في طريقه، وبينما أنا في طريقي للانصراف ناديته هابطة السلم وقائلة "بالمناسبة يا هرانت لن أسألك عن دليل سياحي مرة أخرى، فالدليل الذي تعرفه قد تخلى عنا، وتورطنا مع بنجامين" رنت ضحكته في بئر

السلم بالمبنى الحجري القديم لم يكن لدى الوقت للاهتمام بالأصول العرقية لقد بدت لي دائمًا ككرة من الصوف يتم التلاعب بها بعد الحرب الباردة. شعوب مختلفة أصبحت متورطة في ذلك الأمر، وأريقت الكثير من الدماء، وبيعت الكثير من الأسلحة. إنني ديمقراطية إشتراكية والتي بحكم التعريف متحررة من كل هذه النزعات، ولكن ماذا عن صمت سائق التاكسي؟ وماذا عن افتقاري للفضول حول هذا الشأن؟ المباني القديمة وشعب بلا ماضٍ، أو بالأحرى شعب حُرم من ماضيه، أيمكن أن ينتج شيء ما عن هذا كله؟

كان هذا اليوم الذي تذكرت فيه أشياء غريبة اعتادت جدتي أن تقصها لي، كانت تتحدث عن أماكن غريبة قد أتينا منها، وتؤكد على أن عائلتنا ترتبط بالأماكن على نحو خاص، وبعدها بعدة سنوات أمسكت خاتم ياقوت كنت ألعب به في يدي وقالت مشيرةً لأماكن الفصوص المفقودة: كل هذه الفصوص والأحجار قد فقدت في الطريق خلال الرحلة. أية رحلة؟ من أين وإلى أين يؤدى هذا الطريق؟ لماذا جاءت إلى الأناضول ومن أين كانت قادمة؟ وعندما كانت تحكى ماضيها كان يبدو لي دائما كقصة خيالية. ولكنني أتذكر نقطة محددة في ماضيها، عندما تحول الخيال لحقيقة، عندما أصبحت واحدة من أوائل المدرسين في جمهورية تركيا الجديدة عندما تعلمت آخر بناتها الجميلات.

- على محطة القطار كان الجميع يبكون؛ فأتاتورك مات وجدتي كانت تفيض عيناها بالدموع - كل ما حدث بعد هذا من قصتها كان مرتبًا زمنيًّا، ولكن ما حدث من قبل كان يبدو كأنه من أرض ما وراء الأحلام، حيث جبال الزمرد الأسطورية اللامعة والجني المتأنق.

1 - يبدو أن معظم أجدادنا قد حضروا لتركيا من مكان آخر، أو أن قصصهم مبتورة بشكل مفاجئ، فهي إما سطحية جدًا أو منمقة بشكل زائد عن اللازم،

تتحدث عن أيام يفيض فيها اللؤلؤ والألماس. وحقول من الزمرد الأخضر وتتذكر تلك الترهات مرارًا وتكرارًا حتى يصبح كُلُّ صلتنا بالماضي مجردَ قصة خيالية.

2 - إنها أشياءُ غيرُ مرتبطة ولا علاقة لها ببعضِ أشياءَ من قصص خيالية بعضها حقيقي وبعضها خيال وبعضها أحزان. ما تذكرته الجدات وتذكره الأجداد، وما لم ينسوه، لأنه لم يكن موجودًا مِنَ الأساس.

3 - وإذا تساءلت عن حقيقة ما حدث، فإن العيون تتحول لنظرات زجاجية كعيون سائق التاكسي، لأن تركيا هي بلاد تتقدم دائما للأمام، حيث الظهور مشدودة والصدور بارزة للأمام، والنظر دائما للأمام وليس للخلف.

4 - كشاب لا يتصور أبدًا أنه سيكبر في العمر، شكلنا علاقة غريبة مع "ماضينا العثماني الرسمي". هناك سلاطينَ جيدون وسلاطينَ سيئون، هنالك تواريخُ للتذكر، وهناك عدد من السلاطين المجانين الذين يجب أن نعرف عنهم. هنالك قصر الباب العالي الذي يرمز إليه بالسلاحف التي اعتادت أن تتجول في طرقاته وهى تحمل الشموع على صدفاتها، وبمرور الوقت وحتى تصل للمرحلة الثانوية، تكون مثقلاً بأسماءَ وتواريخَ أكبرَ بكثير مما يمكنك تذكره.

5 - "التاريخ" هو ماضي شخصٍ ما، تحفظه لاجتياز الامتحانات وهو لا يعنى لك شيئًا على الإطلاق.

6 - والأدهى من ذلك أن هناك الكثيرَ مما يحدث في تركيا حاليا، الكثير من التغيرات الجذرية والقصص الدموية ولكنها غير معلنة. هناك عزوف طبيعي عن ترتيب الكتب القديمة يظهر عندما يكون المرء مشغولاً بتدوين صفحات جديدة في كتاب أحدث. إن الأوراق القديمة كالكلب ذي الأذنين، في حين أن أعيننا الآن مدربة على الأوراق البيضاء الناصعة على شاشات النوت بوك.

7 - مع مرور الوقت وانتشار الفهم الخاطئ أصبحت علاقتنا بالتاريخ تافهة ومشوهة ومستمدة من الكتب الأعلى مبيعاً ككتاب "الجنس على الطريقة العثمانية" أو "الحب في عصر الحريم"

8 - وتجد نفسك كمن يسترق النظر من ثقب الباب على نسخة محرفة من

تاريخه الشخصي وثقافة بعيدة عنه في الحقيقة، كشاي التفاح التركي! أو فرحة المسافرين الأوربيين بالحضارة التركية.

9 - والأسوأ من هذا أنك قد تصدق ادعاءات بعض المؤرخين المهووسين بالتاريخ الإمبراطوري التى تصدر أن فئة قليلة فقط من الأتراك هي التي عاشت حياة منعمة ومترفة دون باقي الشعب. وباعتبارك تقاتل من أجل التغيير التدريجي في بلدك التعيس ستجد نفسك شيئًا فشيئًا منفصلا عن الكيان المبهم الذي يطلقون عليه "القومية التركية" وربما لا تشير إلى نفسك بأنك تركي، بالضبط كما يفعل بعض الألمان بعدم الإشارة لأنفسهم باعتبارهم "ألمان" وبالإشارة إلى انك لست "تركيا فقط" فأنت لست بحاجة لأن تربط نفسك بكل هذا التاريخ التركي وكل إشاراته المرهقة.

10 - كونك تركيًا هو أمر مرهق جدا، فنحن نكافح كل يوم لكي نقف على أقدامنا. ثلاثة انقلابات؛ الإسلام السياسي؛ المسألة الكردية؛ أزمات اقتصادية متعددة؛ التمييز الجنسي؛ السياسة الخارجية التي جعلتنا نشعر بالتهديد المستمر نظرًا لما لدينا من "وضع جغرافي سياسي خاص"؛ أفكارٌ لا يمكن تفسيرها حول أننا في معزل عن كل دول العالم، وأننا في بلاد ليس لها نظير ولا مشابه، بلاد تحترف جلد الذات حتى قبل خوض مباراة كرة قدم دولية وكأننا على أبواب فتح فيينا مرة أخرى. هؤلاء الغزاة العثمانيون الجدد الذين يستطيعون سرقة قلوب السائحات، والصحافة الصفراء التي تنهال علينا بالمديح والتهاني بسبب المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ليحصلوا على الجنسية التركية. إن السياسات المتعلقة بالماضي متخبطة ومرتكبة، تماما كالسياسات المتعلقة بالحاضر، ولهذا السبب فنحن لنا رأى مشوش في التاريخ.

11 - وإذ فجأة تجد الأرمن يظهرون من العدم، طالبين منا "الاعتذار" اعتذار ممن؟ منا نحن؟ لماذا نحن؟ ولماذا الآن؟ وماذا فعلنا لهم من الأساس؟ نحن لم نكن حتى قد ولدنا في هذه الفترة؟

12 - إن التذكر يحتاج دائما إلى شخصين، إن لم يكن هنالك من يتذكر معك فإن الحدث الذي تحاول أن تتذكره لا يكون موجودًا من الأساس، لم يحدث،

تبخر. الأمة يمكنها أن تختار ألا تتذكر أمرًا ما بشكل جماعي، وفى النهاية لن يتذكره أحد على الإطلاق، والقلة البسيطة التي قد تتذكر لن تفعل أكثر من أن تبعث رسالة إلكترونية بدون توقيع لشخص ما قد يحاول أن يتذكر هو الآخر.

13 - نعم إن للأرض ذاكرة، ولكنها لا تنشط بناء على جهود فردية، وإنما من تضافر جهود الناس الذين يريدون أن يحافظوا على ذكرياتهم، وإلا فإنه حتى أكثر الأشياء التي تبدو عصية على النسيان قد تنسى، كتلك المباني الحجرية التي لا يستطيع أحد أن يلاحظها، "كان يسكنها الأرمن قديما ..." ثم تقف وأنت لا تستطيع أن تتذكر ماذا حدث بعد ذلك، وتبحث في النسخة الأحدث في التاريخ التي تركت عمدًا، تماما كفيلم " the eternal sunshine of the spotless mind"، ولا فلا يبقى إلا الحاضر المعتم، بينما الماضي بلا ذكريات، ولا شوائب.

14 - نعم للأرض ذاكرة تقع تحت الجبل في مكان ما، نائمة في انتظار الوقت الذي يعرف فيه الأطفال أنه لا شيء مخيف في تذكر الماضي، ربما لذلك تكون بعض الجبال أعلي من غيرها، فهي تخفي أحلك الذكريات، وأرارات _كما يعرف كل تلميذ_ هو أعلى جبل في تركيا.

الجزءُ الثانى

مُخَدَّرٌ بِالاتِّهَامَاتِ المُ ستَمِرَّةِ

الفصل الثامن: باريس ستكون رائعة.. حقًّا رائعة

إستغرقني الأمر عدةَ أيام لكتابة أي شيء. ليس بسبب أنني لا أعرف ماذا أكتب، بل على العكس لأنني كنت أعرف ماذا أريد أن أكتب.

كنت عائدة من باريس ومقالاتي الجديدة من سلسلة المقالات كانت تحتاج كثيرٍا من الجهد. يجب أولا أن أدون أفكاري حول الموضوع، ولأنني كنت أعرف ماذا أريد أن أكتب بالضبط، فقد كان الموضوع صعبًا.

لم أستطع أن أكتب لأنه في الأول من يونيو عام 2005 صدر قانون جديد. المادة 301 من قانون العقوبات التركية تحذر من إهانة تركيا، أو العرق التركي أو المؤسسات الحكومية التركية. كان ذلك بمثابة سيف مُشهر فوق الأعناق لمنع أي انتقاد للخطاب العنصري المتصاعد في مجتمعنا. ولكتم أي صوت يذكر الاضطهاد العرقي للأقليات الدينية والعرقية، فيصبح هذا الصوت هدفًا "مشروعًا" للعامة المتعصبين الجهلة، فقد صرت من بين الكتاب المستهدفين للقوميين المتعصبين وللصحف المحافظة ومواقعها الالكترونية، ولكن كان من الصعب أخذهم على محمل الجد، كانت اتهاماتهم ساذجة جدًا ومشابهة بالخطاب الفاشي للدرجة التي يصعب عليك أن تتفاعل معها. كانت الاتهامات التي وجهت للكتاب سخيفة جدًا لدرجة لا يصلح معها توجيه لائحة اتهامات حقيقية من قبل النيابة العامة.

كان الكتاب الذين اعتادوا كتابة مقالات حول تلك الأحداث المتلاحقة يبدون كحراس المرمى الذين يجاهدون لصد الكرة تلو الكرة في ركلات مباشرة، حتى إنهم لم يعودا يستطيعون الحفاظ على ثباتهم وهدوء أعصابهم. كان من الواضح أننا أصبحنا مستهدفين في هذا الوقت، ولكننا لم نكن نريد توقع أن يحدث أسوء من هذا، فقد كانت الأمور سيئة بما فيه الكفاية ولم نكن في حاجة للمزيد.

لم أكن أريد أن اكتب لأنني منذ عودتي من باريس بعد حديثي مع الأرمن المهاجرين، كان من الصعب جدًا على أن أعبر عن كل ما رأيته بالكلمات؛ فقد كانت رحلتي كما توقعتها، رحلة حقيقية، والرحلة الحقيقية لا تجيب عن أسئلة المسافر، ولكنها تمنحه أسئلة أخرى، وأنا الآن أصبح عندي العديد من الأسئلة الجديدة.

عندما يطالب الناس بالعودة لبلاد عرفوها فقط من خلال حكايات أجدادهم، ما الذي يطلبونه بالضبط؟ لماذا يبكون عند الحديث عن هذه البلاد؟

كيف أن بلادًا لا تستغرق الرحلة لها بالطيران أكثر من ثلاث ساعات تبدو بعيدة كل هذا البعد؟ لماذا هم خائفون من الذهاب إلى تركيا، وهل الذهاب إليها هو ما يخيفهم حقًّا؟

هل غضب الضحايا موجه للجناة فقط؟

ما هي الآثار الجانبية للغضب على كل من العقل والعاطفة؟

هل نحن ملزمون بالمشاركة في آلامهم؟

هل يمكن لهذه القضية المسيسة أن تعبر عن مشاعر شخصية؟

ما الذي أشعر به الآن بعد زيارتي لباريس؟

لماذا أشعر أنني مثقلة وماذا أفعل حتى لا أشعر بهذا الثقل؟

لم تكن الأسئلة في حد ذاتها هي التي ترهقني، ولكن كانت الطريقة التي أقوم بها بصياغة الإجابات وتصفية الحقائق والقدرة على كتابه كل هذا، أو عدم القدرة على الكتابة على الإطلاق.

عانت الجريدة من رد فعل عنيف مسبقًا من سلسلة مقالاتي حول الأرمن، ثم ظهرت تلك المخاطر المرتبطة بالكتابة عن الأرمن المهاجرين بشكل يجعل صورتهم جميلة.

أعددت نفسي لتقبل رد الفعل المحتمل، "كيف يمكنك الدفاع عن العدو؟ ألا تخجلين من كتابة هذه المقالات في نفس التوقيت الذي تستعد فيه فرنسا لإصدار قانون ضد تركيا "من المؤكد أنهم لن يصفونني ألا بالخائنة التي طعنتنا في الظهر.

يمكنني بسهولة أن أتخيل ماذا سيحدث، ولن يهم في هذه الحالة الدقة والحذر الذي توخيته في اختيار الكلمات والمصطلحات في كتابة المقال، لن يهم على الإطلاق ولن يمنع ما سيحدث.

لقد كنت محاصرة بين الأشياء التي رأيتها وبين الأشياء التي لا استطيع -ولا يجب على- كتابتها. هذا هو ما أريد أن اكتبه ببساطة.

**

"لقد حان الوقت لندرك معاناة الآخرين دون الحاجة للقول بأن جانبًا واحدًا يحمل الذنبَ كاملاً، والجانب الآخر بريء تمامًا. يجب علينا أولا أن نتحلى بالشجاعة لتفهم أن الجاني والمجني عليه مرتبطان دائمًا. فقط عندما نكون شجعانَ بما فيه الكفاية لفهم هذا، ينتهي مخزون الكراهية.

حدثت مآسٍ مروعةٌ على هذه الأرض في صيف 1915 ، من الذي انتصر ومن كان المخطِئُ؟ هذا الجدل استمر لأكثر من تسعين عامًا، ولكننا كنا متأكدين دائما أن شيئًا مخجلًا قد حدث في هذا الصيف، ولكننا كنا نهتم باختيار المصطلحات التي نناقش بها الحدث أكثر من اهتمامنا بالتعبير عن الحدث نفسه، وعن مشاعرنا تجاهه، وكأننا حبسنا أحزاننا في صندوق زجاجي، على الرغم من معرفتنا أن كل شيء في هذه الأرض قد اقتلع من جذوره وضاع، ولم يبقَ إلا ميراث من الألم. نحن نعرف كل هذا جيدًا، ولكننا لا نتحدث عنه، بل تتحدث عنه أشباح نيابة عنا.

من دواعي اللياقة أن نتجاوب مع معاناة الآخرين بكلمات رقيقة، حيث لا يكون

الصراخ طريقة عنيفة وجافة لتشويش الآخرين، فتحل الكلمات الحادة محل الكلمات الحقيقية، وهمس الأشباح محل الأشخاص الأحياء.

ربما حان الوقت للحديث عن الأرمن هؤلاء المهاجرين الذين اعتبرناهم أشباحًا فيما مضى

لأن الذين يهينون الكتاب وهم في الطريق للمحكمة لا يقلون شرًّا عن الذين يصرخون في وجوههم قائلين: "فلتعترف بالإبادة الجماعية أو لتغرب عن وجهي"، فقد حولت الهتافات التي تصم الآذان على كلا الجانبين جثثَ "قتلانا" لورقة مساومة على مكاتب دبلوماسيين أوروبيين وفي أروقة مؤسسات الفكر والرأي.

وأصبحت على الأشباح أن تختار جانبًا واحدًا لتعلن براءته أو إدانته بالكامل. ربما لهذا هم غاضبون؟

لقد أنهكنا كل هذا، حتى الذين يعيشون على أرض بعيدة واستقروا بها قد تعبوا من معايشة الموتى وأرهقوا من الصمت، وإطعام أعدائهم من مخاوفهم .

هل من الأفضل مجابهة المخاوف والتغلب عليها، أم التروي؟

هل من الأفضل إلقاء الطفل في الماء حتى يتعلم السباحة، أم إمهاله بعض الوقت؟

وإذا القينا في المياه العميقة، هل سنتعلم فعلا السباحة أم أننا سنندم على مواجهة المخاوف ونعزم على الهرب منها؟ عندما تجولت في شوارع تركيا أصبح السيناريو الثاني هو الأقرب إلى عقلي، يجب أن تسرد الحقائق ولكن بتروٍ وتدرج. إن الأولوية ليست لمشاعرنا تجاه القصة، ولكن للقصة نفسها، يجب أن نصل أولا لحقيقة القصة قبل أن نطلق عليها اسمًا موحدًا.

أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم بالقصة التي سردتها، أتمنى أن تكونوا قد

تساءلتم عن الأشخاص الذين قابلتهم. دعونا ننحى أشباحنًا جانبًا، فسواء لاحظتم الأمر أم لا، فانه من المرهق جدًا لي ولكم ولنا جميعًا الاختباء خلف أشباح الماضي."

***

لم تكن الكلمات أعلاه جزءًا من الخطة. كانت الخطة ما قاله لي هرانت عندما عدت من أرمينيا، أن أقوم بمجموعة من المقابلات الصحفية حول مشروع القانون الفرنسي، وعلاقة القوانين السياسية القاسية بتوتر العلاقة بين الأرمن وتركيا. كان هرانت غاضبًا جدًا من مشروع القانون الفرنسي الخاص " بتجريم إنكار الإبادة الجماعية" لدرجة أنه قال إنه في حاله تفعيل القانون فسوف يسافر لفرنسا ليعلن "إنكاره للإبادة الجماعية" كنوع من الاحتجاج، وسيتحمل العقوبة مهما كانت.

قال "إنهم مستعدون لفعل أي شيء لإحباط الحوار بين شعبينا" عندما زرته طلبا للنصح حول زيارتي لفرنسا، ولكنه عندما علم برغبتي في مقابلة المهاجرين الأرمن قال: "إنه شيء جيد، جيد بالفعل" وظل يرددها أكثر من مرة، "سيكون رائعًا، رائعا بالفعل" ظل يورتاش يرددها في نوفمبر 2005.

كنا في سميدنلى نجرى مقابلات حول القضية الكردية، عقب التفجيرات المشبوهة والانتفاضة التي لحقتها في تلك المدينة الشرقية، وفى يوليو 2006 كنا قد سافرنا إلى لبنان ووجدنا أنفسنا بدون دليل نجرى مقابلات تحت قصف المستشفى الميداني الذي يديره حزب الله في جنوب لبنان. وكان يورتاش يتذمر قائلا "لماذا لا نذهب أبدا لبلاد طبيعية؟"

لذا، فبعد عودتنا إلى تركيا، عندما أخبرته أننا ذاهبون إلى باريس، تنفس الصعداء وهو يصيح "الشانزليزيه .. أخيرًا سنتنفس نسيم الحضارة"

بالعودة إلى تلك الفترة قد كانت فكرة يورتاش عن الحضارة هي الذهاب إلى

مدينة لا تقع تحت القصف، حيث يمكنك أن تجلس بحذاء لطيف لامع لترتشف كوبًا من القهوة. إن باريس بالفعل تلبى احتياجاته، وبينما كان يورتاش يزيل أتربة الشرق الأوسط عن عدسته وحذائه، كنت أسأل هرانت أن يمدني بأسماء الناس الذين سأجرى معهم المقابلات الصحفية، وأتأكد من توفر دليل سياحي مناسب وذي خبرة. إيزابيل سيدة ممتازة ستحبينها بالتأكيد" قالها هرانت ليطمئنني

لم يكن لدى فكرة عما ينتظرني في الأيام المقبلة في باريس، ولا عن الظروف التي ستجمعني بإيزابيل في اسطنبول بعد عدة شهور.

الفصل التاسع: هناك ثلاثة أنواع من الأرمن

"ألم أخبرك حتى الآن. اسمعني، أنت الآن في باريس"

أنا مشغولة جدا ببعثرة الأشياء على مائدة مطعم فرنسي صغير أمام محطة غاردينورد

لا أجيب أحدًا إلا بكلمتي "ها .. نعم"، تماما مثلما كنت أجيب هذا الشخص الذي خاطبني في بهو الفندق الكبير بيريفان ، إنه نفس الشخص الجالس أمامي على الجانب الآخر الآن فى باريس، ربما يكون القدر هو ما جمعنا مرة أخرى. السيد ارتو بولت كليميل يشعر بالرضا عن نفسه، "لقد أخبرتك بهذا في يريفان ، أتذكرين؟" أجبت "نعم أذكر"

لقد تطورت المسالة الأرمينية، وبدأت أشعر بالخلط الشديد، ولم أكن متحمسة للقدوم إلى هنا، وأفكر جديًا في التوقف عن إكمال هذا البحث، والعمل في شيء أستطيع إكماله حتى نهايته، "بالفعل أنتِ محقة". كان سعيدًا بشكل زائد بأني أعترف بالهزيمة، وسألني قائلا: "حسنا ماذا ستفعلين الآن؟

كان السيد كليميل يتحدث التركية بلهجة أنيقة ولكنه كان تركيًا في أعماقه فقط

وباريس هي موطنه الحقيقي ونحن ضيوفه "ولكننا" قلتها مشيره لي ليورتاش

"يجب أن نقابل مرشدنا السياحي خلال دقائق"

"مممم " قالها على مضض، وأضاف "كنت أود أن نتحدث قليلاً. اِختارى في الوقت الذي يناسبك" وابتسم مرة أخرى" سنذهب إلى منزلي؛ فهناك بعض الأشياء الرائعة التي يجب أن تشاهديها ثم سآخذك إلى مطعم ملحق به محل ليبيع الكتب ثم ..."

كان برنامجنا جيدَ الإعداد، وإن كنت قد بدأت الشعور بالضيق من هذه الضيافة الأناضولية المزعجة، وكان يورتاش أيضًا يجلس منزعجًا على طاولة المقهى الصغيرة، ويبدو أنه سيفعل الأمر نفسه على كل مقاهي باريس.

بدأ كليميل يتحدث عن عادات الأرمن في المهجر والإحياء التي يسكنون بها، وطلبت منه ألا يفصح عن هويتنا التركية فى البداية حتى يفصحوا عن آرائهم السياسية حول تركيا.

"اِعلمي أن هناك ثلاثة أنواع من الأرمن: النوع الأول هو المرتبط بتركيا والنوع الثانى لا يعلم شيئا عن تركيا ولكنه يخفى تجاهها مشاعر كثيرة لاسيما الكراهية، أما النوع الثالث فإنه خائف من تركيا على الرغم من كونه لم يذهب إليها مطلقًا.

يجب أن تحددي نوع الشخص قبل الحديث إليه"

خائف؟ خائف من ماذا ؟ لم تتح لي الفرصة لأسأل السيد كليميل عن هذا لأنه لاحظ كيف نظرت إلى ساعاتي عدة مرات فقام مسرعًا.

"اِتصلي بي وسآتي لاصطحابك فورًا من أي مكان"

وبينما يصافحنى يدًا بيد قال مرة أخرى "أنظري إلى الطريقة التي حضرتي بها إلى هنا. تماما مثل الأرمن، بمجرد أن يتعارفوا لا يمكن تفريقهم"

لم يكن لدى ما أرد به سوى الابتسامة والإيماء بالموافقة، فقد كان محقًّا في النهاية عندما قال إنني سأحضر إلى باريس، وإن القضية الأرمينية ستظل تلاحقني.

وبينا كنت أتابع السيد كليميل ينصرف، خطر في ذهني أنني قد غفلت نقطة مهمة جدا؛ اسمه؟

عندما تحدثنا في يريفان أخبرني أنه يفضل أن يذكر اسمه في الصحيفة "ارتو

بولنت كليميل"، مصرًّا على أن استخدم النسخة التركية من اسمه.

سأفعل ذلك حقًّا، ولكن لماذا؟ كيف يمكن تصنيفه كأرميني يفضل استخدام النسخة التركية من اسمه؟ ما هي قصة هذا التاجر المرح؟ وهل ستجيب تلك القصة على مسألة الاسم؟

"إذا ماذا سنفعل الآن"، طرح يورتاش هذا السؤال بلهجة المتضرر بعد أن جلس طويلاً على طاولة ضيقة. قلت "نحن لم نقابل أيًّا من الأرمن حتى الآن، ودليلنا السياحي لم يحضر بعد"

فأجاب "إذن، نحن نقتل الوقت"

أجبته "مرة أخرى، هذا خطأ، سنفعل كما يفعل كل الأتراك عند وصولهم إلى أوربا"

"وماذا يفعل الأتراك عند وصولهم إلى أوربا"

"يبحثون عن أتراك آخرين"

***

"كنت مندهشة، كانت هذه المرأة تشعر بالرعب فعلاً، لم ألاحظ هذا حقًّا في البداية، ولكنها كانت مرعوبة من الأتراك"

كان ميتون أوميت يحدثنا عن لقائه مع امرأة أرمينية حينما اصطحبنا خلال الحي التركي الذي يشبه جميع الأحياء التركية في كل أنحاء أوربا.

لا يمكن ظهور هذا النوع المخفف من القومية التركية في تركيا إلا في مناطق معينة من أحياء معينة من مدن معينة.

ربما كان هؤلاءِ المهاجرون غير ممثلين لتركيا، وذلك لأن الغربيين يقولون لبعض الأتراك"أنت لا تبدو تركيا"، والحقيقة أنني أتذكر صحفية شابة كانت

فخورة جدًا عندما علق عليها أحدهم قائلا: "إنك لا تبدين تركية" فردت "شكرًا جزيلا"

إن الأتراك الأوربيين لديهم أيضًا الرغبة في عدم الظهور بالمظهر التركي أكثر من اللازم، إنها مسألة نفسيه شديدة التعقيد.

ميتين أوميت، الذي كان منشغلاً بتحية معارفه ونحن نتجول بامتداد الرصيف، لم تكن تبدو عليه أصوله التركية، ولا حتى أية أصول غيرها.

على الرغم من أنى وجدت به بعض الملامح التركية بما يكفى لترويع الأرمن – الفرنسيين، ميتين اوميت هو مدير "آكورت" وهي رابطة المواطنين ذوى الأصول التركية النقية التي عفا عليها الزمن، المتشيعة للثقافة اليسارية.

آكورت تشجع الأتراك المقيمين فى فرنسا على المشاركة فى الحياة السياسية لبلادهم الجديدة، حيث يتم التركيز على النشاط السياسي في إطار "الحقوق المدنية"، وليس من خلال منظور الاختلافات الدينية أو العرقية.

تعمل مشاركة ميتين أوميت في الجمعية على التغيير في فرنسا، حيث يعيش، وليس في تركيا البعيدة. ربما لهذا السبب كان اوميت الذي نأى بنفسه عن مفاهيم القومية والأممية لا يزال يحاول استيعاب رد فعل السيدة الأرمينية التي أخبرته عندما التقيا أنها كانت خائفة منه، وبعدما انتهى من إخبارنا بهذه القصة المذهلة استمر فى الضحك وهو يقول "لقد دعوتها لحضور بعض اجتماعاتنا وأنشطتنا المسائية. لقد كانت سعيدة جدًا بالحضور، حتى إنها ضمتني إليها وبكت"

ولكن طبقا لأوميت، فليس كل المهاجرين الأرمن يميلون للتخلي عن عدائهم وينخرطون في مشاهد عاطفية كهذه مع الأتراك.

في عام 2001 عندما كان الفرنسيون يستعدون لاعتماد القانون الذى يجرم عدم الاعتراف بالإبادة الجماعية قامت جمعيتنا بتبنى الموقف التركي، كان

يجب أن نفتح تلك الصفحة من التاريخ للنقاش ، كانت ردود الفعل القادمة من تركيا سلبية، لكن ذلك كان أمرًا متوقعًا، أما غير المتوقع فهو أن يرفض المهاجرون الأرمن أيضًا أي شكل من أشكال الحوار أيضا "

قال أوميت إنه ليس فقط قد فشل في الحصول على رد فعل ايجابى من تركيا والمهاجرين الأرمن، بل اضطر إلى التعامل مع الشباب التركي الغاضب .

"كلما أقيمت ذكرى مذبحة 1915 يحضر الى باريس عديد من القوميين الأتراك لتنظيم تظاهرات مضادة. وفى 24 ابريل وقبل إقرار القانون، اِنضم للمظاهرات المضادة كثير من الباريسيين – الأتراك صغار السن، وكان معظمهم لا يعرف شيئًا عن حقيقة الأمر، ولا يقرؤون التاريخ، لكنهم ملأى بالغضب من مشاكل الهجرة والفقر. إنهم يسمعون عن تلك الاحتجاجات فسيعون إليها لرغبتهم في الصياح ضد أي شخص أو أي شيء، وهم على أية حال يصرخون ثم يعودون إلى منازلهم.

هذه المظاهرات تقتات على الغضب النابع من الفقر، ولكن بسبب هذا النوع من التظاهرات يعتقد الناس هنا في فرنسا أن جميع الأتراك يكرهون الأرمن"

يقول أوميت أن الموافقة على مشروع قانون " تجريم إنكار الإبادة الجماعية " لم يؤد إلا إلى مزيد من شحذ خطوط الصراع، ويعرب عن اعتقاده بأن الأتراك، جنبًا إلى جنب مع الأرمن، سواء في تركيا أم أرمينيا، يجب أن يكون لهم رد فعل واحد تجاه مشروع القانون. يجب أن يكون هناك غضب شعبي يؤدى إلى إلغاء القانون الجديد. مشددًا على أن إثارة الموضوعات المتعلقة بالتاريخ الاستعماري الفرنسي من شأنها هي الأخرى أن تؤدي لإلغاء هذا القانون.

ولكنّ ممثلي المهاجرين الأرمن متفقون على تفعيل القانون. لماذا؟

"لأن المهاجرين في فرنسا لا يشعرون بالحاجة لمستقبل يضم معهم الأتراك، سواء كانوا أتراك باريس أم الأتراك الموجودون في تركيا. حتى إنني متأكد من

أنهم لم يضعوا في حسبانهم أرمن تركيا، أو هذا ما يبدو لنا على الأقل.

لهذا نحن نرغب أن يأتي الناس من أرمينيا للحوار مع الأتراك هنا.

نريد أن يعرف المهاجرون أن الحوار ممكن. يجب أن تعرف أوروبا أن دعم المهاجرين لهذا القانون إنما ينبع من مصالح شخصية، لذا فهم مستعدون بالتضحية حتى بأرمن تركيا، بل ولا يعبئون حتى بالأرمن في أرمينيا نفسها".

لقد تبنى أوميت وجهه النظر التي تقول أنه لا أحد في تركيا ولا في أرمينيا يسعى إلى الحوار أو إيجاد حلول وسطى

ولكن من الواضح أنه ليس سهلاً على الأتراك الباريسيين مثله أن يندمجوا مع الباريسيين الأرمن، ربما لأن الأتراك يحملون وطنهم معهم أينما ذهبوا، بينما الأرمن يكونون مشغولين جدا بمشكلة ضياع الوطن

"لا شك فى أنه يوجد هنا عديد من الحلاقين الذين يمكنهم جدل الشعر"، كان يورتاش محقا، فبعد أن تركنا أوميت في الحي التركي، لاحظنا أن هناك محلات حلاقة كثيرة تقوم بكل أنواع قصات الشعر ما عدا التركية. وكان عديد من الأفارقة القادمين من غرب أفريقيا يقفون أمام تلك المحلات. وقد لاحظنا أن الأفارقة والأتراك يجمعهم قدر الفقر المشترك.

إن ضرورة تقاسم حي واحد جعلت منهم أخوة بالصدفة، بالضبط مثلما يفعل الأرمن في أرمينيا لتفادي انهيار الاقتصاد من قبولهم للتعامل مع الأتراك وجلب السلع والبضائع عبر الحدود التركية المغلقة بأية وسيلة كانت، بالرغم من وجود عديد من الذكريات المؤلمة على تلك الحدود.

لكن الوضع مختلف بالنسبة للأرمن هنا في باريس، فهم ليسوا بحاجة للتعامل مع الأتراك، ولا حاجة لهم بالحوار مع فقراء الأتراك في فرنسا حول أحداث 1915.

ولكن ماذا عن الأرمن في اسطنبول؟ إذا مرر مجلس الشيوخ الفرنسي مشروع قانون تجريم إنكار الإبادة الجماعية، ألن يعود مجتمع الأرمن المهاجرين بحاجة للطائفة الأرمينية في اسطنبول بعد الآن؟

حذرت هرانت من أنه قد يواجه عواقب وخيمة في حالة تمرير هذا القانون.

ألا يهتم أحد بمدى قدرة الأرمن في اسطنبول على احتمال مثل هذا القدر من التوتر؟

بحسب ما قال لي أوميت، فان ممثلي الأرمن المهاجرين لا يهتمون إلا بأنفسهم وبتحفيز الحكومة الفرنسية للضغط السياسي على تركيا.

ولكن ماذا عن المجتمعات الأرمينية الأخرى ,"الاعتراف الرسمي بالمذبحة" الذي يسعون إليه عن طريق الضغط على عديد من المنظمات الدولية حول العالم؟ أي من احتياجاتهم سيكون عنوانا لهذا التشريع؟"

لقد كانت عاقبة تركيا بالفعل غير سارة. الأرمن، وكذلك كل الدول التي مررت هذه التشريعات أصبحت دول مكروهه اليوم .

"العالم يكره تركيا" لو كان الهدف من هذه التشريعات هو اجبار تركيا على مواجهة الماضي، فقد فشلت في تحقيق ذلك لأنها تمادت أكثر في خطابها المحلى

ولو كان الهدف هو اجبار المجتمع الدولي على عزل تركيا، فان السياسيين الأتراك أصبحوا في غاية السعادة فى ترديد شعارهم المعروف "لا أصدقاء لتركيا إلا الأتراك"، وأصبح الواقع أشدَ جهلاً وتعصبًا وإغراقًا في الجهل والكراهية.

لقد كان هذا هو رد فعل الأتراك غير المتعصبين تجاه قوانين تجبر الناس على التذكر فى الحين الذي كان يجب فيه إصدار قوانين تجبر الناس على النسيان.

ولكن ماذا عن الأرمن؟ كيف ترجم المهاجرون الأرمن معاناتهم للغات الأخرى؟

كيف يشرحون هذا لأناس لا يعرفون شيئًا عن الأتراك والأرمن؟ وكيف يثبتون صحة ادعاءاتهم؟ بماذا يشعرون؟ هل هم مسرورون بالقوانين التي تساعد جماعات الضغط الخاصة بهم " اللوبى" على إصدارها، وتمكن أشباحهم من الدخول إلى دهاليز السلطة؟ هل هم جميعا متفقون أن هذا هو السبيل الوحيد؟ رن هاتفي، هرانت يقول إن إيزابيل كورتيان ستكون عونا لنا، إنها الآن في مونبارناس، وهي بانتظارنا داخل مقهى في حالة توتر.

إنني أشك في أنها لا تثق بنا، حتى ونحن آتون بتوصية من هرانت، فهي لن تساعدنا مباشرة كما كنت أخشى. نحن الأتراك مطالبون دومًا باجتياز مجموعة من الاختبارات قبل أن نصبح جديرين بالثقة، ولجعل الأمور تستحق العناء كنت أسألها عن الشخصيات التي أرغب في مقابلتها، وكانت هذه المرأة الجذابة تجيب في كل مرة بسرعة مع "صعب"، "من الصعب جدا"، أو "أقرب إلى المستحيل." لا، إنها لن تساعدنا. إنها حريصة بشكل واضح على التخلص منا. وهذا كله يحدث لأننا أتراك. اللعنة!

قالت إيزابيل "أعذروني فأنا في عجلة من أمري"

"أنا آسفة ولكنى أعانى من مشكلة صحية "إنها لا تدرى كم اشعر بالإهانة من وقع حديثها؛ إن القضية التركية - الأرمينية تشغلني لدرجة أنني نسيت أن الناس قد تكون على عجل من أمرها لأسباب شخصية بحتة، بينما يمر في بالى أرمينيا والناس الذين قابلتهم، ورد الفعل على مقالاتي والمرأة التي أخبرني عنها أوميت التي تخاف من الأتراك.

ليس من السهل أن تخلص نفسك من المصير الذي يحيط بشعبك، ومن الظلال التي يلقيها ذلك المصير عليك. حتى في الأوقات التي تفخر فيها بحريتك وبترفعك عن أن تكون مثلهم، فإنك تجد نفسك محاطاً بعد تفهم الناس لما يحيط بك من قضايا.

"هل يمكنك إعطائي مهلة حتى صباح الغد؟ يجب أن أتصل بالأشخاص الذين ذكرتيهم"، كان ردي يلقي شعورًا بالذنب على إيزابيل، ولكنه في غاية اللباقة، ثم ودعنا بعضنا البعض

يورتاش كان سعيدًا بحذائه اللامع والمقهى الفرنسي، وكان مشغولاً بإطلاق النكات أو التعليق على الفتيات الفرنسيات اللاتي يتجولن حولنا في الأنحاء.

أتساءل، هل هؤلاء الفتيات على علم بالقرارات المتعلقة بالأرمن التي أقرتها المجالس التشريعية التي انتخبنها لتمثلهن؟ هل هن مهتمات بمعرفة الأمر من الأساس؟

كل من الأرمن والأتراك لديهم مشاعر قوية ومتناقضة تجاه هذا الموضوع، فهل تشعر الفتيات الفرنسيات بأي شيء؟

وعندها خطرت لي فكرة، فقلت ليورتاش "يجب أن نتصل ببرنارد"

قال محتجًا "من هو برنارد؟ لماذا لا يمكننا التسكع قليلا"

فقلت له "برنارد هو أروع رجل فرنسي عبر كل العصور"

أحاول أن أتذكر متى رأيته لآخر مرة، ربما كان في المنتدى الاجتماعي في البرازيل؟ أو إنها كانت الهند، وربما عندما غيرت الطائرة في البحرين، وربما كان في اسطنبول؟

كان ناشطًا سياسيًا سابقًا لديه معرفه قوية بكل القضايا السياسية من الصين إلى الأمازون، ولديه قدر هائل من التفسيرات الثاقبة والصحيحة، إنه ليس فقط الشخص المناسب لإخبارنا كيف يرى الفرنسيون والمثقفون القضية الأرمينية، ولكن عمله تحت مظلة المنظمات غير الحكومية يضفي على رأيه مصداقية عالية.

" مممم، برنارد والأرمن. ربما كان هذا مسليا"

فأجبت يورتاش بابتسامة مطمئنة" فقال "أتمنى أن تكوني محقة"

قبل أن يكرر ما يقوله دائمًا عن عدم رغبته فى العمل كالمجانين في اليوم الأول الرحله كما نفعل كل مرة.

الفصل العاشر :إذا لم أقل "إبادة" فلن أستطيع النظر إلى نفسي في المرآة

"سحقًا!" .. تتعجب المرأة التي ترجع أصولها لبلاد الغال من ذقن برنارد وشاربه. كان يرفع يديه عاليًا في الهواء ويهز رأسه إلى الجانبيين وكانت تعبيراته كلها حزينة بالرغم من أنه على وشك أن يقص حكاية مسلية. كان يصرخ "الغباء. الغباء. الغباء المطلق"

كان برنارد يصف مشروع القانون الفرنسي بالغباء، ولكنه كان يحتقر بشكل أكبر من ذلك القانون تلك الطريقة التي تتخاطب بها الجالية الأرمينية والجالية التركية معا في فرنسا"

لقد كان اجتماعهم برعاية جمعية "مواطني هلسينكى لحقوق الإنسان"

برعاية مشروع "جمتاز جمتاز(8) " ولكن عندما أعلنت الإذاعة الأرمنيية عنه، وعلم الأرمن أنه منظم من قبل الاتراك قرروا مقاطعته، وقرر القوميون الأتراك الإغارة على محطة الراديو.

بالطبع برنارد، الذى كان أحد منظمى هذا الاجتماع ومتحدث خلال فعالياته، يحكى عن الأمر بطريقة كوميدية مثيرة للدهشة وبنهاية غير متوقعة.

" هكذا تم الحوار بالفعل، ولكن ليس فى ليون وإنما فى مدينة أخرى، ولم يكن بين الأتراك والأرمن، ولكن بين الأتراك والأذربيجانين"

كان من الصعب ملاحقة برنارد وهو يحكى مع كل هذه الدراما والتمثيل والنكات، ولكن المغزى من الحكاية كان واضحا.

يبدو الحوار بين الأتراك والأرمن صعبًا للغاية ونتائجه غير مرضية؛ فالأتراك يتهمون الأرمن بأنهم يرفضون الحوار وعندما يقبل الأرمن بالحوار فهم لا

يتحدثون إلا عن الإبادة الجماعية ولا يبرؤونهم من التهمة"

"ولكن ماذا عن الفرنسيين هل شجعت الأوساط الثقافية الحوار بين الأرمن والأتراك أم اكتفوا فقط بمناقشة القانون في اجتماع البرلمان ؟

رد برنادر بابتسامة ماكرة "اكتفينا نحن ،الفرنسيين، في هذا الشأن بالجلوس مقيدين على مقاعد البدلاء" ثم أضاف "لقد كان سبب هذا على الأرجح أن أحدًا منا كمثقفي فرنسا لم يكن له رؤية واضحة حول القضية الأرمينية وقد أجبر القانون المقترح المثقفين الفرنسيين على النظر في المسألة للمرة الأولى على الإطلاق، الحقيقة أنه لم يكن لدينا ما نقوله، كنا جميعًا متجمدين إزاء هذا القانون الذي يبدو سخيفًا بشكل واضح"

"لحظة واحدة" قالها برنارد وهو يبحث في حقيبته ليخرج نسخة من جريدة بوليتيس - الأسبوعية اليسارية – وأراني تحقيقًا عن نفس الموضوع في العدد الأخير

هذا القانون لا يشجع إلا المتعصبين الأرمن، فمن الواضح أنه سيكون سبب إزعاج للأرمن في تركيا، وكذلك سيعيق البحث التاريخي في حقيقة ما حدث، ولن يصب هذا القانون إلا في صالح مخططات القوميين في تركيا وأرمينيا، وسيوجه ضربه قاضية لكل المجهودات الرامية لكشف الغموض حول تلك الحقبة التاريخية، ليعلى عليها الموت والجمود في ذكرى يدعون أنهم يحاولون الحفاظ عليها، ولكننا نعلم أن حقيقة الأمر أن الموسيقي التركي كاردس تركولار سيستمر في تلحين كلمات الشاعر الأرميني شارنتز في أغانٍ جميلة تخدم مستقبل العلاقات بين تركيا وأرمينيا أكثر مما سيفعل ذلك القانون اللعين.

تجمدت إيزابيل وهى تفكر في كيفية ترجمة السؤال الذي طرحته، وربما تفكر في أن تتراجع ، ولكن الأوان كان قد فات على كل حال، فريما كنت أتحدث الانجليزية ولكن كلمة "أسالا(9) –الجيش الأرميني السري لتحرير أرمينيا" من السهل تمييزها في أية لغة.

أدرك أران تورانيان الذي يجلس أمامي في الطرف المقابل من الطاولة معزى سؤالي على الفور بدون أن ينتظر الترجمة شرع يهز رأسه.

"لا، أنا لم أكن عضوًا فيها على الإطلاق، ولكن كانت لي علاقات قوية من أسالا"

تورانيان الذي يجلس أمامي مدعيًا أنه لم يكن عضوًا في هذا التنظيم، بالرغم من أن كل مقال كتب عنه يظهر عكس هذا، وطبقا لمصادر متعددة فان نشاطه السياسي بدء وهو يدرس القانون في جامعة السوربون حتى أصبح قائدًا لحركة القوميين الأرمن، الجناح السياسي لأسالا. ولكنه الآن رجل هادئ في منتصف العمر، يجلس في مقهى باريسي حاملاً نسخة من مجلة أرمينية يعمل رئيسا لتحريرها ويتصرف وكأن شيئًا لم يحدث في الماضي

وبدا لي أنه في حاجة إلى أن يشرح الهدف من وجود أسالا فبادرني قائلا:

"كما قد تعملين مسبقًا، فإن أسالا قد قامت بحل نفسها، وأنا شخصيًا قد هجرت أسالا عندما بدأت في الدعوة لمواجهة العنف بالعنف"

وبالرغم منه أنه كان مترددًا في البداية في الخوض بهذا الحوار إلا أنه أصبح عفويًا فجأة وكأنه يتحدث إلى نفسه أو ربما يحاول جعل حديثة يبدو أوضح

"أسالا ليست كل شيء، كما أنها ليست نهاية المطاف للقضية الأرمينية. لقد كان هناك دومًا جدار من الصمت حول الإبادة الجماعية في تركيا وفرنسا. في البداية قامت المنظمة برد فعال في هدم هذا الجدار، ولم يكن لدينا اختيارات كثيرة؛ فقد تم إخفاء القضية كما يخفى التراب تحت السجادة، ونحن كشفناها. لقد استمرت تركيا في سياسات تهدف إلى إخضاع المهاجرين الأرمن واستمرت بممارسة نفس السياسات تجاه الحكومة الفرنسية منذ عام 1970 واستمر هذا الحال حتى عام 1980. حتى إنه لم يكن أحدٌ يعرف شيئًا عن القضية الأرمينية قبل أسالا، ولكن بمجرد أن فتحت القضية لم تعد أسالا ذات نفع بالنسبة لي، ولم يعد هنالك ما يدفعني لدعمها، وأصبح شغلي الشاغل بعد هذا هو نشر

المعلومات والاعتراف بالمذبحة"

تورانيان قد وهب نفسه لهذه القضية لمدةِ خمسة وثلاثين عامًا، ولكن لماذا؟

"مهمتنا هي ألا ننسى، وأن نطلق اسمًا على ما حدث لنا في 1915، هذا هو ميراثنا التاريخي ويجب علينا أن نتقبله، هذا هو العهد الذي قطعته على نفسي، وهذا ما يجعلني أتحمل النظر إلى نفسي في المرآة، ولكن أحلامي تغيرت كثيرا بالطبع عما سبق"

أخذ تورانيان نفسًا قصيرًا ثم تحدث بلهجة متصالحة "حلمي هو مستقبل مشترك بين الأرمن والأتراك، مستقبل مبنى على التقارب والمصالحة ولا يمكن أن يتم هذا إلا من خلال مقاربة التاريخ المشترك للدولتين لمقاربة المستقبل، ربما لا يمكننا أن نغير ما حدث في الماضي ولكن يمكن بناء مستقبل بلا عداء"

وعندما اتخذ الحوار هذا المنحى التصالحي سألته عن المغتربين الأرمن وموقفهم من الحكومة التركية ولماذا هناك موقف مختلف بينهم وبين الدولة الأرمينية بشان تركيا.

"هناك بالطبع العديد من الأسباب العملية التي تدفع الدولة الأرمينية للتعاون مع تركيا، ولكن بالنسبة لمهاجرين الأرمن فالأمر مختلف، إنهم لا يرون في تركيا إلا الدولة التي قامت بإبادة شعبهم، ثم استمرت تسعين عامًا في ادعاء العكس بحملات مكثفة. المهاجرين الأرمن هنا ليسوا بالقوة الكافية لمحاربة دولة بالكامل"

فأخبرته أن الناس في تركيا يظنون العكس، بل ويعتقدون أن مساعي المهاجرين الأرمن قد ألقت بظلالها على السياسية الخارجية التركية إلى الأبد. فرد معترضًا "إنه الشكل النموذجي للدعاية القومية الموجهة، يدعون أن المهاجرين الأرمن أقوياء، وان صدقتهم الأغلبية لأمكن للطبقات الحاكمة أن تتلاعب بهم. إننا ناشطون بالفعل، ولكن لو كانت الحكومة التركية ترى أننا

أقوياء، فلأننا نحارب من أجل قضية عادلة"

كان حديثه ينم عن دراية واسعة بالحكومة التركية فسألته إذا كان قد ذهب إلى تركيا ولو حتى سرًا، فطال صمته كثيرا قبل أن يرد "إن هذا هو أصعب الأسئلة على الإطلاق".

يومٌ واحد عندما رأيت تمثالاً مشيدًا في ذكرى المذبحة التي حدثت قبل وقت طويل من الآن". تعجبت من رد فعله وكيف كان يتحدث عن تركيا بهذه الحرارة وهو لم يشاهدها على الإطلاق ولكن ماذا عن أرمينيا؟ هل يكن لها كل هذه المشاعر؟ لقد كانت كلماته التي استخدمها لوصف أرمينيا صاعقة لي، فهي كلمات رسمية خالية من المشاعر

"إنها بلاد رائعة بالطبع، وهى الدليل الملموس على وجود العرق الأرميني، ونحن الأرمن المهاجرون نقدم لها الكثير بالطبع، ولكن لدينا أيضا الكثير لنفعله هنا"

وعندما أشرت لعدم شغفه بالحديث عن أرمينيا، اضطرب تورانيان "إن حياة المهاجر صعبة للغاية، إنني اشعر دوما بالحنين إلى أرض الأجداد، الأرض الأم، لا يمكنك أبدًا أن تتخيلي. هذه المشاعر"

ذكر تورانيان جدته فان واما التي ولدت في مدينة أزمير، هجرت عائلته اسطنبول ولم يرَ تلك المدن على الإطلاق، لقد بدا مرتعشا عندما أتيت على ذكر زيارته إلى تركيا

كم يبدو غريبًا أن عضوًا سابقًا في منظمة إرهابية مسلحة يبدو خائفًا من أشباح الماضي بهذا الشكل. يبدو من الصعب تصديقُ ارتباطه بأي شكل مع تلك المنظمة التي اغتالت الدبلوماسيين الأتراك وأسرهم وزرعت القنابل المتفجرة في مطار أورلي. ربما كان الغضب يلين عبر السنين ليتحول لشيء آخر، لقد ولت الأيام التي كان فيها تورانيان يعاني من الغضب وعدم الانتماء لوطن، ولا يستطيع النظر إلى نفسه في المرآة. لقد أرانا الصفحة الأخيرة من المجلة التي

يقوم بتحريرها بهدوء وروية.

كان يورتاش يتحدث وأنا أفكر في أخلاقه الدمثة، ولماذا كانت أسالا تعاقب تركيا باغتيال السياسيين الأتراك؟ هل كانوا ينتقمون لأجدادهم الراحلين أم إنهم ينتقمون لأنفسهم من حالة الشتات التي يعيشونها؟

تذكرت تلك المرأة التي وصفها ميتون، التي كانت تخشى الأتراك، وهذا الرجل الذي وقف بجانبي وهو يرتعش. ما الذي يخافون منه في الحقيقة؟ هل هي تركيا أم هو شيء آخر؟ يجب أن انتظر لعدة أيام أخرى لأحصل على إجابة لهذا السؤال.

" الوداع" قالها لي وهو يصافحني ببهجة ويشد على يدي بقوة، وكأنه وجد أخيرًا تركيًا يستطيع أن يتجاذب معه أطراف الحديث. كان كجندي الصفيح الذي تحول فجأة إلى إنسان، ولهذا بدت الابتسامة في جهة آدمية جدا. ابتسامة صبيانية مرتبطة نوعا ما بفترة الطفولة، ولكنى كنت أتساءل: ماذا عن أطفال الدبلوماسيين الأتراك الذين قتلتهم أسالا؟ هل فعلاً سمحت له أن يمسك يدي أم أن تلك خيالات؟

أخيرًا انتهى الحوار. تنفست إيزابيل الصعداء، إنها تتعجب من الحرية التي تحدث بها تورانيان، ولكن لا وقت لدينا لمناقشة هذا، فهي في عجلة من أمرها

"ستقابلين اليكسيس جوفجيان، خلال ساعة في مقهى لوسيلكت" قالتها وهي تجرى مبتعدة. كنت قررت ألا أقفز إلى استنتاجات، وخصوصا بعد أن عرفت بمشكلتها الصحية، ولكن فظاظتها في التعامل كانت تجعلني متوترة ومتحفظة.

لا أستطيع أن أمحو من ذهني الانطباع الخاص بأن لديها شيئًا ما تقوله، ولكن ربما كانت الأيام القليلة القادمة محفزًا لها على البوح. وصلنا إنا ويورتاش للمقهى، وبدا أننا مختلفان عما حولنا، ونحن نتطلع إلى العدد اللانهائي من

الوجوه التي تتحدث حولنا، وننتظر الوجه المقبل لنجرى المقابلة الصحفية معه.

نظرت للصور الفوتوغرافية المعلقة على حائط المقهى. هناك صورة لأرنست همنجواي يمسك سيجارته ويتحدى العالم، كنت مشدوهة بالصورة حتى إنني لم ألحظ المعركة النامية بين يورتاش ونوادل المقهى الذين أقسموا على الحفاظ على اللغة الفرنسية، وعندما لاحظت هذا كان الوقت قد فات؟ "أقول لك إنني لا أتحدث الفرنسية بحق الله"

فقلت بالفرنسية "قهوة من فضلك" التفت إلى يورتاش قائلا: " إنهم يعلمون قصدي تمامًا، يا له من مخادع" هذه المعركة ستستمر لعدة أيام، فيورتاش مقتنع بأن عمال المقاهي الفرنسيين كسالى وأخلاقهم سيئة، وهو متأفف منهم جدًا.

الوجوه الشاحبة: صورة هيمنجواى، يورتاش الذي يبحث عن أية ذريعة للشجار مع عمال المقهى، تورانيان المشغول بأشباح في بلاد غريبة لم يزرها من قبل.

الأرض، الخبز، السلطة، وكل ما يكمم أفواه الأشخاص ويمنعهم عن النطق.

أنا لا أستطيع أن أفهم أيًا من هذا، ربما لنوعية الرجال الذين بنوا العالم اليوم، والذين سجلوا كل عناوينه الفرعية. هل المرأة قادرة على إعادة كتابة التاريخ؟ من يدرى.. ربما كان آخر سطر في الفصل الأخير يحمل نهاية مختلفة؟ ربما يكون المستقبل أقل تعطشًا للدماء، ربما يقلل الإحساس بالذنب من تعاطفي مع آران تورانيان. ربما .." أتمنى ألا أكون قد جعلتك تنتظرين طويلا". أطلق الكسيس جوفجيان سلسلة من المجاملات بينما هو يجلس، لم أنتبه لمعظم ما قاله لأنني رأيت أوزجار عبر النافذة مارا بالجوار. سأتعرف على اوزجار لاحقًا فباحث الدكتوراه الشاب في جامعة السوربون المتخصص فى القانون الدولي سوف يخبرني في الليلة القادمة عن أغرب قصة قد سمعتها في حياتي عن الأرمن.

8-- «جمتاز جمتاز» كلمة أرمينية تعنى «رويدا رويدا» بدأت كملتقى للشباب في مدينة أنطاكيا التركية عام 2005 وتطورت لتصبح ملتقى سنوي لرعاة الحوار بين الشباب الأرمن والأتراك.

9- أسالا asala منظمة إرهابية أرمينية أنشئت في لبنان عام 1975 بغرض إجبار تركيا على الاعتراف بالتطهير العرقي للأرمن عام 1915، وهى مسئولة عن العديد من الحوادث التي استهدفت دبلوماسيين أتراك وموظفين في العديد من أنحاء العالم، وقد قتلت46 شخصا وأصابت 299 شخصا آخرين.

الفصل الحادى عشر: إن الذي يتحكم فينا التقاليد وليس الغضب

"لا لن أستطيع التحدث عنها. لقد نسيتها تمامًا. هذا أفضل كثيرًا"

كنا بالقرب من نهاية اللقاء عندما بدأ اليكسيس جوفجيان يخبرني عن تاريخه الشخصي ويسرد أسماء بعض مناطق اسطنبول باللغة التركية. إنه يجيد التحدث بالتركية بطلاقة ولكن عندما حاولت أن أكمل الحديث بالتركية عاد للغة الانجليزية مرة أخرى، "لقد نسيت"، قالها بإصرار "لابد أنني نسيت اللغة "، هل من الممكن أن ينسى لغة البلاد التي ولدت بها وعاش حتى عمر السابعةَ عشرَ عامًا ؟ هل بالفعل هجرها كما يعتقد، بل ونسي اللغة أيضًا.

قال جوفجيان "لم أكن سأترك تركيا أبدا لو كان بإمكاني التحدث عن المذبحة"

يبدو في حلته الداكنة وكلامه المعسول وقدرته على قول العبارات القاسية بابتسامة عذبة كمنسق سياسي كشخص وظيفته هي إقناع الناس والتأثير عليهم، وبالنظر للسهولة التي أجاب بها على أسئلتي يبدو كرجل قد تعود على خوض نقاشات حول الإبادة الجماعية.

جوفجيان يتحدث نيابة عن اتحاد كونفدرالي يتكون من200 منظمة أرمينية مختلفة، بما في ذلك الكنائس والمدارس والجمعيات الخيرية والمجموعات الشبابية. وبدء حديثًا معي معربًا عن أنه لا ينقل وجهه نظرة الشخصية ولكن ليس له وجهة نظر المهاجرين الأرمن في فرنسا. "المهاجر الأرمني هنا لا يريد أن يحاسب أتراك اليوم عما حدث في الماضي ولكن يريد أن يناقش التاريخ المشترك ويكشف الحقائق، فلماذا تتمسك تركيا بعد مرور تِسعينَ عاما بنفس وجهة النظر القديمة؟ بل و يتحدثون عن لجنة طلعت باشا أيضًا."

وشرح جوفجيان كيف يقاوم اللجنة التركية القومية التي تعرف بلجنة طلعت

باشا والتى تشتهر بسياستها العدائية للمهاجرين الأرمن في فرنسا، وكيف يتبادل الطرفان الضغط على السلطات المحلية للحصول على المكاسب مما ينتج عنده تظاهرات وتظاهرات مضادة في مشهد مستمر.

عظيم هذا الحماس المتزايد في وصف المشهد لقد جعلني للحظة أنسى أننا نتحدث عن مأساة كبيرة كنت أسترجع صورة همنجواي التي رأيتها من قبل وتعبيراته الرجولية، لقد كان في حديثِ جوفجيان المتسارع شيءٌ منها

سألته عن مشروع القانون الذي من شأنه "تجريم إنكار الإبادة الجماعية" وكيف انتقده هرانت دينك بوجه خاص لأنه سيضر بالأرمن الذين يعيشون في تركيا وسيضر الحوار حول القضية بوجه عام.

"لو بالفعل أضر إقرار هذا القانون بالأرمن المقيمين في تركيا فإنه سيمثل نموذجًا حقيقيًا للسياسة التركية تجاه مواطنيها، وسيعارض تلك الممارسات كل الديمقراطيين الأحرار في تركيا وليس فقط الأرمن وحدهم"

دعمًا لمشروع القانون فإن لدى جوفجيان استعدادًا لإجابة أي من أسئلتي بإجابات وبراهين أعدها مسبقًا إنه يلخص أسباب دعمه كما يلي:

"نحن نريد إصدار القانون ليقف في وجه المتطرفين الأتراك الذين يتظاهرون ضد الأرمن في فرنسا" إنه يريد أن يحمى الأرمن في فرنسا وله الحق في هذا، لكن كلانا يعرف أن هذا القانون سيؤثر على حياة الأرمن في تركيا بالطبع" إن لديه الحق لانتقاد تركيا بخصوص الحقوق والحريات، ولكن لا يمكنه التنبؤ بالتأثير المباشر على المجتمع الأرميني في تركيا بسبب هذا القانون فقال بشكل غير قاطع.

"إنها مشكلة تركيا، نحن لم نكن نرغب في مثل هذا القانون، ولكنَّ القوميين الأتراك هم من أجبرونا على هذا إنهم يبالغون في تقدير قوتنا ويضغطون علينا كثيرا، حتى إنهم يدعون أن أورهان باموك قد فاز بجائزة نوبل بسببنا نحن،

وكأننا نكلم الله يوميًا

نحن لسنا بهذه القوة التي يدعيها الأتراك، صحيح أننا ندعم هذا القانون ولكن انكار المذبحة لا يجعل الشخص مجرمًا بقدر ما يجعله مغفلاً"

قلت له "ولكن هذا الموقف يدل على أنك لست من دعاة الحوار مع تركيا كما تدعى"

فضحك جوفجيان وقال "إنها ليست أزمة بين الأتراك والأرمن، إنها مسالة سياسية"

وبهذا أصبحت وجهه نظر جوفجيان واضحة تمام الوضوح أمامي، إنه من الخطأ تجريد السياسة من أية مشاعر إنسانية وسيؤدى هذا في النهاية لإعاقة أي حوار يمكن أن يتم.

لقد ألقى جوفجيان كل أرواقه على الطاولة وهو يقول "يجب علينا أن نتحدث عن أمور أخرى أكثر أهمية، وليس هذا الأمر فحسب، وإلا فإننا لن نصل لأي شيء بإغفال نقطة أساسية مؤثرة في مسار التاريخ"

سكت قليلاً ثم أضاف "إن أهل الشتات والمهاجرين هم أهلُ الأناضول أنفسهم" قال هذا في فرنسا باللغة الانجليزية بالفعل مما أصابني الذهول بالرغم من كوني شخصًا لا يتمسك بكل العادات والتقاليد والروايات السائدة، فقد قرر جوفجيان الآن أن يخبرني بقصته وباللغة الانجليزية طبعًا.

"لقد كنت طالبًا في مدرسة ليسيه بناجلتى باسطنبول، لم يخبرني أبى أو أمي أيَّ شيء عن أحداث 1915 وفى يوم ما كنا نناقش أعمال الموسيقى الأرميني الشهير كومتاس في درس الفنون كان عمري حينها خمسة عشر عامًا وسألت المدرس لماذا قتل العديد من الأرمن البارزين في عام 1915؟ فطلب منى أن أذهب لمكتبه بعد الدرس وظن كل زملائي أنني في مأزق كبير ولكن عندما ذهبت قال لي "سأخبرك بأمر ما ولكن لا تخبر أحدًا على الإطلاق" وهنا فقط

بدأت أعلم عما حدث وعندما عدت للمنزل سألت والدتي عما حدث فلم تنطق حرفًا واحدًا بل أخذتني من يدي لرجل عجوز كان يعمل في مقابر الأرمن بسيسلى فأخبرني كل شيء ، وهنا قررت أنه في المستقبل ستتمكن الأجيال الجديدة من الحديث بحرية عما حدث. وعندما جئت هنا لارتياد الجامعة أستطعت أخيرًا أن أتكلم بحرية عن القضية"

"إذن ، متى أخبرت أبناءَك عما حدث"

"لقد أخبرتهم في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ولكنني أخبرتهم أيضًا أن ما حدث لا يجب أن يكون السبب في كراهيه كل الأتراك"

سألته بابتسامة خفيفة "وهل هذا ممكن يا سيد جوفجيان"

"نحن لا نعلم الكراهية، نحن ببساطة نحترم التقاليد وهى تملى علينا ما نفعل" وبدأت تبدو عليه مشاعر غريبة، فكرر بنفس العبارة مرة أخرى

"إنها ليست أزمة بين الأتراك والأرمن، إنها مسالة سياسية"

***

"نحن لم نعلمك أيًّا من الأغاني الوطنية ولم نحفظك أية قصيدة ثورية "

هذا ما قالته لي وأنا في مرحلة الكبر، أحسست أنها تشاركني بأسرارها حول تربية الصغار بطريقة جيدة مع أطفالها. "البعض يعلم أطفالهم هذه الأشياء ولكن كان يبدو ذلك دائما أمرًا سخيفًا بالنسبة لي

أنا وأخي دائمًا ما كنا مختلفين لقد ولدنا في أحضان أسرة يسارية بعد الانقلاب فلم نتعلم الأغاني ولا القصائد ولا الشعارات"

" نحن رجال الدرك

نحن الاشتراكيون

نحن أصدقاؤك الوحيدون "

كانت الشعارات والأغاني مصممة كلعب الأطفال لتخفيف الحزن في انتظار ثورة لم تأتِ أبدا.

العيون مثبتة في الأفق والناس تظهر مهاراتها وهى معتزة بشدة بما حفظوه عن ظهر قلب خلال التنشئة

الأول من مايو، الأول من مايو عيد العمال والبروليتاريا! لم نهتم أنا وأخي بهذه الأمور، بل كنا نمضى الوقت بالساعات في المكتبة للقراءة. "لى لى لى لينين ... ترو ترو ترو ... تروتسكى "

على الأطفال تعلم القراءة فقط، أما هذه الكتب غير القابلة للتحقيق فهى خاصة بالبالغين ويجب الإبقاء على معرفة هذه الأصنام الفكرية لمرحلة متأخرة في الحياة.

فهذه المعلومات لا تخص إلا البالغين ولا حاجة أبدًا لمعرفتها الآن، ربما لاحقًا عندما لا يستطيع الراشدون إجابة أسئلتك وتضطر للبحث في الموسوعات المعلوماتية قد تبدو تلك المعلومات الموجود في المجلدات مناسبة للبحث والتنقيب .

لم يكن أحد يرغب في قراءة تلك الكتب ولا حتى أبي أو أمي، ولم يخبرنا أحد عما حدث في انقلاب(10) 1980 ولكن حتى لو لم يخبروك فإن نظرات الرعب في عيونهم عند متابعة إطلاق الرصاص على التلفاز في بعض الأحيان قد يقفز أبي أو أمي من الرعب عند اطلاق النار على أحدهم وفى أحيان أخرى تعرف أن المقتول لا ينتمي لنا، لا احد يشرح شيئًا، ولكن لو انتبهت جيدًا لاستطعت تمييز الأشخاص الذين يطلق علىهم "هم" والأشخاص الذين يطلق عليهم "نحن" ولعرفت أننا نحن الطيبون وهم يجب أن يكونوا الأشرار هم الذين يقتلون رجالاً ونساء يشبهون أباك وأمك.

في صباح الباكر لليوم التالى للانقلاب فتاة صغيرة تبلغ من العمر ثمانية أعوام

فهمت معنى عبارة "ضوء الفجر الأول" وفهمت أن الشر اجتاح المدينة وأن عليها أن تكبر سريعًا لإنقاذ المدينة، بينما يحتضن أبواها بعضهما البعض وهما يستمعان للراديو للحصول على بعض القوة ويطوف حولهم دخان السجائر وأقداح الراكي.

***

حول أقداح الراكي على مائدة في الحرم الجامعي يجلس مجموعة من الرفاق الذين ترعرعوا بنفس الطريقة التي نشأت عليها وكنا نغنى الأغاني الفلكلورية التي ترثي الثوار ترثى الرجال والنساء مثل أبيك وأمك ، أنت حزين وهم حزانى على لحن تلك الأغاني الفلكلورية يتجمع الشباب اليساري. لقد قتل التطور.لماذا ؟ لأن الشباب قد قتلوا؟ هل هذا هو السبب ؟

لأن أهل بلادك قد قتلوا بفاشية؟ هل هذا هو السبب؟

لأن أناسًا مثل والدك ووالدتك قد هزموا؟ هل هذا هو السبب؟

بينما تجلس على نفس الطاولة مع الآخرين في حالة حداد لا تستطيع أن تجزم أن الجميع حزانى لنفس السبب. هناك كثير من الأسباب التي قد تؤثر في الحزن، هنالك العوامل التي شكلت شخصيتك في فترة الطفولة والأمور التي أدركتها ولاحظتها مبكرًا وهنالك ما تعلمته عن الخير والشر والفرق بينهما. كل هذا قد يشكل ما بداخلك بدون الحاجة للكلمات وبدون الحاجة إلى أن تكبر وتقرأ تلك الكتب الضخمة، وبعدها بكثير تجد نفسك تبكى، ليس لأن شخصًا قد مات وليس لأن مجموعة أشخاص قد قتلوا على يد مجموعة أخرى ولكن لأن الشر انتصر على الخير. انتصر على مفهومك للخير ومعنى هذا أنك أنت نفسك قد هزمت.

ولكن من علمك كل هذا؟ من أخبرك أنك يجب أنا تدافع عن الخير دائمًا؟

عندما تبدأ في المشاركة بالتظاهرات الجامعية تشعر أنك مرتبط بآبائك وتدافع عن الخير مثلما فعلوا، هذا هو واجبك تجاه أبيك وأمك وتجاه الحق والصواب، والآن وإن حاولوا أنفسهم إثناءَك عن الخروج في مظاهرة بمكالمة تليفونية من مدينة بعيدة لذهبت كل محاولاتهم دون جدوى لأنك تشعر أنك منحاز للصواب ولا يمكن أبدًا أن تنحاز للشر، هذا بالضبط ما يعنيه الانتماء الى العائلة

***

في ساعات الفجر الأولى على دخان السجائر وأقداح الراكي تتذكر جدك الذي لم تعرفه أبدًا ، جدك الذي اضطر لترك بلاده هربًا لأنه أرميني مثلك تمامًا، تجلس حزينًا لأنك تتذكر كيف كان العجائز يتحدثون عن أيام الماضي الجميلة في بلادهم الأم. وكيف أُجبروا على تركها وترى أمك تبكى لأنها طيبة وبعض الأشرار أجبروها على الرحيل، وهكذا يكبر الأطفال آملين إنقاذ آبائهم مرة من "الأتراك المرعبين" ومرة من "الفاشية" ينقذوهم دائمًا من "الشر" أيًّا كان نوعُه

إن الأطفال يتعلمون من أمهاتهم ما يجب أنا يفعلوه، وبنفس الطريقة التي أكتب بها مقالاً لمعاقبة جناة على جريمة لم أشاهدها، يطالبون هم البرلمان الفرنسي بإصدار قانون لحماية آبائهم وأجدادهم ويصرخون في الشوارع كلَّ عام في الرابع والعشرين من إبريل وفى كل مرة يستشعرون "الخير" في أنفسهم و"الشر" في أعدائهم.

لذا فان الأفضل من إقرار القوانين والضغط على الحكومات واتباع سياسات المعارضة أن نفتح حوارا أعمق من هذا، بحيث ندفع الأرمن الذين مازالوا يعيشون على أرض الأجداد في شرق تركيا أن يتذكروا ما حدث لهم بطريقة معينة، ولا ندفعهم إلى النسيان وأن ندفع بقية الأرمن لعدم "تذكر" فقط ما يجعلهم يبكون على أرض لم يروها من قبل، وعندها فقط ربما نستطيع أن نحصل على فهم أفضل لحاضرنا ونستطيع أن نحدد شكلا أكثر صوابا لكل من "الخير" و"الشر"

***

"لقد رحل معظم أفراد جيلي بسبب أحداث السادس والسابع من سبتمبر، وإلا ما كنا تركنا بلادنا المبهجة. حتى أكون عادلاً يجب أنا أخبرك أن أحداث عام 1915 تبدو بعيدة جدًا بالنسبة لنا. ولكن لقد كان الهجوم المفاجئ علينا عام 1955 في اسطنبول لمدة يومين كاملين صدمةً عنيفة"(11)

كنا بالقرب من نهاية المقابلة عندما أخبرني فاروجيان سريبان الرجل الذي يبلغ منتصف العمر ويجلس أمامي في المقهى وهو يتحدث في تفاصيل سياسة. ولا يبدو عليه إطلاقًا أي نوع من الانفعالات ويبدو من لهجته أنه لا يفضل التحدث في الأمور الشخصية، لكنه كان خريجَ جامعةِ روبرت في اسطنبول وصل إلى باريس في سن الخامسة والعشرين وانخرط في العمل السياسي مع شيراك في اتحاد الحركة الشعبية عام 1976 وفى حركة "السياسيين الأرمن" عام 1994 واستمر على نهج الحزب الديمقراطي الليبرالي الأرميني "رامجافار" الحزب الذي أسس في أرمينيا وبين المهاجرين الأرمن، ليصبح رئيسا للحزب منذ عام 1995 وحتى 2005 ومديرا لمعهد شوبنيان الذي أسسه في 2004.

"ولد شوبنيان في بشكتاش، باسطنبول، عام 1870. وفي الثامنةِ من عمرهِ أو التاسعةِ بدأ الترجمة من الفرنسية. أرسلته اللجنة الأرمينية التي شكلت ردًّا على ذبح الأرمن من قبل كتائب الحميدية عام 1895 إلى باريس لشرح ما كان يحدث في الأناضول ويحدث المثقفين الفرنسيين وتوفى بباريس عام 1954 وقد أنشأنا هذا المعهد في الذكرى الخمسين لوفاته في نفس الوقت تقريبا التي أستأنفت فيه تركيا محادثات الانضمام مع الاتحاد الأوروبي. لقد أحسسنا أن الصحافة الفرنسية لا تعلم الكفاية عن القضية الأرمينية تمامًا كما كانوا في حياة شوبنيان الذي كتب أن الحكومة الفرنسية قد تجاهلت الخطابات التي وصلتها من سفيرها في اسطنبول ولذلك أنشأنا المعهد لكشف الوقائع التاريخية التي تم إخفاؤها أو تجاهلها"

ولهذا السبب انسحب هذا المواطن الذي يحمل الجنسية الفرنسية من السياسة العامة لينضم إلى "اللوبي الأرميني" وبدأ العمل في التأثير على الرأي العام حول أحداث 1915 وشأنه شأنَ كل من تورط بهذه القضية فهو غاضب من الأتراك ولكنه في نفس الوقت يحاول أن يفهم الأتراك.

"إنه من الطبيعي ألا يعرف الأتراك أي شيء عن الموضوع وأن يشعروا بالصدمة حياله، ولكن الإنكار؟!..." ثم انغمس في الصمت. بدا وكأنه تذكر أنه لا يتحدث إلى مواطن فرنسي ولكن إلى مواطن تركي، وأدرك أنه يقدم تفسيرات للعالم الخارجى لا تصلح لإقناع شخصٍ متورطٍ في المشكلة

"أعرف كم هو صعب على الأتراك. صعبٌ نفسيًّا. أنا أعلم هذا"

وعندها، بدأ يخبرني بقصته، هذا ما كان يحدث معي دائمًا ،كل أرميني أتحدث معه كان يحدثني بطريقة توحي بأنه يحدث شخصًا فرنسيًّا، وفى لحظة ما، يحدث التحول، ويتحدث على طبيعته ويكون الأمرُ لافِتًا للنظر أكثر عندما يحدث هذا من شخص عاش في تركيا سابقًا

"لم أكن أعلم أي شيء حول معنى أن يكون الشخص أرمينيا حتى بلغت الخامسة والعشرين، عندها تعلمت، عندما قرأت أشياء كتبها الأرمن، ويجب أن أعترف أن أول كتاب قرأته لم يكن موضوعيًّا، واقتصر فقط على شرح معاناة الأرمن، ولكن لم يكن ما قرأت هو ما جعلني شديد الغضب، فأنا لم أكن أعرف أي شيء حتى أنهيت الدراسة الجامعية"

" لماذا لم تكن تعرف أي شيء"

"أتاتورك هو أفضل ما حدث في تركيا، ولكن للأسف لا يمكن انتقاده في تركيا. إنه مثل ديجول في فرنسا أعاد كتابة التاريخ، ولكن في فرنسا يمكن انتقاد ديجول.

الأتراك الجدد مرتبطون بأيدلوجية معينة، عندما كنت صغيرًا كنت أظن أن

مشكلة الأتراك هي الانقسامات الدينية، ولكن لاحقًا عرفت أن التعصب القومي هو أخطر مشاكل الأتراك على الإطلاق، وحاليا تشهد تركيا مخاطرَ توأمي التطرف: التطرف الديني والتطرف القومي"

إن حزب رامجافار(12) أكثرُ انفتاحًا على الحوار مع تركيا مما يدعى المشجعون القوميون، ولهذا سألت سرابيان "ما هي نسبة المهاجرين الأرمن التي لديها استعداد للحوار مع تركيا؟" فأجاب " حوالي خمسين بالمائة" ثم أضاف: ولكن يجب أن تكوني على حذر من استخدام كلمة "حوار" فهذه الكلمة لها معاني مختلفة في كل مكان، والفرق كبير بين معناها لدى الأرمن في أمريكا عنها في فرنسا، إنها لعبة صعبة، فعندما نتحدث مع مسئولي الدول التي نعيش فيها يجب أن نشرح لهم بالضبط ماذا نعنى بكلمة "حوار"".

لابد أنه أمر مرهق لشرح كل هذا بلغة أجنبية لأناس لا يعرفون أي شيء عن هذه القضية. لقد سألته أيضًا "ماذا تعنى بقولك أنها "لعبة صعبة؟"

"إنها لعبة سياسية بالطبع، أنظري لتركيا والاتحاد الأوروبي كمثال، الاتحاد الأوروبي يعارض دخول تركيا نظرًا للديانة، ولكنه لا يستطيع أن يصرح بهذا، فيتخذ الأرمن كذريعة للمنع، وهذا شكل من النفاق، هناك ثلاثة مباريات مختلفة داخل نفس اللعبة، مباراة أوروبا ضد تركيا، ومباراة أوروبا ضد شعبها وضد الأرمن، ومباراة تركيا ضد شعبها"

قالها وانتظر أن أدون ملاحظة، ثم ابتسم قائلاً فجأة "أيها المواطن تحدث التركية" وتفحص وجهي ليعرف إن كنت قد فهمت مراده، وكنت بالفعل قد فهمته.

نعم أنا اتذكر قراءة هذا الشعار القومى، لقد كان ممنوعًا علينا حتى كلمه "ماما(13)"

للحظات لم يتكلم أي منا، وكانت تعبيرات غريبة ترتسم على وجهه وكأنه

يحاول الخروج من حياته الشخصية ويحاول العودة مرة أخرى إلى السياسة، ثم قال إن شعارنا نحن الارمن "النسيان خيانة" وكرر كلمة "خيانة"

***

إن التفاعل بين الحياة الشخصية والميول السياسية يؤدى لمشاكل عديدة. ولعل كلمة واحدة تنقلنا من الحديث في السياسة للحديث عن الحياة الشخصية ثم العودة مرة أخرى لأجواء السياسة. إن وجهًا محبًا أو كلمه رقيقة قد تعيدنا للزمن الذي كنا فيه نتعلم الفرق بين "الخير" و "الشر" ولكن خوفنا من أن نضعف، يعيدنا مرة أخرى للمجال السياسي، للقوانين الصارمة والسريعة الخاصة "باللعبة الصعبة" أما بالنسبة لمعرفه حقيقة "الخير" و"الشر" فيجب على المهاجر الأرميني أن ينتظر ليوم آخر حتى يبحث عنها.

10- انقلاب 12 عسكري قام في سبتمبر 1980 ، حيث اعتقل خلاله مئات الآلاف الذين أدين نحو 250 ألفًا منهم، وعوقب 50 بالإعدام، كما توفي العشرات في السجن جراء التعذيب، وقد اضطر أيضًا عشرات آلاف الأتراك إلى الهجرة

11- هي أعمال شغب كانت بالدرجة الأولى ضد الأقلية اليونانية في اسطنبول يوم 06-07 سبتمبر 1955. ودبرت أعمال شغب من قِبل مجموعة من الجيش التركي، في مقر فرع عملية غلاديو التركية، ومن قبل مكافحة حرب العصابات. وقد إندلعت أحداث شغب بعد أنباء تفيد بأن القنصلية التركية في مدينة سالونيك شمال اليونان والبيت الذي ولد فيه مصطفى كمال أتاتورك في عام 1881، كان قد قصف في اليوم السابق. [1] وبعد ذلك تبين أنا القنبلة زرعت من قبل الحاجب التركي في القنصلية،والذي ألقي القبض في وقت لاحق، واعترف فيما بعد أنه قد حرض على عمل ذلك. نقلت الصحافة التركية الأخبار حول شائعة قصف بيت أتاتورك في حين بقيت صامتة عن اعتقال الحاجب وبدلًا من ذلك لمحت إلى أنا اليونانيون قد فجروا القنبلة. وقدرت قيمة الاضرار بنحو 50 مليون دولار أي ما

قيمته الآن نحو 400 مليون دولار. وأغلب الهجمات كانت ضد أهداف يملكها يونانيون لكن نحو ثلث الهجمات استهدف ممتلكات الأرمنواليهود. وتم اعتقال أكثر من 5,000 شخص تمت تبرئة أغلبهم في وقت لاحق.

12- الحزب الديمقراطي الليبرالي الأرميني وهو من أوائل الأحزاب الأرمينية التي أنشئت في عهد الإمبراطورية العثمانية.

13- «أيها المواطن تحدث التركية» حملة أطلقت في الفترة بين 1920 و 1930 لتشجيع اللغة التركية عن طريق منع غير الأتراك الحديث في العلن بأية لغة غير التركية.

الفصل الثانى عشر : الخير ضد الشر

"لا لا... أنا لم أقل أي شيء من هذا القبيل "

في الحقيقة كنت أود أن أسأله عدة مرات حول إمكانية نشر حديثه

قلت له "لا أريدك أن تغضب في حالة نشر حديثك" ولكن على الرغم من ذلك أحس بضيق شديد عندما نشرت الجريدة الحوار الذي أجراه في باريس. أرسلت له خطابًا لأسأله ما هو الجزء الذي أزعجه في الحوار ولكنه لم يرد على الخطاب، والسبب في امتناعه عن الرد هو أنني نشرت ما قاله بالضبط على صفحات الجريدة. كنت قررت ألا اكشف هوية الشخص الذي تناوله الحوار ولكن الحوار كان انتشر في كل مكان.

أشك في أن السبب الحقيقي لغضبه هو أنه أدرك رؤيته للخير والشر؛ قد تغيرت عند مرحلة معينة ولكنه بعناد شديد حافظ على الرؤية القديمة أثناء الحوار والأسوأ من هذا أنه لم يكن يرغب أن يكشف كل هذا لصحفية "تركية." لقد قال أشياء لم يكن ينبغي أن تقال للأتراك، إنه غاضب لأنه شارك أحزان وطنه الأم مع "الأشرار"، ونشر تلك "الخيانة" في جريدة موثقة قد زاد من حدة رد فعله الإنساني الغاضب، وانتهى بانكسار كل شيء والتنصل من الحديث والسيِّئ في الموضوع أنه أجرى الحديث بشهادة يورتاش وإيزابيل المترجمة.

***

في يوم خريف فرنسي منعش يجلس بعض الشباب في حديقة المقهى يحتسون الخمر ويتبادلون عبارات الغزل، بينما على طاولتنا يوجد بعض مظاهر التوتر بطبيعة الحال. نحن نناقش القضية الأرمينية مرة أخرى ويجلس معنا مثقف أرميني يقول إنه يشجع الحوار، ولم يتردد في إضافة. "لقد هدد الترك الأرمن كأنهم كلاب" كان يعلم أنني كصحف سأنقله كلامه للأتراك فحاول أن يجعل نبرته لاذعة بالرغم من تظاهره بالموضوعية.

"معظم الأرمن لديهم مثل هذا السلوك، فهم لا يفرقون بين الحكومة التركية والشعب التركي، ولكن بالنسبة لي أنا لا أظن أن الشعب التركي في حالة إنكار، ولكن الحكومة تنكر بالتأكيد وهناك متطرفون من كلا الجانبين، الشتات الأرميني والأتراك، لكن أكثر ما يحزنني أن أغلب الكتب حول هذا الموضوع لا تقرأ في تركيا، لو قرأ الناس أكثر لتغيرت وجهات نظرهم. أنا لا أفضل الحجر على حرية التعبير وأعتبر المثقفين الأتراك المتعاطفين معنا كأخوة لي ولكن هناك عديد من الحواجز على كلا الجانبين. إنني أتفهم حالة الإنكار التركية ؛ فقد ظلوا لعدة أجيال على روايات زائفة، ولكننا ما زلنا نحمل آثار الندوب منذ عام1915، عندما قتلونا وعاملونا كالكلاب"

"إذن ، ما هي الحواجز التي تعيق الأرمن؟"

"عندما أخبرونا عن المذبحة كان الحديث محملاً بالكراهية، ربما لأن أجدادنا الأوائل قد شهدوا الأمر بأنفسهم، وظل هذا الشعور حتى بين الشباب الذين لم يطئوا أرض تركيا، ولكن بالنسبة لي فالأمر مختلف، فقد زرت تركيا منذ خمس سنوات وتجولت في كل أنحائها"

أشرت إليه "أنت لم تقل تطهير عرقي. أنت قلت مذبحة؟" فأضفت "ذلك لا يصنع فارقًا على الإطلاق، ولكن تلك العبارة بالتحديد هي التي صنعت كل تلك الجلبة"

فاستمر في نفى وجود فرق حقيقي بين التعبيرين وأضاف "لقد صيغ هذا المصطلح بعدها بسنوات عديدة، ولكن نية الأتراك الحقيقة في إبادة الأرمن تحت ستار عملية التهجير هو أمر لا جدال فيه"

فأخبرته أن مثل هذه الكلمات هي المسئولة عن خلق الحواجز. "لكل طرف حكاياته الخاصة، فمثلاً في تلك الفترة كان فى الأتراك من يحاول حماية الأرمن، ولكن لا نعرف الكثير عن هؤلاء، ربما لو عرفنا التاريخ بشكل كامل

لتوازنت حكايات بعضنا البعض". سألته هل من الممكن فعلاً توازنُ الحوار والحكايات بين الطرفين؟" فأجاب: "إنه موقف صعب، فبعض الأرمن غيرُ مستعدين للحوار على الإطلاق، والبعض الآخر على استعداد لاستخدام لغة معتدلة للتحاور. في النهاية الأتراك والأرمن في قارب واحد، ولكن الأتراك يعيشون كذبة كبيرة وعليهم في النهاية أن يتحملوا عواقبها عندما تنكشف. كما ترين فإن الأتراك يريدون أن ينضموا لأوربا ولكن هذا لن يحدث حتى تحل القضية الأرمينية"

ولكنه لا يتفق مع القانون الفرنسي، بل قد يزيد الأمر سوءًا

"بعض القوانين قد يكون لها مردودٌ سيِّئٌ ولكن العقاب على أية جريمة هو أمر لا مفر منه. وعلينا نحن ،الأرمن المغتربين، أن ندعم هذا القانون، فبعض الأتراك قد تجاوزا الحد المسموح به في حرية التعبير ونحن الأرمن لا نسمح بهذا"

"لكن معظم الأرمن المقيمين في تركيا يعارضون مثل هذا القانون، فما رأيك في هذا؟"

"إنني أتفهم موقف الأرمن في تركيا، ولكن في نفس الوقت لم أقابل أرمينيا واحدًا في فرنسا معارضًا لهذا القانون. لقد كنا نبحث عن الاحترام لمدة واحد وتسعين عاماً، وهى مدة طويلة، أنا الآن في السادسة والأربعين من عمري، أاعمل في القضية منذ أن كنت في الثامنة عشرة، أنا أعيش في أجواء التطهير العرقي منذ كنت في الثامنة عشرة وكنت أيضًا عضوًا في تنظيمات أرمينية متطرفة، ولكنى تعلمت الدرس جيدًا.

"إنني أعلم أن الأتراك يلومون التنظيمات الأرمينية على حدوث المذبحة، ولكني غير متفق مع الحقيقة، كل أرميني يمثل تنظيمًا مستقلاً بنفسه، إن كل شخص هو تنظيم من رجل واحد" فسألته: "ما الذي يجعل كل أرميني تنظيمًا مستقلاً بنفسه؟ هل يمكن أن تفصح بشكل أعمق عما تقصد بهذه العبارة"

أخذ يفكر في سؤالي لدقائق، وعندما شرع في الحديث كان يتلعثم ويتوقف كثيرًا مما يعنى أننا نطأ أرضًا جديدة غير ممهدة.

"ألفت الكثير من الكتب حول المنفى، وبدأت بكتابة القصائد وأنا في سن العشرين من عمري، ورغم أنني ولدت في فرنسا، فقد أثر على نفى عائلة والدتي وشق طريقه لعقلي الباطن، هذا ما جعلني لا أشعر أنني فرنسي ولم أشعر كذلك أنني أنتمي لأرمينيا عندما ذهبت إلى هناك، لا أشعر أن إحساس الغربة يمكن أن يتركني، لقد أصبحت مثل المشردين الذين لا يملكون منزلاً في أي مكان بالعالم، تماما كما علمتني أمي"

لم ينتظر أن أسأله سؤالاً إضافيًا بل سكت للحظة ثم أضاف وكأنه يتحدث إلى نفسه: "كانت أمي تجلس ليلاً في الشرفة مع عائلتها لتتحدث عن قريتها التي هجرتها وكان معها أناس آخرون من الذين أجبروا كأطفال على ترك قراهم. كانوا يتحدثون عن قراهم وكأنها كانت مثالية، وبعد فترة أحسوا وكأنهم قد طردوا من الجنة. وبهذه الطريقة تحولت الأراضي الأرمينية القديمة لقصة أسطورية، ربما غير واقعية بالنسبة لي ولكنها أحلام بالنسبة لجيلى ، ونحن جيل الأحلام على كل حال"

"إذن ، أنت تطارد الأحلام" لم أَقُلْ غيرَ هذا. "في الماضي كانت أمهاتنا تحدثنا عن أراضٍ أسطورية، وعندما ذهبنا إلى تركيا وشاهدنا تلك الأراضي لم نجدها كذلك. لقد حرمت أمهاتنا من طفولتهن وكرسن حياتهن في سبيل خرافة. لهذا وبصراحة شديدة، أشعر أن الأرمن يملكون قدرًا من الجنون؛ لأنهم يؤمنون بأفكار غريبة ولا يشعرون بالانتماء للأراضي التي ولدوا عليها"

فقلت "لاعتماد أمهاتكم على ذكريات الطفولة كان لا بد أن يصبح وصف تلك الأراضي مشوشاً، كأى طفل يسترجع ذكريات طفولته، الغريب في الأمر أن يبنى جيلاً كاملاً تصوراته على ذكريات طفولة آبائه وأجداده، ويسمح لتلك الذكريات الطفولية أن تشكل حياته وحياة أبنائه"

فرد قائلاً "إن طفلتهم الضائعة قد طمست معها طفولتي أيضًا، لم يكن من الممكن أن نعيش وقد طغت حكاياتهم علينا. بالطبع أنا لم أُخبر أبنائي عن أحداث 1915، حتى لا يخوضوا نفس المعاناة، ولكن أمي وجدتي قد اخبروهم وقد أصبحوا الآن يعرفون"

لقد بدء هذا الحوار بشكل طبيعي ولم أكن أتصور أن يصبح بهذا العمق، حتى بدا في النهاية أنه يستمع للكلمات التي تخرج من فمه، ويشاهد الكلمات وهى تتدفق من أعماقه، وكأن الكلمات تمتلك خفة يد الساحر، فكلمه تقود إلى أخرى وتعبير يؤدى إلى تعبير، لم يكن محددًا إلى أين ستقوده كلماته، إلى طفولة أمه أم إلى طفولته هو. الطفولة التى فقدها جيل فألتهم طفولة الأجيال التى لحقته.

وهكذا كأن أراضي الغربة بالنسبة للأرمن "أرض الطفولة المفقودة" ولهذا يتكلم كل الأرمن المغتربين بطريقة واحدة نابعة من معاناة الطفولة.

مررت في جميع المقابلات التي أجريتها مع الأرمن في باريس بالعديد من القصص التي سمعوها في الصغر، والتي أصبحت بعد ذلك جزءًا من طفولتهم المؤلمة.

كان المغتربون الأرمن مجموعة من الأطفال الذين يحاولون إنقاذ طفولة آبائهم المسروقة، وكان هذا سبب كل الغضب المتصاعد في الأرجاء، حيث يجد كل منهم نفسه ملقى في الحلبة ومستلاً سيفَهُ في حالة دفاعية. إن معاناة الأطفال تكون هائلة لأن الأطفال بلا حيلة. لعل هذا هو السبب الذي يجعلني أسمع دائمًا من الأرمن عبارة مثل "إن الأتراك أقوياء جدًا ونحن الأرمن ضعفاء"

ربما كان هذا هو السبب في أن آلامهم -مهما كبروا في السن- يعبرون عنها بطريقة طفولية. لكن السؤال الحقيقي هو: لماذا يصر الناس على نقل آلامهم للأطفال؟ لماذا ينقلون هذه القصص المؤلمة من جيل لجيل؟

***

"لقد أخذوني ودسوا سلكًا معدنيًا في أذني، وبعدها لم أعد أستطيع السمع"

ضحك طبيب السجن وقال"هذا كفيل بتوسعتها"

"أنا غاضبةٌ منذ هذا الوقت وأذني توقفت عن السمع تماما منذ أن سجنت"

لابد أنني كنت في المرحلة الابتدائية عندما أخبرتني أمي عن القبض عليها كسجين سياسي في عام 1971 قبل ولادتي بعامين. لا زلت أتذكر كل تفاصيل القصة لحظة بلحظة وكلمة بكلمة، كم كانت جميلة، وماذا كانت ترتدي وكيف أحسست بالحرج عندما كشفت الجيب عن ركبتيها أثناء التحقيقات. ما هو لون عيون الضابط الذي حقق معها.

كبرت وأنا أخشى أن يحدث معي شيء مماثل، وأنا أعلم أنه سيحدث معي شيء مماثل.

وكنت أهتم بالقضايا السياسية استعدادًا لأن يحدث هذا، ربما أكون أنا أيضًا طفلة تشعر بالفقد مثل الأرمن وغيرهم الكثيرين. ولكن أمي لماذا أخبرتني كل هذا وأنا مازلت في سن صغيرة؟ ألم تدرك كم كنت صغيرة جدًا؟ ألم تدرك أن ظلال قصتها ستبقى في مخيلتي لوقت طويل جدا؟

إن الضحايا يشفون عبر الحكي عن آلامهم، إن فعل الحكي يخفف كثيرًا من الآلام، والمشاركة والاستماع المحب غير المشروط هي خير دواء. إن أطفالنا هم الحليف الأقدر على مساعدتنا في التغلب على الشعور بالوحدة. نحن نطلقهم إلى المستقبل كزجاجة تحمل أحلامنا وآمالنا وتوقعاتنا المستقبلية التي لم نستطيع تحقيقها، وكأنهم نسخة "منا" تحاول أن تحقق ما فشلنا فيه وتصل لغد خاص بنا نحن.

إن ذلك رد فعل إنساني وغريزي خالص للبقاء، ولكن ينتج عنه إعادة إنتاج الألم

مرة أخرى، ولهذا نستمر في إخبار أطفالنا بقصص مؤلمة من جيل إلى جيل قصص التهمت طفولتنا وبددت طفولتهم

***

كنا أنا ويارتس وإيزابيل نتجول بمتحف اللوفر. في المتاحف نحن نحفظ ونعرض كل ما هو عريق وثمين في ماضينا، ولكن أين تكمن مخلفات التاريخ البشرى وذكريات الألم الجماعي؟ هل يمكن أن تكون أطفالنا؟ هل يمكن لملايين الأرواح المعذبة التي لا تعرض في المتاحف أن تسكن في أطفالنا لتحافظ على آلامها طازجة تحت جلودهم الرقيقة؟

الأطفال دائما ما يعانون لأنهم يشعرون أنهم لاقوا من المعاناة ما فيه الكفاية. الأطفال دائما يعانون لأنهم يسمعون نفس الفظائع التي حدثت من قبل ولا يدركون أنها قد تكون السبب في تحطيمهم وأنها أشياء ليست بجديدة.

***

قالت إيزابيل وهى تطلب سيجارة "إن لدى ما أقوله بشان عدم معارضة أي أرميني لقانون تجريم إنكار الإبادة الجماعية للأرمن"

وأشعلت سيجارتها كامرأة وقور في أوائل الأربعينات"

"ولدى ما هو أكثر من هذا، إنهم جميعًا يجلدون أنفسهم غضبًا وهم يتحدثون عن تركيا، وكأن تركيا هي الدولة الوحيدة التي تحاول كتم أصواتنا، لا اعلم كيف نسوا ما حدث هنا في فرنسا، لقد نسوا أنه في فرنسا قد تم تقييد الشباب الأرميني وحمله لخارج الكنائس لأنهم كانوا يحملون شعارات تخص الإبادة الجماعية"

وبدا يظهر عليها الحزن، لقد كانت صامتة تماما طوال المقابلة مع آرا تورانيان، صامتة عندما أخبرتها عن جوفجيان وصامتة خلال المقابلة الأخيرة التي

طالت كثيرًا ولكنها تتحدث الآن "كصوت بديل" للمغتربين. "لقد كانوا يمنعوننا عن التحدث عن الإبادة الجماعية هنا في فرنسا ولم يستطع أي واحد أن يتكلم في هذا الموضوع خلال فترة السبعينات، حاول بعض الشباب توزيع ملصقات لإحياء ذكرى الرابع والعشرين من ابريل، فقيَّدهم البوليس الفرنسي وقبض عليهم والآن لسبب غير معلوم تسبب هذا القانون في أن ينسى الجميع كل شيء عما حدث. ربما الآن لا يقيدون حرية التعبير ولكنهم فى الماضى كانوا لا ينشرون أبدًا ما نكتبه حول الإبادة الجماعية ، ولا يستمعون لنا أن تحدثنا عنها"

هدأت إيزابيل قليلاً، ولكنها مازالت تردد "إن غضب الأرمن المغتربين غير موجه لتركيا وحدها لكنه موجه أيضًا لفرنسا، حتى تلك البلاد التي هاجرنا إليها وعشنا فيها، لا أحد يستمع إلينا ولكن لم يعد يتحدث عن هذا الآن بالخصوص، وكأن السياسة الخارجية التركية هي السبب الوحيد في عزلتنا وإسكاتنا"

كانت إيزابيل محملة بالمشاعر وهى تستطرد "يجب فضح هذه الحقائق يجب على الأرمن أن يتذكروا ماذا حدث لهم في هذه البلاد التي استوطنوها"

أرى كم أصبحت إيزابيل غاضبة مما تدعونه الذاكرة الانتقائية وتحريف التاريخ

إن عملية التذكر ليست فقط الإبحار في الماضي لاسترجاع المعلومات، ولكنه عملية ترتيب وفرز للمعلومات حتى تساعدنا في الوصول للمستقبل، التذكر هو عملية اختيار المعلومات التي سنتجاهلها وننساها مع الوقت.

مما قالته لي إيزابيل فإن التذكر من أجل النسيان هو عملية يقوم بها الأرمن وكذلك الاتراك، ألقت إيزابيل سيجارتها على الرصيف وأطلقت تحذيرًا مشتعلاً بخصوص اليوم التالي "يجب أن تأخذي حذرك، فأنت على وشك مقابلة أكثر الشخصيات الأرمينية سحرًا وتأثيرًا على الإطلاق. أنا لا أتمنى أن أكون في مكانك"

لم تكن إيزابيل هي الوحيدة التي حذرتني من المقابلة "المرعبة" التي أنا على

وشك إجرائها في اليوم التالي، الآن أنا ويورتاش أمامنا الليل بطوله، ولا يوجد لدينا الرغبة في إجراء أية مقابلات أخرى، انه وقت المرح.

يورتاش مهووس بالصور التذكارية، ولذلك يلتقط الكثيرَ من الصور في أنحاء باريس، و يتساءل "ما الذي أستطيع أن اتركه لأحفادي؟ إنها صوري بالطبع"

ويريني الصور التي التقطناها لأنفسنا حتى نختار أفضلها لنعرضها على الآخرين

هذه صورتي أمام جان دارك وهذا يورتاش وفى الخلفية برج إيفل. تختلف هذه الصور كثيرًا عن الصور التي يعرضها الأتراك للأرمن الذين يعيشون في باريس كأعداء تركيا من الأثرياء الذين يقطنون في أوربا ويقومون بالتخطيط لعرقلة تركيا والإساءة إليها.

هل هنالك طريقة لكي أمزق هذه الصورة وأريهم صورة أخرى بجوانب أخرى حتى يعرفوا أن للحقيقة عديد من وجهات النظر المتشابكة؟ هل سيدرك أحد أن رحلة إلى باريس لم تكن بالبساطة التي توحي بها تلك الصور.

ربما كان هذا هو الغرض الحقيقي من التقاط تلك الصور، لتبسيط الذكريات، لنرى كل شيء من منظور واحد بسيط، ربما كان هذا هو الأفضل للجميع، ربما وجب علينا أيضًا أن نبسط الحقائق حتى تتلاءم مع بساطة الصور.

الحقيقة أن معظم الناس يشعرون بالامتنان لمن يبسط الحقائق ولكن كيف يمكن طرح قضية معقدة لاستهلاك الجماهير، إن القضية الأرمينية قد بسطها كلا الطرفين، ولم يعد أحد يريد أن يعرف الحقيقة وراء المشهد بالرغم من انه مازال هناك بعض الطرق لمعرفتها.

"لقد حصلت على بعض المقتطفات من أعمالك" هذا ما قاله ازغور مومكو باحث الدكتوراه في القانون الدولي بجامعة السوربون. لقد تقابلنا أول مرة بعد المقابلة التي أجريتها مع إليكسي جوفجيان وأخبرته كم تصعب الكتابة عن

الأرمن المغتربين في فرنسا بعد كل ما رأيت وخصوصًا بعد كمية الدعاية التي نالتها سلسلة مقالاتي الأخيرة.

بدأت في إلقاء بعض الدعابات لتلطيف الجو. ربما حان الوقت لنجتمع جميعا حول المائدة ويبدأ كل منا بإخبار الآخرين قصصًا حول الأرمن المغتربين في فرنسا.

شرع يورتاش بإلقاء بعد الدعابات التي يرددها الناس في الشوارع وكنت في حالة ذهول من إيقاعها الصبياني "Madem ki Ermeni'sin, istemeden vermelisin!" والتي تعني تقريبًا "أنت أرميني فلا حق لك في شيء سواء قبلت بهذا أم لم تقبل". كنت أجلس متعجبة كيف يتعلم الأطفال الطاف مثل هذه العبارات السخيفة.

عندما حاول ازغور تلطيف الأجواء قائلاً "قرأت الفرسان الثلاثة وأنا في المرحلة الإعدادية وظللت بعدها لوقت طويل متصورًا أن دارتنجيان أرمني"

"غير معقول" "حسنًا أن دارتنجيان تترجم للتركية دارتنيان، كنت قد بدأت أسمع عن الإرهابيين الأرمن، فقد كانت في تلك الأيام (أسالا) نشطة جدًا فماذا كان يفترض بي أن أظن؟

ظننت أن الأرمن رجالٌ أشرار تنتهي أسماؤهم دائما ب "يان" لذلك دار تنيان هو أرميني مثلهم وكنت أشعر أننى يجب أن اكرهه مع أني كنت أحب هذه الشخصية، فظللت أبحث عن شيء خاطئ يتعلق به، لقد عانيت كثيرًا مع دارتينان كصبي تركي في مواجهة هذا الأرمينى غليظ القلب"

جلسنا نتحدث حول مدى سرعة استيعاب الأطفال لمفاهيم مثل "الخير" و"الشر"، كيف أن معلومة صغيرة جدًا قد تؤدى لاستنتاجات طائشة. أخبرنا ازغور قصة أخرى "لقد كنت خائفًا أن يحدث هذا"، "ما هو الشيء الذي خفت منه؟" "لقد كنت خائفا. كنت أشاهد التلفاز في منزل جدتي في أحد الأيام وكان

مذيع الأخبار يتحدث عن حادثة قتل شنيعة في أمريكا وعرضوا صورة القاتل، لقد كان شابًا من الهيبز طوال الشعر، قالت جدتي -يا لهؤلاء الهيبز إنهم يقتلون مجددا - لقد كنت خائفًا لأيام أن يسعى الهيبز في أثري"

ضحكنا جميعًا ونحن نتخيل صورة الفتى ازغور وهو مرعوب من السفاح الهيبز وهو يستعد ليقاتل دارتنيان الإرهابي الأرميني.

من يعلم ماذا سنجد عندما نحفر بعمق في ذكريات الطفولة، ولكن لا وقت لذلك الآن، فإن لدي تلك المقابلة "المرعبة" في الصباح الباكر. حتى ازغور الذي لا يفوت فرصة للمرح خذرني قائلاً "لا بد أن تَحَسَّسِي خطواتك، فأنت على موعد لمقابلة سيد البلاغة في السياسة الفرنسية."

الفصل الثالث عشر: لقد سئمت من العيش مع الجثث

"بندول فوكو(14) هنا، أليس كذلك؟"

أبدى يورتاش اهتمامًا مفاجئًا بالمواضيع الفكرية. ولسبب ما اضطررنا للوقوف فجأة لبرهة عند مبنى البانثيون(15). كان مصممًا على معرفة كيف يعمل البندول، وبينما هو منشغل بهذا الأمر، قررت أن ألقي نظرة على الجداريات المعلقة على الحائط، وبخاصة لوحة ذلك الأمير الأشقر الذي يقف مقابلا لخيمة شرقية ويبدو من تعبيراته أنه متفاجئ. أنا أعرف هذا التعبير، لقد رأيته ألف مرة من قبل، فهو يعبر عن الاستياء والتعجب الغربي من فوضى الشرقيين ووحشيتهم.

إنه إحساس بالاشمئزاز مختلط بمزيج من المشاعر الدقيقة والمركبة كالشعور بالاستياء والخوف من هجوم وشيك والاشمئزاز والعجب والوجوم وغيرها من المشاعر.

في كندا يظهر نفس التعبير على وجوه الأكاديميين الأمريكيين غير مشتغلين بالسياسة. عندما ألقى دعابة ويظهر على وجه رجل الأمن الألماني عندما يخبرني أنها ليست من مهام وظيفته أن يصرح بهذه المعلومة، عندما أسأله عن الطريق إلى دورة مياه السيدات.

وهو نفس الانطباع الذي يظهر بشكل ما على حارس العقار الانجليزي عندما أمنحه حفنة نقدية مليئة بالفكة وأنا في طريقي للخروج. إنها بالضبط نفس النظرة التي تتهم كل شرقي بالجهل والتعالي حتى ولو لم يصرح بذلك أحد.

هذه هي نفس الطريقة التي يتناول بها الغرب القضية الأرمينية التركية وكأنها عبء جديد يضاف لمآسي البشرية.

نحن نستجلب انتباههم؟ فهل يستمعون أصلاً للأتراك والأرمن؟ هل يقيمون

وزنًا لتلك الأحداث الدموية التي تمت في الماضي؟ هل يشعرون بحيرة وألم الذين تورطوا في هذه الأحداث وهل يشعرون بما يشعر به الأرمن عندما لا ينصت إليهم أحد، تمامًا كما لا ينصت أحد للأناضوليين؟

التقيت أنا وإيزابيل في مقر "حزب اتحاد الحركة الشعبية"، إنها منفعلة بسبب تلك "المقابلة المهمة" أكثر منى. قالت "إنه يتحدث الانجليزية، ولكنه ما زال يرغب أن أقوم بالترجمة".

باتريك ديفيدجيان "عين النسر" الأرمينية في المشهد السياسي الفرنسي، جَدُّهُ كان أرستقراطيًّا عثمانيًّا. فرنسي حتى النخاع ذو جذور ترجع لمحافظة العزيز في شرق تركيا, محامى الدفاع الشهير في قضية تنظيم (أسالا) , والمشهور بسمعته السيئة في تركيا كمهندس قانون "تجريم إنكار الإبادة الجماعية للأرمن" والذي تصل عقوبته للسجن، وأكثر المتحدثين عنه في وسائل الإعلام يقولون إنه في نظر الأتراك "الأرميني السيئ" الذي ساعد على تمرير القانون في التشريعات الفرنسية.

استقبلنا ديفيدجيان في مكتبه بترحاب مهذب وبابتسامة تشبه ابتسامات السياسيين ورجال الأعمال أو ما يطلق عليه "الوجه المحترف". إنها ابتسامة مقلقة؛ فهي تخفى أكثر مما تصرح. إنها مربكة ولكنها في النهاية ابتسامة.

الوجه المهني لديفيدجيان هو باريسي لا محالة، ولكن تبدو عليه بعض سمات بلاد أجداده

وما أن جلسنا حول طاولة الشطرنج السياسي حتى قمت بالخطوة الافتتاحية قائلة:

"ينزعج بعض الأرمن - الأتراك من هذا القانون. إنهم يعتبرون هذا القانون الذي صدر تحت ضغط الأرمن المغتربين سوف يغلق كل قنوات الاتصال، ويضحى بمصالح الأرمن الذين يعيشون في تركيا، كما أن مشروع القانون لم يلقَ ترحابًا

كبيرًا في أرمينيا أيضًا، فما تعليقك على هذا؟ هل توافق على أن مشروع هذا القانون يخدم فقط مصالح الأرمن المغتربين ويضحى بباقي المجتمعات الأرمينية؟"

"قبل عام مضى كنت ضد هذا القانون، لأنه يحد من حرية التعبير. ولكن مظاهرات القوميين الأتراك وسرقة النصب التذكار الأرميني في ليون أدت لأن أغير رأيي. إن تركيا تنتهج سياسة منظمة للإنكار، لقد تم تخريب التذكارات الأرمينية على يد الذئاب الرمادية، وقد أشارت الدبلوماسية التركية إلى أن هذه الهجمات كانت من قبل العامة وليس لهم يد فيها. إن أمننا وسلامتنا على المحك؛ فكيف نحمى أنفسنا في فرنسا ؟ لابد من غض البصر عن حرية التعبير"

"تقول إن حرية التعبير لم تعد من الأولويات ولكن مشروع هذا القانون كان يحتوى على تعديل أنت اقترحته ، ينص على إعفاء الدراسات العلمية من العقوبة القانونية، ولم يوافق عليه لعدم قدرتك على حشد أصوات كافية له في البرلمان"

"سوف أفعل كل ما باستطاعتي لضمان أن يصدر مجلس الشيوخ النسخة النهائية من القانون متضمنة هذا التعديل. إن حرية البحث العلمي حقٌّ مكفولٌ للجميع كما أن هذا سوف يوضح الفرق بين القانون الفرنسي وقانون العقوبات التركي المادة 301 كما تعلمين"

"نعم فقد كنت عارضت هذا القانون على عجالة مع آخرين في حينها. ولكن أنت تعمل بنفسك ولمدة طويلة على مشروع هذا القانون، ومن الواضح من الناحية العملية أن هذا التعديل لن يتم إضافته"

"لم يستغرق الأمر كل هذا الوقت، لقد لزمنا ثلاثة أعوام لنحصل على اعتراف فرنسا بحدوث المذبحة، ويمكننا أن ننتظر القانون لمدة مماثلة، فنحن على أية حال في حالة الانتظار منذ تسعين عاما"

"إنك تتحدث باستمرار بصيغة "نحن"، هل أنت متأكد أن المغتربين الأرمن على هذا القدر من التوافق؟ وهل الجميع يدعم هذا القانون بنفس القدر من الحماس؟"

" حتى إذا كنا مختلفين، فإن الأنشطة التعسفية للقومين الأتراك سوف تجمعهم على قلب رجل واحد". هذا إلى جانب أن تركيا التي تبدو متجانسة من الخارج، على قدر كبير من الاختلاف والتشتت، علاوة على أن موقف تركيا الرافض لفتح الحدود مع أرمنيا قد كشف حقيقتها تمامًا"

"أنت على حق، فإن هذه النقاط التي ذكرتها سوف تؤثر على الحوار المتبادل. ولكن ألا ترى كذلك أن مشروع القانون الذي طرحته سوف يؤدى لمزيد من التشدد في مسألة الحدود؟"

"لا أعتقد هذا، فأنا مقتنع أن تركيا لن تغير مواقفها إلا بالضغط المتواصل، ودعيني أخبرك مرة أخرى، نحن في حالة انتظار منذ تسعين عامًا."

"أتتفق معي أنك تعيش بصحبة الأشباح منذ تسعين عامًا؟"

"إنها صدمة كبيرة تمامًا كصدمة اليهود. في كل مرة أنظر فيها لأحفادي أتذكر الأطفال الذين تم قتلهم بلا هوادة، فقط لأنهم من الأرمن، لا يمكنك تحمل الحياة بهذا الألم بشكل يومي"

"ولكنك كنت تتعمد هذا حتى أصبح الألم جزءًا أساسيًا من حياتك اليومية - هل يمكن أن أسالك سؤالاً شخصيًا: ألم تشعر أبدًا بالسأم من هذا"؟!

"بالفعل أشعر بهذا كثيرًا، ولكنني لا أريد أن أحيا لقرن آخر وأنا أخبئ الجثث تحت سجادتي"

وفى هذه اللحظة ترقرقت الدموع في "عيون النسر"

ديفيدجيان، الرجل الذي عرف بالقوة والحسم، يجلس بالجانب المقابل لي

وعيناه مليئتان بالدموع. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية واحدة، وسرعان ما استعاد نظرته الحادة ووجهة المحترف ولكن كلانا كان يعلم مشاعره الحقيقية.

وبينما كان ديفيدجيان يرافقنا للباب شدد على سعادته بوجود أناس يدعمون أواصر الحوار، وأثني على دورنا المهم، فوقفت لابتسم قائلة له: "ولكن يا سيد ديفيدجيان، أنت من يجعل مهمتنا عسيرة"

ضحكنا ومضى كل منا في طريق مختلف، وسألت إيزابيل بما لها من خبرة صحفية" هل تعتقدين أن تلك الدموع كانت حقيقية؟"

فأجابت "ليس هناك ما يدعو للتظاهر". ولكنها كانت مندهشة أيضًا من مشهد دموع ديفيدجيان. بينما أنا لم أكن مندهشة على الإطلاق فلقد رأيت دموع العديد من الرجال والنساء الأشداء تنهمر عند التحدث عن 1915. إن ما يشغلني هو أمر واحد: "كيف يستطيع شخص ما أن يبكى أثناء مشاهدة مباراة، ولكنها ليست أي مباراة، إنها مباراة المذبحة. الأمر يبدأ كذلك، في البداية كنا مهزومين بنتيجة 1-0 "

كان هذا هو المكتوب في أعلى الموقع الإلكتروني للجنة طلعت باشا، وهى لجنة قومية أخبرني عنها بعض الأرمن في أرمينيا وكذلك فرنسا، وفى الجزء العلوي من الصفحة مكتوب بوضوح الهدف من ورائها "الوثائق الأرمينية حول المذبحة - كذبة تحولت إلى حقيقة"

ومهمة هذه اللجنة والخطوط العريضة لعملها كالتالي: "منشورات في خدمة المصالح الوطنية, كشف الوثائق الحقيقة المتعلقة بالشأن الأرميني, تنظيم الندوات والحملات لحشد الرأي العام العالمي, وثائق مؤيدة لتركيا وموقفها الوطني"

حيث تعتمد الرؤية الأساسية للجنة على أنه لا توجد مشكلة بين الأرمن والأتراك، وأن الدول الغربية تنظم حملات تشويه ضد تركيا، وميزانية هذا

المشروع حوالي 1.35 مليون دولار

وقد أسس اللوبي الأرميني جمعيات مشابهة، لكنها تخوض مباراتها على أساس عرض الآلام والمعاناة عن طريق جمع أكثر من 28 ألف وثيقة وبحث لإثبات المذبحة في مقابل 700 وثيقة فقط جمعها الجانب التركي دفاعا عن موقفه.

وعلى مدار الأربع سنوات الماضية، تم نشر أكثر من 25 بحث علمي بداخل تركيا ينادي باستخدام مصطلح "الإبادة الجماعية" لوصف ما حدث. وقد تم "مطاردة" هؤلاء الباحثين بموجب القانون، كما تم اعتبارهم "خونة" من قبل الذين ينظرون للأمر على أنه مباراة في كرة القدم.

ما قرأته خلف عندي شعورًا كبيرًا بالإحباط، ما فائدة أن اصرخ منادية نفسي في المدرجات؟ أظن أن ما يجول بخاطري قد تم تجاوزه بالنسبة للمشجعين، فهم يتقاضون مبالغ ضخمة مقابل هذا الصراخ في بعضهم البعض من مدرجين متقابلين. إن كل ما أفعله في الحقيقة أنني أضيع وقتًا كبيرًا في صياغة جمل طويلة لن يقرأها أحد على أية حال. كنت أفكر، ماذا لو كان هرانت هو الذي يستمع لهذا الحديث؟ لقد قال لي هرانت أنه في حالة إقرار هذا القانون، فإنه سيذهب لفرنسا "لإنكار الإبادة الجماعية" كرد فعل احتجاجي، لدرجة أن بعض أنصاره وجدوا أنه متحمس "أكثر من اللازم". فاذا كان هرانت يواجه هذا النوع من الوحدة والانعزال، فما بالكم بي أنا؟ هل أتوقع أن يستمع لي أحد؟

كنت أزداد شحوبًا كل دقيقة عندما هاتفني أرتو بولنت كليميل. كان صوته مبتهجًا وهو يعطيني عنوانًا من المفترض أن اذهب إليه لتناول العشاء، وأخبرني أنى سوف أفاجئ، وبالفعل فوجئت

***

زجاجة من الراكي ماركة يانى بالطبع لا يوجد أفضل منها!

"إنها هى" صاح يورتاش عندما وضع مارتن يورجنز الزجاجة أمامنا على الطاولة.

إنه ولأول مرة في باريس وفى المطعم الأرميني الذي يملكه مارتن يورجنز يجلس على طاولة بحجم طبيعي يأكل طعاما طبيعيا ومشروبا كحوليا طبيعيا.

"أخبرتك أنك ستفاجئين "قالها أرتو بولينت ضاحكًا ثم أضاف إن صديقه مارتن لا يشبه على الإطلاق أي أرميني آخر قد عرفناه من قبل.

إنتظرنا مارتن وهو يحضر مجموعة من أطباق المقبلات التركية الشهية كالثومية والفلفل المقلي والجبن الأبيض والطماطم الحارة، ثم جلس معنا أخيرًا. بدأ أرتو يشرح لهذا الرجل الخمسيني النشيط أسباب زيارتنا.

بدأت الحوار قائلة: " قيل لنا أن أبناء جيلك قد غادروا تركيا هربًا من أحداث السادس والسابع من سبتمبر" ثم أضفت "أو ربما لعدم قدرتكم على الحديث بحرية عن الإبادة الجماعية، فماذا كانت الأسباب في حالتك؟"

ابتسم وأشاح بيديه دلالة على الاستهزاء بالموضوع، ثم قال "في حالتي لم يكن هنالك علاقة بأحداث السادس والسابع من سبتمبر، ولا بالإبادة الجماعية. لقد أتيت إلى باريس لأكون جونى هاليداى الجديد"

منذ سنوات عديدة فاز مارتن بالميكروفون الذهبي في مسابقة غناء -حل فيها المطرب المعروف سيم كارا بالمركز الثاني - والتي نظمتها صحيفة حريت اليومية التركية.

"لقد كانت لي حياة رائعة في تركيا، وكانت الفتيات تحيطني من كل جانب، ثم جئت إلى هنا لأطير في الأفق"

"ربما كان كل هذا الطعام والشراب هو الذي دفعني لأن أسأله: "وماذا عن تأدية الخدمة العسكرية؟"، "لقد أديت الخدمة العسكرية هنا في باريس"

"ماذا"، "لقد كنت أبكى وأبكى بشدة من أجل وطني، هذه هي الخدمة التي أديتها"

يا له من حنين للوطن!!

"لقد كان الحنين للوطن سببا في بكائي، ولكن كان هناك سبب آخر، فقد كان لي حبيبة تركتها في تركيا"

"وهل رأيتها مرة أخرى بعد هذا؟"

" لا لم أرها، فحياتنا قد تغيرت كثيرًا في السنوات الماضية كما تعلمين. ولكن فجأة منذ عدة سنوات اِنتابني حنين مفاجئ للذهاب لتركيا، اِشتقت للجزر ولصيحات الأزياء. دعاني نادي سيسلى فذهبت. لقد كانت زيارة رائعة وبدت اسطنبول جميلة، فقلت في نفسي: لو انضمت تركيا إلى الاتحاد الأوربي لأصبحت أكثرَ جمالا".

وفى محاولة منى لجعل الحوار أكثر جدية سألته: "لقد أخبرني الأرمن في نفس عمرك أنهم على اتصال دائم ببعضهم البعض هنا في فرنسا، وأكثر اتصالاً بالمسألة الأرمينية، فماذا عنك؟" أشاح مارتن بذراعيه في استهجان وصاح: "لقد كنت أشعر أنني أرميني أكثر في تركيا، فهنا لا توجد كنائس أرمينية ولا مدارس، إن الذين مازالوا يعيشون في تركيا هم أرمن أكثر مني إذا كان رأيي يهمك"

ثم أصبح أكثر حزنًا وانهزامًا وهو يضيف: "كيف يمكنني ألا أحب اسطنبول؟ أن جميع أصدقائي هناك"

وعندما أثرت موضوع القانون الفرنسي صاح قائلاً: "إن الصراخ والجدال لن يوصلانا إلى شيء" ثم أنهى الموضوع قائلاً "أتمنى أن يتركوا الأمور كما هي ويتركونا في سلام"

أخبرنا مارتن عن وجهه نظرة قائلا: "أنا لا أرغب أن يصل الأتراك للاعتراف بالإبادة الجماعية من قبيل اليأس والتسليم، ولكن أريدهم أن يعترفوا بها بالطريقة الصحيحة، على كلٍ ما أنا إلا موسيقى، وكلام السياسيين يدخل من إحدى أذنى ليخرج من الأخرى"

كان مارتن على وشك أن يقول شيئًا آخر عن المهاجرين الأرمن، عندما استدرك قائلاً " لا تدوني أيًا من هذا، فانا لست هنا لأجلب على نفسي المشاكل"

ولهذا بدأت كلماته تدخل من إحدى أذني لتخرج من الأخرى ثم ما لبث أن أمسك بالميكروفون وبدء في الغناء كما يفعل كل ليلة في الحانة، قائلاً بالتركية: "لقد نسيت قلبي مع قلوب آخرين" . وما أن أنهى مخزونه من الأغاني التركية الرومانسية القديمة حتى شرع في رقصة الستبليس المعروفة لدى الأرمن والأتراك والتي يرفعون فيها أذرعهم عاليًا ويحركون خصورهم مع جذب أقرب امرأة أرمينية إليه لتشاركه الرقص، ثم جذبني أنا أيضًا رغم أني رفضت. تمكنت أنا وتلك المرأة من تبادل بعض الكلمات باللغة الفرنسية، ثم ابتسمنا ونحن نقول باللغة الأناضولية "سينانى يافرم... سينانى ناى" وهو تعبير تركي يستخدم للتعبير عن النشوة الناتجة عن الرقص والكحوليات.

وقلت لها حاولي أن تشرحي أيًا مما حدث لطرف ثالث، لبلد أخرى أصبحت الآن مهتمة بتمرير قانون "الاعتراف بالمذبحة"، ماذا ستخبرينهم؟ أن كل أرميني مهما كانت درجة كراهيته لتركيا سيفهم على الفور كلمة "سينانى يافرم... سينانى ناى"، سيفهم النشوى الحزينة في ابتسامتنا وفى المنطقة المشتركة لقلوبنا. فكيف يمكن شرح هذه المشاعر وهذه اللحظات لطرف ثالث يحاول التدخل بين الأرمن والأتراك.

سيكون الأمر بمثابة استجداء سياسي للطرف الثالث، أو طلب اعتراف ليس أكثر.

فكيف يمكن لهذه السياسة الخاوية أن تحل محل هذه الرابطة - سينانى -

القوية بين الأرمن والأتراك؟ وما فائدة إصدار قوانين بلغة مختلفة إذا ما كان الأرمن والأتراك لا زالوا يبحثون عن جذورهم في نفس الأرض بالرغم من اختلاف الوجوه.

أين دول العالم بشكل عام ودول الغرب بشكل خاص مما يحدث؟

أتذكر أن مخرجًا سينمائيًا قال ذات مرة "إن الغرب لا يريد أفلامنا. إنه يريد سجادنا فقط".

هل رأيت الطريقة التي يعلق بها الكليم في السوق السياحي بتركيا؟ إنه نفس المشهد، يتم تعليق الكليم في الهواء أو طيه على الأرض بهدف إقناع السائح أن الوسيلة الأمثل لاستثمار أمواله هو بشراء هذه البضائع المذهلة، ويأتي السياح بأحذيتهم الرياضية البيضاء وزجاجات المياه البلاستيكية ويقومون بفحص السجاد متثائبين، وهم في الحقيقة لا يهمهم مصدر السجاد ولكن المهم طريقة عرضه، فكلما تخلل السجاد الهواء وفاحت في المكان رائحة الصوف المعتقة والجو الشرقي الغامض، كلما كان ذلك أفضل.

في الحقيقة فإن (الكليم) يتم تصنيعه يدويًا بواسطة النول في غرف مظلمة بشوارع جانبية ضيقة في القرى والمحافظات التي تقع في وسط وشرق الأناضول وفى داخل هذه الحجرات الضيقة تعمل الفتيات اللاتي لم يتلقين أي قدر من التعليم كخط إنتاج متكامل، بينما تتردد في المكان أصداء الموسيقى الصاخبة. هذا الفن الشرقي الخالص يتم تنفيذه على أنغام موسيقية غربية حيث تجلس تلك الفتاة الصغيرة وهى تغزل واضعة في آذانها السماعات الخارجية لجهاز التسجيل الصغير مستمعة لبريتني سبيرس.

هؤلاء هن النساء غير الأناضوليات اللاتي يضفرن قلوبهن مع خيوطهن عقدة بعقدة. هؤلاء هن الفتيات اللاتي بنفذن التصميمات التي أرسلها تاجر من المدينة المجاورة لهن لصناعة منتج شرقي. وبالرغم من ذلك يتم عرض تلك السجاجيد للسياح مع حكايات شرقية قديمة للبساط الطائر ومصباح علاء

الدين و الرقص الشرقي والبهجة التركية مع قدح مخروطي من الشاي بنكهة التفاح، مشروب لا اعرف تركيا واحدا يشربه، ولكن هذا لا يهم فهو ينتج خصوصا للسياح الذين يتركون تركيا بدون مشاهدة عرض سينمائي ولا فيلم وثائقي ولكن بكليم يوضع على المنضدة في الركن. الأناضول دائما توافق طلبات السائح بشكل عام

إن الشرق يشكل من قبل السائحين الأجانب الذي يشاهده، بواسطة التجار والوسطاء الذين يعيدون نسج الأناضول أثناء مشاهدة قناة MTV . وسواء شئنا أم أبينا فقد أصبح هذا الكليم هو الأناضول الحقيقية، شأنه شأن قصص الأتراك والأرمن التي تبحر عبر الفضاء والأرض لتصل لبلاد الغرب قبل أحذيتهم الرياضية البيضاء.

الأرمن والأتراك هؤلاء التجار المتنافسين الذين يعلن كل منهم تفوقه بحسب عدد الجثث، وأولئك الذين عانوا أكثر من غيرهم، ولكن المشترى في الحقيقة لا يكترث بهذا، لا يكترث بالقلوب المعقودة في الكليم، كليم الموت الذي يباع ويشترى يباع ويشترى ويقوم التجار بعمل الإحصائيات حول نسب المبيعات لتحديد أي التصميمات كانت الأكثر مبيعا لإعادة إنتاجها بعدد اكبر للسياح في العام القادم.

كيف يمكن تفسير القصة الحقيقية للأناضول، كيف يمكن صياغة الألم في كلمات لن تترجم؟ ما الذي نفقده في الترجمة وما الذي نكسبه عوضا عنه؟

ربما كان الأرمن في وضع أفضل، ولكن بالنسبة لهذا الكليم من أين أتى وما هي حكايته من يعرف ذلك أفضل من سيدتين في وسط باريس، إحداهما تركية والأخرى أرمينية، ترقصان وعيونهما غارقة في الدموع وهما تغنيان "سينانى يافرم.. سينانى ناى".

14- بندول فوكو هو آلة صممها العالم الفرنسي ليون فوكو لإثبات دوران الأرض حول محورها.

15- مبنى البانثيون أو (مقبرة العظماء): هو مبنى بالحي اللاتيني في باريس يضم رفات بعض عظماء الفرنسيين

الفصل الرابع عشر: فقط لو كان هناك حل لهذا الامر

"أُضطررتُ لأن أدفع قدرًا كبيرًا من المال، أتمنى لو لم يحدث هذا"

كانت هذه كلمات أرتو كليميل وهو يشير إلى حقيبة أجداده المشجرة المعلقة على الحائط. إنه يشعر بالندم لأنه أُضطر لإنفاق مثل هذا المبلغ الضخم كالغربيين في حقيبة مصنوعة من الكليم معلقة على الحائط قبالة السلم المؤدى للطابق الثانى فى منزل يقبع في إحدى ضواحي الأغنياء الفارهة بباريس. كانت جدته في الماضي تقوم بصناعة تلك الحقائب ومنها تحول اسم عائلتهم" كليمينيان" إلى صيغته الحالية. إن الحقيبة جزء من ميراثهم العائلي ولكنه اضطر لشرائها من تاجر أنتيكات. كان جدي يضع تلك الحقيبة على ظهر الحمار هكذا...

وبدا ارتو يتظاهر قبل أن أوقفه قائلة "أنا أعلم أنا أعلم"، ضحك كلانا فقد اعتادوا شرح الأمور بشكل مطول للأجانب.

إنه يحب أن يفهم كلامه الآخرون وخاصة أنا، بهذه الطريقة نشعر أننا أتينا من مكان واحد، ولهذا أشار للعلاقة بين الحقيبة المعلقة على الحائط وصناعة الكليم. ثم أشار فجأة لليلة الماضية، "وماذا عن الليلة الماضية". أجبت "لقد كانت رائعة ولكنى أشك أن آرتن لا يمثل الرأي العام للمغتربين الأرمن في فرنسا"

فأشار بيديه رافضًا بنفس الطريقة لأهل الأناضول وقال "لا تعيري أي اهتمام لأولئك المتشردين، إن معظمهم لن يذهب الى تركيا على الاطلاق بل إنهم يخشون الذهاب إلى هناك. إنهم يظنون أن سوءًا سيحدث لهم لمجرد أنهم أرمن، لقد كان لي ذلك الصديق الثري الذي ذهب مؤخرًا إلى تركيا بعد سنوات عديدة، وقد كان خائفًا جدًا من عواقب هذه الزيارة حتى إنه لم يجرؤ على إخبار النادل أن قطع البفتيك التي أمامه غير جيدة الطهو وأكلها بالكامل. ماذا

كان سيحدث إذا اشتكى؟ لا شيء على الإطلاق."

أرتو لديه أعمال في تركيا، فهو يجمع السجاجيد والكليم من اسطنبول والأناضول ويبيعهم في المحل الخاص به بباريس.

ولكن على الرغم من تصريحه بأن "لا شيء يمكن أن يحدث" فدائمًا ما يحذرني قائلاً "اِحذري مما تكتبين، لا داعي لإغضابهم بسببي في تركيا" تمامًا كما كان مارتن قلقًا من إغضاب المهاجرين الأرمن في باريس كان ارتو منزعجًا من أن يقوموا بقص ريشه فى تركيا"

إنني ملتزم بالطريقة التي يجبرنا عليها مجتمعنا. تماما كهذين العجوزين اللذين يختارانِ ألفاظهما بحذر شديد آخذان الكثير من العوامل فى الاعتبار.

الوضع كان مختلفًا في أرمينيا ولكن هنا الوضع أشد تعقيدًا، مارتن وارتو يجب عليهما الأخذ في الاعتبار ليس فقط المجتمع الذى يعيشون فيه ولكن أيضا المجتمع الذي ينتمون إليه.

كنت أفكر في هذا أثناء الجولة التي صحبني فيها أرتو في أرجاء منزله الكبير. هل هناك وسيلة لشرح الحقائق بطريقة مقبولة لدى الجميع؟

هل لغة واحدة تكفى لكل من يحتاج تفسيرا؟ لغة واحدة لا تغير الحقائق ولا تحتاج لتحسينات في عملية الترجمة؟ هل هناك طريقة للتعبير عن كل شيء حتى الأشياء التي تسبب إحباطا لبعض الناس؟ هل هناك طريقة لتشجيع الناس على السماع والمشاركة؟

أنا لا أفكر في الأرمن المغتربين فقط، بل في الأتراك والفرنسيين أيضا، أعتقد أنه لا أحد منهم سيهتم بالسماع عما رأيت وربما كذلك الناس في بلاد أخرى.

"فقط لو كان هنالك حل لهذا الأمر" قالها ارتو قاطعًا حبل أفكاري.

إن هذا الأمر يزعجه، هذا الأمر الذي مر علية ألف عام ومازال يتطلب حلاً

فوريًا. قال "لا تفكري في هذا الأمر وتعالى لأريك أصغر كنيسة في العالم"

خرجنا إلى الحديقة. لقد أنشأ ارتو مصلًى منذ عامين، وهو مليئ بالتحف التي جلبها من الأناضول أقداح القهوة التركية, الشموع, والأيقونات, وعلى مذبح صغير وضع مرآة سوداء.

"في المرآة صورة ضبابية للمسيح المخلص. أنا أقول للناس إنه يظهر فقط للمؤمنين يجب أن تشاهدي الفرحة التي تنتابهم عند مشاهدة يسوع" يضحك أرتو. إنه ليس متدينًا بالشكل الكامل أو بمعنى أدق ليس على تعاليم الطائفة الأرمينية. قال ارتو "لو كان الناس يستطيعون الكلام" صمت دقيقة ثم أضاف وهو يبدو مضطربًا "بدون همس أو صراخ، إن الذين ولدوا هنا وعاشوا على سماع القصص المأساوية غاضبون، ولكن الأمر يختلف لو كان لديك أصدقاء في اسطنبول. إن الصياح ليس سهلاً إذا كنت تعرف مكانًا وبينك وبين أهله صداقة"

كنت أهم بمغادرة المنزل قبل أن يطرأ ببالي شيء" وبالنسبة للقب -كليمينيان- هل تحور إلى صيغته الحالية نسبة إلى الكليم فى زمان اجدادك؟" بالرغم من أنه ابتسم وأشار بيده بطريقه دائرية علامة على النفي، إلا أنني رأيت في عينيه نفس الحزن الذي رأيته في عين المرأة الأرمينية في ليلة سابقة. ثم قال "سأصطحبك لمحل الكتب. محل الكتب الخاص بصامويل، إنه مشهور". وبينما كنا نستقل القطار من الضواحي إلى وسط المدينة كنت أفكر في الصراخ مقابل الصمت. هل يمكن لصوت واحد أن يسمع بين ضجيج الأصوات الزاعقة.

إنها وسيلة لا تقدم أية مساعدة لحل مشاكل العالم، ولكن كلمة "الأمل" لا يبدو أن لها بديلاً أخرَ ليصبح من المسلمات. إنها كلمة مخادعة من الصعب أن تعتمد عليها بشكل زائد، فربما تجد نفسك في منتصف الطريق تائهًا وقد تخلت عنك، ولكن من الصعب أيضًا ألا تعتمد عليها بالمرة.

أنا أضع دومًا ثقتي في كلمات أخرى "كالعزيمة" و"الإصرار".

عندما تعرف الحق جيدًا يجب عليك أن تقاوم ولا تستلم ولا تترك نفسك فريسة لمحترفي الضجيج أو أن تفقد قوتك وتلزم الصمت، ادفع عجلة العالم ولو حتى بعصا، حتى تكون مثابرًا.

"لقد وصلنا، يجب أن تدلفي للداخل للحديث معهم" قالها أرتو ونحن نقف فى مكان ما قبالة شارع الأوديون.

"صامويل" حفر الاسم على لافتة خضراء داكنة، فقلت له "إن لدينا موعدًا آخر، لن نستطيع المكوث طويلاً"، يلح أرتو "ولكن يجب عليك مقابلتهم"، فيدلف ثلاثتنا إلى الداخل وكالعادة أخفى يورتاش الكاميرا المزعجة.

رجل وامراة مسنان من الواضح أن الصداقة تجمع بينهما، يتحدثان بخليط من الفرنسية والأرمينية مع عجوز أرمينى آخر، عميل قد حضر قبلنا مباشرة ولكن آرتو التاجر الذكى استطاع أن يغافله ويهمس للمرأة بشيء ما.

تبادل الرجل والمرآة النظرات، لا بد أن آرتو آشار لوصول "اثنين من الأتراك". تجمدت وجوه المسنين فى تعبير يدل على الاستياء، وتبادلوا بعض الكلمات الفرنسية بلهجة قوية دون النظر إلى آرتو. كنت بالفعل قد تراجعت عدة خطوات كرد فعل لتعبيراتهم الغاضبة، فهذا ليس هو الوقت ولا المكان المناسبين "للأصرار" على إجراء أحاديث. قال آرتو باديا عليه الحرج "أنا لا أفهم، لقد أصابهم الغضب فجاة"

وبينما نحن نخطو إلى الخارج قلت لهم "شكرًا لكم على كل حال"، كان آرتو أكثر غضبًا منا، فقلت له مواسية: "إنه أمر صعب آرتو, الكثير من الناس لا يرغبون فى مشاركة ماضيهم المؤلم على الملأ وبخاصة مع صحفيين لا يعرفون عنهم شيئًا. ليس لنا أن نلومهم على هذا, من الأفضل أن تنسى الامر"

"ربما أمكننا إجراؤه لاحقًا" قالها آرتو مجادلاً وهو فى قمة الغيظ من التعصب الذى تفشى فى مجتمعه، " فقلت له "ربما" وتركناه خلفنا ونحن نسرع فى سبيل

اللحاق بميعاد المقابلة الصحفية التالية.

أرتو ؛الشاعر المغمور الذى أخبرنا أن قصص المذبحة قد أثرت على طفولته؛ إيزابيل؛ مارتن؛ يبدو لى أن المزيد والمزيد من المغتربين الأرمن قد اختاروا عدم الصراخ وعدم التزام الصمت إزاء ما حدث، ربما يكونون غير ظاهرين مقارنة بمن يسعون لتمرير القوانين باسم المغتربين الأرمن، أولئك الذين يقومون بكل الصراخ .إنهم موجودون أيضًا ولا يرحبون بمن يصرخ باسمهم ولا يوافقون أيضًا على الأشخاص الذين يلتزمون الصمت المطلق، إنهم موجودون ولكن من الذى سيتحدث باسمهم؟ ومن الذى سيتحدث باسم الأتراك الذين يرفضون الصراخ ولكنهم يرفضون أيضًا الالتزام بالصمت؟

هـؤلاء يجب ضمهم كأحد أطراف الحوار؟ فكيف يمكن حملُ هاتين المجموعتين على الحوار المتبادل، فربما لو بدؤوا الحوار لنتجت عنه لغة جديدة وأفكارًا جديدة، هذه اللغة المشتركة ستكون الأساس الذى يرسخ الصداقة ويحل ما يمكن حله من مشاكل، بالضبط كما يفعل هرانت فى أسطنبول ولكن هل الحوار مجدٍ من الأساس؟ هل ما يفعله هرانت يؤتى بثماره؟

***

قال يورتاش "لا بد أنهم هناك" رجل وأمراة شابة ينظران إلينا ويبدو حولهما غيمة من التوقعات. بورشين جارشيك تعمل صحافية فى فرنسا وسويسرا ولكنها انتجت أيضا "نحن نشرب مياه واحدة"؛ فيلم صور فى 2006 لسيرجى أفيدكيان المخرج الذى نحن على وشك مقابلته الآن.

سيرجى أفيديكان مخرج متوسط العمر ذو عيون صريحة ولكنها ودودة وقوية، تبدو واضحة بالرغم من شعره الرمادى. هاجر أجداده عام 1915 إلى فرنسا من البلاد التى تعرف الآن بتركيا ولكنه نشأ فى أرمنيا حتى بلغ الخامسة عشر قبل أن ينتقل إلى عائلته في فرنسا. وما أن بدأنا الحديث حتى تقاسمنا

الضحكات. وبمجرد أن ذكرت أنني جئت الى باريس من أجل قانون " تجريم إنكار الإبادة الجماعية" حتى قال أفيدكيان على الفور "إن فرنسا لم تمرر هذا القانون من أجل عيوننا البنية الجميلة، وإن كانت عيوننا جميلة فعلاً كما تعلمون، ولكن هذا شأن آخر". لافيديكان كل الحق فى وصف المتشددين، فهو يعرف الأرمن والمغتربين، وقد صنع فيلمًا عن العلاقة بين الأرمن وماضيهم، فضلا عن أنه يعرف تركيا وكانت لديه شجاعة التصريح بآرائه عندما زارها، وقد سعى لإيجاد لغة جديدة للتعبير عن نفسه.

"لقد ذهبت إلى اسطنبول لأول مرة عام 1987. كان والدي من قرية اسمها سولوز بالقرب من بيرسا. لقد كانت مكانًا أسطوريًا بالنسبة لي، وهي كذلك بالنسبة للأسر الأناضولية، أسطورة العودة للمنزل. وذلك سبب أن هذا الفيلم يسمى في تركيا "العودة"، إنها الاتجاه الأحدث في السياحة التركية، يعود الناس لبلادهم ليجدوا قرى أجدادهم، ضحك أفيديكيان مرة أخرى، وجعلني أنا أيضا أضحك. "لم يكن الأمر سهلاً بالطبع، عندما نزلت للتصوير فقد اعترضني العمدة، لم يكونوا يريدونني أن أصور شواهد القبور، لقد فهمت أنهم كانوا خائفين. ظنوا أن شيئا سيحدث. ذلك أمر طبيعي. لقد انتظرت سبعة عشر عامًا لأرى كم تغير الأتراك عندما دعيت إلى مهرجان البيرسا للأفلام لعرض فيلمي القصير

" طريق الحياة". هذه المرة كان أهل قرية سولوز متحمسين للحديث معي وإخباري بحكاياتهم. هذه القرية يسكنها البوماكس الذين أتوا من تركيا كجزء من التبادل السكاني الإجباري مع اليونان. وهم أيضًا يعرفون معنى المنفى. إنهم يودون لقاء أحفاد الأرمن الذين عاشوا ذات يوم في منازلهم. لقد اقترحت أن ننشئ مؤسسة ونحفظ الماشي بالجمع بين القرويين والأرمن. وهكذا ذهبت إلى القرية لأحكي حكاية جدي لكنني وجدت نفسي أصنع فيلمًا عن رد فعل الناس المحليين على قصة جدي. وهكذا ارتشفنا نفس الماء الذي صنعناه.

تمنى أفيديكان أن يتحدث مع الأحياء وليس الموتى، و تمنى الحديث عن

أشياءَ لم تُقل من قبل. الأرمن الذين تركوا قرية جدي سولوز، شأنهم شأن أولئك الذين تركو جيمليك وجورول، لم يرحلوا بسبب التطهير العرقي. كان التبادل السكاني هو ما أجبرهم على الرحيل. وإن لم يتم هذا التبادل بين 1920-1923، لربما ظل هؤلاء الأرمن يعيشون في هذه القرية حتى الآن. لقد نجا أهل الشمال من الأناضوليين من التطهير العرقي بالهرب أو المبادلة، لكن جدي كان من الأرمن الذين بقوا على قيد الحياة، كأرميني، في جنوب الأناضول. وكذلك فقد كان هناك من الأرمينيين من ظل يعيش في تركيا بعد عام 1915. أتفهم ما أقصد؟ إن الأرمن المغتربين لا يتحدثون كثيرًا عن هذا الأمر"

لقد فهمت ما يعنيه، لكني لم أفهم تمامًا. لماذا على أي شخص أن يعيش في بلد قتل أهله في مذبحة؟ ذلك شيء يستعصي على الفهم بالنسبة لي. لكن أفيديكان لم يكن قد أنهى كلامه بعد. "بالقطع فإن كثيرًا من القرويين يخشون من عودة الأرمن لاستعادة منازلهم . لا حاجة لذلك الخوف ، فالناس الذين استقروا في باريس لن يعودا لهذه القرية مرة أخرى. لكن إذا تم استعادة تلك البيوت، سيكون هناك أرمن يودون أن يشاهدوا البيوت التي عاش فيها أجدادهم ذات يوم ومقابلة السكان المحليين. إن ما يتوقعه الأرمن هو نوع من الإيماءات الرمزية- إيماءة قد لا تتضمن بالضرورة كلمة "التطهير العرقي". إنه أمر يتعلق بالشرف والكرامة، وأنا على علم جيد بالعواقب "المرضية" لأن تكون عضوًا من المغتربين الأرمن في فرنسا. كان هذا هو المكان الذي أوقفت فيه أفيديكيان. "السيد أفيديكيان، لا تدخل نفسك في مشكلات مع المجتمع هنا".

"هذا صحيح" يقول ذلك وكأنه يقدم مزيدًا من الشرح. عندما استخدم كلمة "مرضية" فإنني أفكر كثيرًا في الناس الذين بنوا وجودهم وهويتهم بالكامل على قضية التطهير العرقي. لكنني أعتقد أيضًا أن معرفة ما حدث هو مسألة شرف وكرامة لنا جميعا. يمكنني توضيح ما أقول، في كل مرة أذهب فيها إلى تركيا من أجل مهرجان السينما، يقول لي الصحفيون: "لقد كانت حربًا، وقد

انتهت، لقد مات الناس" وأنا أجيبهم "أتظنون أنني أطرح هذا الأمر لما فيه من متعة؟ أنا أيضًا أرهقني أمر التطهير العرقي، وهذا هو السبب لبحثى عن طريقة جديدة للحديث عنه. وهذا هو السبب في اختيار الأفلام التي أقوم بعملها.

اقتبس أفيديكان كلمات الكاتب والفيلسوف الفرنسي جون بودريلارد وقال: "الأرمن حالة خاصة، لقد قضوا كل عمرهم في محاولة إثبات أنهم قد قتلوا، وهم يفعلون ذلك ليثبتوا أنهم أحياء اليوم".

أظن أن هناك طرقًا أفضلَ للوصول إلى حل، ولهذا السبب أريد أن يتم تصوير فيلمي في تركيا".

يؤمن أفيديكان بأن المغتربين والأتراك لديهم القوة لمواجهة تاريخهم المشترك. لقد قال: "علينا أن نثق في الناس".لكن ما الذي على المغتربين أن يواجهوه؟ لقد قال "سيرى النازحون أن فيلمي ليس قويًا بالقدر الكافي" وأضاف ليوضح وجهة نظره: "عندما أذيع الفيلم في أرمينيا، قال لي مضيف البرنامج الإذاعي "في فيلمك، أنت تشير إلى الأتراك الطيبين أيضًا، كان ذلك مقصودًا ليستفزنى"، لذا فقد رددت "نعم، وأنا أمل الحديث عنهم بشكل أكبر، عن سيلال بيه الذي حكم قونيا، مخاطرا بحياته لإنقاذ الأرمينيين، عن حاكم أليبو، عن الأتراك الآخرين الذين أتوا لمساعدة الأرمن. أنا لم أقل ذلك لأسعد الأرمن؛ لقد قلت ذلك لأنه صحيح، وسأقوله مرة أخرى"

قلت "سيد أفيديكان، في الطريق إلى هنا كنت أفكر إلى أي درجة يصبح من الصعب إلا تكون مسموعًا إلا إذا صرخت. الأيسر دائمًا أن تسمع من يصرخ، ومن الأكثر يسرًا عدم البحث عن الكلمات . ما رأيك؟"

ابتسم "إنهم يتحدثون نيابة عن كل المغتربين. إنهم يتكلمون بخشونة. لكننا يجب أن نتحدث نيابة عن أنفسنا. وأنا لا أظن أننا بهذا القدر من قلة العدد. قد لا نكون الأغلبية، لكننا أيضًا لسنا وحدنا، بالعودة إلى هذا القانون، فالأرمن كمواطنين فرنسيين هنا ليسوا بحاجة إلى هذا القانون، ولكن كأرمن فإن ما

يريدونه سرًّا هو تحريك الأمور بقوة وأن تظهر الحقيقة بوضوح. يحتاج الأرمن لأن يحدث هذا الأمر لأن تركيا لم تقدم على أية خطوة في اتجاهه. وهو أمر صعب أن تكون مغتربا، أنت بحاجة لخلق هوية، شيء تتمسك به، على الصعيد الثقافي والفردي أيضا. بالنسبة للبعض، فالنزوح بمثابة وطن، وبالنسبة لغيرهم هو منفى. عليك أن تفهم كم هو صعب هذا الأمر. لكن عندما يبدأ الجيل الأصغر في التحدث، فإنهم بحاجة إلى أن يعرفوا أنهم غير مذنبين. لماذا لا نجتمع جميعًا ونلوم الحكومة؟ لا يوجد معنى للوم فرد أرميني أو تركي بشكل شخصي. في عديد من الأفلام على سبيل المثال، كان الناس صادقين معي حين قالوا إنهم لم يسمعوا يومًا بالقصة الأرمينية. كانوا يتساءلون "هل هذه القصة حقيقية؟" "نعم إنها حقيقية ونحن نستطيع التحدث عنها فيما بيننا، ويمكننا حل هذا الأمر" هذا ما أقوله أنا.

نعم، هذا ما قاله أفيديكان، وهذا ما أقوله. إذا كان مارتن هنا بزجاجة الشراب، فسيقول نفس الشيء، وكذلك أرتو، الذي سينضم إلينا حاملاً كليم جده. تبدو إيزابيل وكأنها تقول شيئًا مشابهًا. وأنا أعلم أن هرانت سيوافق، ولا شك أن أرتو تونك بوياجين، الكاتب المسرحي في يارفين، سيضم صوته لنا. وهناك هايجرام وليليت، وآراكس ابنة ليليت، وغيرهم... كم يكون عددنا؟ إلى أي درجة سيكون صوتنا الجماعي عاليا؟ هذا هو السؤال.

إن أصحاب الضمير الذين ينوون الحديث عن الأمر عادة ما يكونون من الأقلية. لم لا يتم مشاركة هذه الأفكار مع الجميع؟ لماذا الحال دومًا هو أنه كلما كان الحشد أكبر كلما كانت النغمة أكثر تشددًا. يجب أن يكون هناك طريقة لنتحدث معا- فرصة لنا جميعًا أن يكون لنا صوت واحد؟

صاح يورتاش "حسنا، هذا كاف ليوم واحد، سنذهب لإحضار شيء نأكله وبعض المشروبات بصحبه أوزجور" وهذا ما فعلناه . حينها بدأت أقص الجزء الفكاهي من الأحداث التى مرت علينا خلال اليوم، وأشرح ما حدث فى محل الكتب، كان أوزجور يضحك. "ليس من الغريب أن رفضوا الحديث معك . يا إلهي، يا له

من لقاء مؤسف"

لكن لماذا؟ بسبب تلك المرأة التي ماتت عائلتها في عام 1915، بعد مرور سنوات عادت تلك المرأة إلى اسطنبول لترى أين عاشت عائلتها، لكن اليوم الذي اختارته كان أقل الأيام حظًّا، السادس والسابع من سبتمبر 1955.

قل: "كانت محقة في أن لا تتحدث إلينا، لقد حولنا حياتها إلى جحيم". سأل أوزجور: "نحن؟" هذا صحيح، ما الذي عنيته بـ "نحن"؟ إننا نضحك فيما بيننا على صورة "التركي الرهيب"، لكن ما الذي نعنيه عندما نقول "نحن". من "نحن"؟ بعيدًا عن الحكايات الملحمية التي شبعنا منها في بيوتنا عن الأتراك؛ رد فعل العالم الثالث على التعالي الذي نواجهه في الخارج؛ الأخطاء التي نرتكبها بالمنزل باسم الهوية التركية؛ والازدراء الذي نتلقاه من الخارج بسببها؛ بمجرد أن ننفصل عن كل هذا، سنصبح "نحن". وكيف يمكننا أن نتخذ موقفًا، وكيف يمكن أن يستمر هذا الموقف؟

فجأة، تبدلت المواقع، سآتي هنا لأفهم الأرمن، لكنني فهمت الآن أنه علي أن أفهم أولا من نكون "نحن". للمرة الأولى أجد اسمًا لعزوفي المستغرب عن الذهاب إلى باريس، كان ذلك هو الوقت الذي يجب فيه تخطي الصورة الساحرة للأتراك التي يرونها في أنفسهم، وتخطي الصورة السيئة المنتشرة عن الأتراك بين المغتربين، كان على أن أتخطى هاتين الصورتين المشوهتين وأنا ألقي نظرة صعبة على صورتي في المرآة، نظرة أصعب مما كنت أتوقع.

الفصل الخامس عشر: بنات الاشباح

اِستيقظت مرهقة، لِأكتشف أن هذه المقابلات وهذه الرحلة اتخذت من البعض حياةً خاصة لها، وأصواتًا خاصة بها، فقد كنت أتحدث مع الأشباح، مع الأصوات المتعددة لنفس الشخص. أما الآن فأنا أحيانًا أتحدث إلى نفسي أكثر مما أتحدث للأشخاص الذين أجرى معهم المقابلات الشخصية. إنهم يصيدون أحلامي، لقد اعترفت بذلك الأمر هذا الصباح، وهذه هي المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك منذ وصلت إلى باريس. ولم يبقَ لي إلا يومٌ واحد قبل العودة إلى تركيا. إنني أختنق، ربما لأن الوسيلة الوحيدة للتغيير فى حجرة الفندق الصغيرة هذه، هو أن أبدل الحقيبة والكرسي. لا أستطيع الاستمرار في تحمل الأفكار التي تطوف برأسي، وتجري داخل عقلي، وتختفي في ثقبٍ أَسودَ . وعندما تعود تلك الأفكار للظهور مرة أخرى، فدائمًا ما تكون نفس الجملة على بالي: "الأطفال، أطفال الأشباح... "

نعم إنهم يبدون كأطفال الأشباح، جميعهم كذلك. وعندما يتحدثون، تتسرب همساتهم الشبحية إلى الحاضر- أطفال الأشباح هؤلاء لا مكان لهم في المتحف. في خضم آلام الموت، فإن إرثًا من الخير والشر ينتقل من جيل إلى الجيل الذى يليه ، لذا فإن قليلاً ممن قابلتهم قد استخدموا كلماتهم الخاصة. فهذه الكلمات لا تنتمي إليهم، لكنها تنتمي إلى تلك الأشباح المعذبة، وهذا سبب كونهم شديدي الحنق "علينا" منذ البداية. هذا حنق الأشباح، وليس حنقهم. ما الذي يريدونه منا؟ ما الذي تريده الأشباح؟ هل يعرفون حتى ما يريدون؟ أيعلمون أنهم أبناء الأشباح؟

***

"إنهم ليسوا المغتربين الأرمن فقط، فهناك أشباح في المجتمع التركي أيضًا"

هيلين بيراليان امرأة ضئيلة ذات شعر رمادي مموج. البناية التي تعيش فيها،

بأعمدة سلالمها الخشبية ومصعدها العتيق يبدون وكأنهم قد كَبِرُوا سويًا في أمان. عندما تتحدث، يكون صوتها مثل شعرها، بتموجات وضفائر ناعمة. وضعت الكعك المغطى بالكريمة مع الشاي؛ و الكعك المغطى الشوكولاتة. هى عطوفة وشغوفة . الموسيقى غير معتادة ومهدئة؛ الحوائط مغطاة باللوحات الزيتية. الشقة وهيلين بيراليان رائعان لدرجة أنه يبدو من الملائم بصورة ما الدخول على أطراف الأصابع. وهذا بالضبط هو ما فعلناه؛ دون أن ندري؛ إيزابيل وأنا وبورسين جريك اللاتي رتبن الموعد، ويورتاش بالطبع. لقد جعلتنا برقتها المتناهية نشعر كأننا في منزلنا تمامًا، وأنا متعبة جدًا ولا أجد القدرة على طرح أية أسئلة. بدأت الكلام عن الأشياء التي تدور بعقلي هذا الصباح، مشتتة وممزقة. إنها تسمع بهدوء، ربما لأنها محللة نفسية، وربما لأن مؤلفة "الإبادة العرقية والانتقال" هى مهتمة أساساً بأفكار ومشاعر "الأتراك". وأنا أتحدث أستطيع استشعار وزن الأيام القليلة الماضية. النظرة التي تمنحني إياها لا تشبه نظرة سيلفا جابوديكيان في أرمينيا.

إنها تضحك، تصمت لبرهة، وفي النهاية تعالج أشباحي. "الأشباح تحوم حول أهل تركيا أيضًا. مع رحيل الأرمن، فقد الأتراك جزءًا كبيرًا من حياتهم وشعبهم". ربما تكونين على صواب، وربما الأرمن هم "أبناء الأشباح"، لكنها إن كانت تؤرقنا، فإنها تؤرق الأتراك بالمثل.

ربما هي الحجرة خافتة الإضاءة، والوقار المفاجئ، ورائحة الكعك المشابهة تماما لتلك التي ببيت جابوديكيان؛ أيًّا كان السبب، يأخذ الحديث منحًى كأنه الحلم. كلمات النساء الأربع تتعانق وتتضافر، تشكل جملاً تختلط لتؤسس معنى مع بعضها البعض. أحيانا تتذمر إيزابيل، "هذا صحيح" ، بورسين تشرح وتفسر كيف يكون شعور التركيّ الذى يعيش في أوروبا.

للنساء طريقة خاصة في التواصل مع أى شخص آخر، إنهن ينتظرن حتى تقارب الجملة على الانتهاء ليضفن كلماتهن الخاصة، لدعم أصوات كل شخص غيرهن، وأيضًا لحفظ هذه الجمل حيةً ومسموعة - كاللعبة التي كنا نلعبها

أطفالاً ، الكل في دائرة، يدًا في يد، نتشارك الأغنيات معًا بتناغم، أو الحلم أو حكايات قبل النوم التى تحفظها جماعة من النساء.

خلال هذا الحوار الشبيه بالحلم تقدم هيلين بيراليان كلمات المؤلف التركي نديم جورزيل، كلمات كتبها عن الأناضول، الجثث المبعثرة على طرقات الأناضول، والتي -حتى وهي ميتة- تنمو أظافرها بقدر أطول، تخترق تربة الأرض التي يكون الميت فيها أكثر حياة من الأحياء.

وأنا أتساءل "لكن مع كل هؤلاء الأموات، كيف يمكننا أن نتحدث؟" ، فترد بيرالين "كما نتحدث الآن لا أكثر". أنا أطرح الأمر على السيدة التي تكفن الجثث في بلدي، التي كانت تغسل الموتى والأطفال على حد سواء، وكانت وثيقة الصلة بالمواليد الجدد وجثث الأموات. هاتيك النساء على ألفة بدورة الحياة، ولا يتهيبون الوقوف في وجه الموت. أنا أتذكر تلك المراة حين أجلس مع هؤلاء النساء. فنحن أيضًا نجتمع هنا لنغسل الأجساد. قامت هيلين بيراليان بصرف الرجال ذوي الأصوات العالية لبرهة، وتحدثت إلينا، إلى النساء. "نحن بحاجة لتخطي الأبعاد التاريخية والسياسية، إن لدينا بعض الحزن والحداد التي يجب أن نمارسه، نحن معًا يجب أن نحزن على الموتى الذين لم نستطع أن نقيم الحداد عليهم".

إن الشعور بأن تكون داخل حلم هو شعور عميق. نحن في الأناضول، نغسل الأجسام معًا، ومع قيامنا بذلك، نتذكر لغات الآخرين، لم تعد هيلين تتحدث معي بالفرنسية، وحتى بعد أن أترك شقتها، أظل لمدة طويلة بعدها لدي شعور بأننا كنا نتحدث التركية، أو بلغات أخرى لم أكن أعلم أني أعلمها.

تتحدث هيلين عما يستطيع أهلها فعله مع هذا الحداد المفاجئ. إن الأرمن النازحين يجب أن يقوموا بتحليل نفسي لأطفالهم. لقد تعرضوا لصدمة كبيرة من الحكايات التي سمعوها في طفولتهم. والأتراك يجب أن يوافقوا على الاستماع إليهم؛ لأن حكاياتهم ستساعد فى التغلب على المخاوف والآلام التي

لم يفلح الأتراك في التعرف عليها داخل أنفسهم.

أقول: "أنا لا أشعر بالذنب" فتجيب "ربما، أنتم كشعب تعانون من صدمة ناجمة عن اتهامات خاطئة مستمرة " .. حسنًا، ربما "عقدة الذنب هي أحد الاحتمالات، الاحتمال الثاني هو التبلد كما ذكرتي، عدم الشعور على الإطلاق، إن الشعور بالذنب يمكن أن يُظهر ذاته في الأجيال اللاحقة في صورة اللامبالاة أو التبلد.

بزغ في عقلي مساعد مدير متحف الإبادة الجماعية. لقد كانت لدي "مشاعر صفرية" تجاه المتحف، لكن أفترض أن ذلك كان بسبب أنني كنت مرغمة على إظهار المشاعر. لكنني مازلت مندهشة من قلة مشاعري، ربما كانت هيلين على حق.

تهمهم إيزابيل "هذا هو"، دون أن تدري أنها تتحدث بصوت عال، إنها تشعر أنها يجب أن تتشارك بقية أفكارها معنا. "عندما يبدأ الناس في تركيا في رؤية مباني الأرمن، سيبدؤون في التذكر وفي طرح الأسئلة. لقد بدؤوا في رؤية المباني التي يمرون عليها كل يوم، لقد بدؤوا في طرح الأسئلة"

ترجع هيلين إلى الأرمن. "كان الأتراك مصدومين بالاتهامات الدائمة، والأرمن مصدومون بالتضحية المستمرة. هناك مجتمعان يعانيان من حالتين مختلفتين ناتجتين عن نفس الحدث. إنه لمن غير العدل بالطبع تقسيم شعب ما إلى "منكرين" و"غير منكرين". هناك أتراك تقع ردود أفعالهم على القصة الأرمينية في كلا التصنيفين-وفقط عندما يمكن لردود أفعالهم أن تمنح صوتا، يمكن ساعتها أن ننهي التبلد. أما الآن، فكلا المجتمعين محكوم بمخاوفه".

أشير إلى أن السياسة الحالية تنبع من هذه المخاوف، وتظهر نتائجها في نصوص تعديلات قانون العقوبات وسنداته ونصوصه. أسأل هيلين: كيف يمكننا التوفيق بين اختلافاتنا في المناخ السياسي الحالي ؟ . "إن القانون الفرنسي ومثيله من القوانين تنبع من سيكولوجية الضحية للنازحين الارمن. يتخيل أهل النازحين الارمن أن هذه القوانين ستحميهم من مخاوفهم، ووفقا لحكايات

طفولتهم، فإنهم مازالوا يشعرون بأنهم في خطر."

الحب والخوف. إن النازحين الأرمن يحبون نفس الدولة التي تخاف منها. تخبرني بيراليان أن الخوف من الأتراك بين أهل النازحين الأرمن هو شيء حقيقي ولم يُحَل بعد، وأن ما يشعرون به تجاه الأرض التي تركوها خلفهم هو أيضًا حبٌّ لم يتم حله بعد. إنه لأمر غريب أن موضوعًا كنا نظنه سياسيًا صِرفًا يكون له هذا البعد السيكولوجي الواضح، ذلك لأن سياسات ربما تكون قد نشأت في حالة مرض نفسي مازالت تقود سياساتنا منذ عشرين عامًا مضت. توافق بيراليان قائلة: "نعم" ولهذا نحن بحاجة للتحليل النفسي.

أعلم جيدًا أن الناس قد يخافون من حل مخاوفهم. فإن حياة كاملة يسيرها الخوف يمكن أن تصبح بلا معنى إذا زال هذا الخوف فجأة. عندما أخبر هيلين بهذا الأمر فإنها تحكي لي خبرتها معه. كنت خائفة من الأتراك أيضًا، لكنني اكتشفت لاحقًا أنه لم يكن الأتراك من أخشى، لكنها المشاعر التي يوقظونها داخلي. أخذت رشفة من الشاي وقالت "إنهم قد لا يعون ذلك، لكن أهل النازحين الأرمن الذين يعارضون الحوار بشدة خائفون من أنفسهم، خائفون من أن يتحرروا من خوفهم". شاينا الآن فاتر، كالشاي الذي نعطيه للأطفال "إن أقصى ما يخافونه هو أن يُحرموا من وجود عدوٍ لهم".

يسخر الرجال من بدعة الأشباح في سبيل ألا يخسروا أعداءهم؛ والنساء تغسل الأموات وتتمنى أن تُسجَي الأشباح في راحة. صورة تتجمع أمام ناظري، لكن عندما ينتهي الشاي والكعكات، ينتهي الحلم أيضًا. ونحن نستعد للذهاب، قالت هيلين: "أود أن أعمل على حل هذا الحداد المتأزم مع امرأة في تركيا- على الرغم من أنها تعيدني إلى تركيا برسالة إلى كل النساء متمنية إسكات الأشباح، ساعية لتضميد الجراح مع نساء أخريات عاقلات من خلال مصطلحات حميمية مثل "الموت" و"الحياة" و"الشر".

وأنا؟ "**نحن**"؟

الأمر ليس أمر الأرمن أو الأتراك، ولا الأوروبيين أو الأكراد. إن الأمر أمر الجرح والمداواة. إنه ليس أمرَ التطهير العرقي والتعويضات. حتى لو تم دفع التعويضات في يوم من الأيام، فإن أنواعًا معينة من الآلام لن تختفي. الأمر يتعلق بشيء آخر: يتعلق "بنا"، عن ماضٍ ابتلعناه بالحكايات الخرافية؛ يتعلق بمعرفة القصص القديمة بوضوح؛ يتعلق بغسل الأموات ودفنهم في أمان؛ بكيفية معالجة غضبنا من خلال مشاركة دموعنا مع أي شخص على استعداد للتحدث دون صراخ. لا أحد يريد الشعور بالذنب. بالنسبة لنا كي نتقبل الموتى باعتبارهم موتانا، لا حاجة بمن لم يُقتلوا أن يشعروا بالذنب. كل ما في الأمر أننا بحاجة إلى أن نتحدث، وأن نسمع.

خرجنا أنا وإيزابيل إلى الشارع. إنه أفضل أوقات اليوم بالنسبة لي: باريس في اللون القرمزي، تلك الساعة التي تكون في كل الألوان مسحة من اللون البنفسجي مع غرق الشمس وراء الأفق، وفجأة، يختفي اللون. لا أدري لم تفعل ذلك- ربما لأننا رشفنا الشاي الفاتر معًا على الحياة والموت، على الأرض والتاريخ، فجأة تحتضنني إيزابيل وأبادلها الحِضنَ. سنكون على اتصال، بالطبع- وإذا أتيت إلى اسطنبول في أي يوم ... لا أدري إلى أي درجة نصدق نحن كلماتنا؛ فبالتأكيد، لا أحد منا يعلم ما ينتظرنا. لا، الأمر ببساطة أنني وإيزابيل نبذل الجهد لتأكيد صداقة نشأت بسرعة هائلة وستنتهي بنفس السرعة.

هكذا تنتهي الرحلة. لا أريد حتى أن أفكر فيما سيحدث عندما أعود إلى تركيا لأكتب عن رحلتي إلى باريس. رغم ذلك فقد دونت بالفعل بعض الأفكار على عجل في مفكرتي، تمامًا كما أفعل في كل رحلة أقوم بها.

يجب أن أكون مثل النساء اللاتي تُمشطنَ شعرَهُنَّ تمشيطًا كثيرًا وهُنَّ تنتحبنَ، اللاتي تنتحبن وتنتحبن حتى تنحل جميعُ ربطاتِ شعورهن...

من يدري- ربما تقول الكلمات التي كنت أقولها قبل الذهاب إلى باريس: "ماذا

سيفعلون بي؟" "لم يجب أن أشعر بأي شيء؟" لديك وجهة نظر جيدة. لم يجب عليك أن تشعر بأي شئ تجاه شر ارتكبته الحكومة قبل مولدك بسنوات عديدة؟ لكن دعنا نفكر في الأمر لدقيقة؛ ليكن لدينا الشجاعة كي نقوم ببعض التفكير. اليوم عندما نسمع عن مذبحة الهوتو مع التوتسي، يكون شعورنا رهيبًا. عندما نشاهد فيلمًا يصور معسكرات الاعتقال النازية، تكون هناك مشاهدُ لا نستطيع تحمل رؤيتها. تتجمد دماؤنا لمشهد "الأرملة السوداء" الشيشانية وهي تقسم على الانتقام لموت زوجها، طفل فلسطيني يلقى حجرًا، امرأة عراقية تلطم صدرها وهي تقف أمام منزلها المدمر، قنبلة تسقط على مدرسة لبنانية، كل هذه الصور تلهمنا بمشاعرَ من نوعٍ آخر، أخبرني إذن، لماذا نحو هذا الموضوع بالذات لا نشعر بأي شيء على الإطلاق؟ هذا غريب، أليس كذلك؟ شخص بعيد يقول لي: "لقد اختفى أجدادنا وجداتنا من على هذه الأراضي". هل أغلقنا آذاننا لنبعد أنفسنا عن "جريمة" ما؟ إذا كنا نستطيع الآن أن نتخذ ولو أبسط الخطوات، لربما اختفت أشباح هذه الأراضي إلى الأبد. ربما يذهب هذا الغضب بسرعة أكبر مما نظنه ممكنا. ثم في النهاية سيبدأ الأحياء في التحدث، وليس الأموات. سيقف الموت صامتا وسيصبح صوت الحياة مسموعا.

عندما وصلت إلى اسطنبول، كانت تلك هي الكلمات الأخيرة في سلسلة المقالات التي لم أكتبها، والتي لم أكن أستطيع كتابتها، والتي في النهاية كتبتها. هناك ضجة هائلة – بالطبع كما أن هناك أولئك القراء الصامتين بشكل غريب. أنا سأتصل بهرانت مرة أخرى بالطبع. عشاء آخر، ومزيد من النميمة والأخبار. قضية أخرى سيتم رفعها ضد هرانت، على جريمة لم يقترفها بالطبع- وتلك المرة الجريمة هي "إهانة الهوية التركية"، سأقول: "ياللهول، اللعنة"، ستمضي الأيام ولن نلتقي. سيرتفع صوتٌ آخر مناديًا بـ "الاعتراف بالإبادة العرقية للأرمن" سيكون في الولايات المتحدة. سيكون ذلك وقتنا لنلتقي، لنتحدث عمَّا كان يحدث في أمريكا؛ سيبدو وكأنني سأذهب إلى هناك. سنشرب "راكي" بالطبع. سيتحدث عن قصته الخاصة للمرة الأولى، يخبرني أشياء لم أسمع بها من قبل. أثناء تناولنا الشراب سنشعر بمزيد من الحزن، وسنشرب المزيد

لنتخلص من هذه الأحزان. سيقول لي: "ألفي كتابًا"، وسأذكر "إسماعيل" وأقول إنني لم أستطع تأليف كتاب، فيقول لي "ستكتبينه". سأدوس الأرض بكعبيّ. وأنت بحاجة إلى أن تذهبي لأمريكا. أنا سأقنعك: "سكتبينه". سآخذ كلامه على محمل الجد. وسيقول لي "سأمر عليك الأربعاء المقبل.

الفصل السادس عشر: أرض اليمامات الميتة

إزووووو إزووووو. ظننت في البداية أن راكيل زوجة هرانت دينك تقول "زو" أى تطلب الماء باللغة التركية ، ظننتها تبكى وتطلب "زو"، ولم أعلم إلا متأخرًا أن "إزو" هي شكل من العويل يسمى زازاكي(16).

أنادي على الآخرين: "أحضروا المياه، المياه سريعًا".

يجري شخص ما عبر الزحام ويحضر الماء إلى الأسفل. أضع لراكيل الكوب في يدها، يصطدم ظهر يدها بالحائط ويتحطم الكوب، إنها تجلس على السلالم تنظر إلي لكنها ترى شخصًا آخر- شيئًا مظلمًا على ما أعتقد. كانت صرخاتها ترهق الأعصاب: "لا أريد، نحن بخير، شكرًا، انتبهى للدولة، لا تدع شيئًا يحدث، انتبهى للدولة".

تنظر راكيل في وجهي وتصرخ. تخر ابنتها بجوارها، تطوقها راكيل: "إزووووو إزووووو"، نحن جميعًا واحد، محطم- الزحام الصامت، النحيب في بئر السلم. رافعة وجهها عن وجه ابنتها، تصرخ راكيل، تدير عينيها فى وجوهنا، واحدًا وراء واحد: "نقاء الدولة ! دولتنا الآن ربما تكون أكثر نقاء"، ابنها آرات يشبه هرانت تمامًا. وجه رجل، يبكي، ليصبح في النهاية، وجه طفل مات والده للتو: "أوووه أوووه" وذراعاه يحيطان بجسده، أمام الباب. تضغط الأيادي على صدره، على قلبه، مازالت جراحه حية. صرخة (سيرا) تشق الصمت. أيدي (راكيل) تمزق الهواء، تنشب أظافرها في الصرخات، تسقط بجوارها: "هل صار دمك الآن أكثرَ نقاء؟"

ترفع سارة عينيها عن السلم الرخامي: "أعد إلى أبي، أبي"

تلتفت راكيل إلي، إلى ذلك الشخص الواقف أمامها، وإن كان أنا. تقول بهذا الصوت، الأجش المليء بالموت: "لقد وثقنا فيك، لقد بقينا في هذا البلد، لقد وثقنا فيكِ، والآن .. هذا؟".

وجهي، ينقسم لقطع. أنحني لألتقط القطع. دم صديقي. ذنبي. يرقد هرانت بالخارج، قريبًا من الباب الخارجي، على ظهره، في الشارع، في دمه. ونحن جميعًا مجتمعون في بئر السلم، ننظر لأحذيتنا.

التاسع عشر من يناير 2007، الساعة 2.30 مساء. انتهى اجتماع جريدة آجوس، وذهب هرانت دينك، المحرر العام وصاحب العامود الثابت بالصحيفة، إلى مكتبه. رن هاتفه المحمول. تحدث ثم أغلق الخط. وبسرعة هائلة وبدون أن يخبر أحدًا نزل هرانت مسرعًا إلى الشارع دون أن يأخذ هاتفه ولا معطفه. مع مغادرته المبنى في حوالي الثالثة مساءً، اخترقت ثلاثُ رَصَاصَاتٍ عيار 7.65م مؤخرة جمجمته. ووفقًا لشهادة الشهود، فقد قام شاب ذو لحية خفيفة يعتمر قبعة تخفى وجهه بإطلاق النار وصاح "لقد قتلت الأرميني"، ورأى الشهود أن آخر كلمات تلفظ بها هرانت هي "لا تفعل ذلك يا ولدي، توقف".

اِنتقلت جميع المحطات التليفزيونية لتغطية الأحداث مباشرة، كان كثير من المراسلين ينتحبون علانية. وعند نقطة معينة، كانت الحشود المتزايدة المجتمعة أمام مكتب جريدة آجاس قد قررت أن النحيب لا يكفي. حيث قررت مجموعة تتألف من مثقفين وصحفيين وأصدقاء هرانت أن تقوم بفعل ما. مع حلول المساء وصل عدد الحشود إلى 8000 شخص. كان الجو ممطرًا، وبين الدموع والصراخ بزغ الشعار الذي سيهز تركيا كلها: "كلنا هرانت، كلنا أرمن".

في النهاية، ذهب كل إلى منزله. وكان قرارًا قدِ اتُّخِذَ بإقامة الجنازة بعد أربعة أيام، في الثالث والعشرين من يناير. كانت أخبار هرانت لا تزال تملأُ قنوات التليفزيون جميعها.

غيرُ قادرة على استجماع رباطة جأشها، ابتسمت المذيعة بشفقة، وأرادت أن تعرف: "السيد كيرنسايز، هل تستطيع أن ترى أن ضميرَك سليمٌ الأن؟

كيمال كيرنسيز المحامي الذي كتب أهم المقالات وقدم شكوى ضد هرانت لأنه

"يَحطُّ من كرامة الهوية التركية" كان يظهر هو أيضًا على جميع المحطات التليفزيونية، مبينا "حزنه" على الرغم من أنه قد ألمح أن مطلق الرصاص ربما يكون رجلاً أرمينيا. قَدرٌ قليل من كل مقابلات هرانت كان يتم إذاعتها مرارًا. وينهال الازدراء على بيانات الحكومة المبتذلة. محطات التلفاز والصحف تنشر صورة هرانت وهو ملقى على الأرض بثقب في نعل حذائه البالي.

الرجال في الشارع، الناس الذين لم يعرفوا هرانت، ولم يسمعوا يومًا عن جريدة آجوس، علموا أشياءَ محددةً في هذه الأيام

إنه رجل يحب وطنَه

أُنظر للدموع في عينيه وهو يقول "وطني"

كان رجلاً صالحًا

أُنظر لكل هؤلاء، زوجته وأطفاله وكل الذين كانوا يحبونه

كان هناك ثقبٌ في حذائه حين مات

والذي يعني أنه لم يكن محسوبًا على أحد يدفع له، فقط كان يدافع عمَّا يؤمن به

لقد حكمنا عليه ظلمًا

لم يقل يومًا إن الدم التركي مسموم، لقد قال إن الكراهية التي يشعر بها بعض الأتراك "سامة".

لم يقم بإهانة الهوية التركية.

هل سمعت كيف ارتجف صوته وهو يقول "كيف أستطيع إهانة الناس الذين أعيش بينهم؟"

شخص ما أمر طفلاً بقتله.

هل رأيت هذا الولد على التلفاز؟ إنهم يقولون إنه على اتصال بالمثقفين والشرطة.

بمجرد موت هرانت، بدؤوا في سماع كل ما كان يقوله وهو على قيد الحياة. وقاموا بنشر أخر مقالاته، المقال الذي ذكر فيه هرانت تهديدات القتل، منتهيًا هكذا:" نعم أنا أعلم قلق اليمامة، لكنني أعلم أيضًا أن الناس في هذه البلد لا يمسُّون اليمام.

اليمامات لها الحرية أن تحب في المدينة، حتى وسط الزحام، هي حقا خائفة بدرجة ما، لكنها حرة كذلك." (آجوس، 10 يناير 2007).

كان ذلك في تلك الأيام التي ظلت كلمات هرانت تتردد على محطات التلفاز وفي الصحف، حين بدأ بعض الناس يقولون: "لقد قتلناه لأننا لم نستطع حمايته". لم يكن "نحن" من قتلناه، لكن ذلك صحيح، ربما لأننا لم نكن أقوياء بما فيه الكفاية لعمل وقفة ضد أولئك الذي يتخلصون من النساء والرجال الذين يتحدثون بحرية في تركيا. لقد هُزمنا ذلك اليوم بقلب اسطنبول، في وضح النهار. هذا ما كان وراء غيظنا وغضبنا. لقد أقمنا جنازة مهيبة. إن امتداد هذه الجنازة والشعارات التي خرجت من قلبها ستكون سببًا في انقسامات كبيرة ستحدث في تركيا لاحقًا. لقد فتح موت هرانت الجراح القديمة، وما حدث لاحقًا فاجأنا جميعًا.

في صباح 23 يناير 2007، مرت مسيرة حاشدة من 100 ألف شخص أمام البناية التي قتل فيها هرانت، كان الوباء قد انتشر.

كان الحشد يتدفق نحو بناية سيبات، التي تضم مكاتب جريدة آجوس. كان هناك صمتٌ عميقٌ. وقفت راكيل دينك زوجة هرانت على قمة إحدى الحافلات، تحمل بيدها مكبرَ صوتٍ ، تشكر كل من اجتمعوا لوداع زوجها. ستأخذ خطبتها موقعًا في التاريخ السياسي التركي. وهذه الكلمات التي قالتها راكيل ستتم

مناقشتها كثيرًا في الأيام التالية: "ليس المهم هوية القاتل، ولا المهم كم عمره، سبعةَ عشرَ عامًا أو إحدى وعشرون سنةً ، أعلم أنه كان طفلاً ذات يوم، لن يتغير شيئًا أيها الأخوة والأخوات دون أن نبحث عن تلك القوى الظلامية التي حولت طفلاً إلى قاتل.

أقنعة هرانت. ينظر الناس من خلال فتحات عيون أقنعة هرانت. مائة ألف شخص يرتدون أقنعة هرانت. أنا لا أقوى على النظر. إنهم يصيحون "كلنا هرانت!".

من هؤلاء الناس؟ بماذا يشعرون؟ حتى أيام قليلة مضت، لم يكن أغلبهم قد سمع عن هرانت، ولا مقالاته، ولا الأمور التي كان يتحدث عنها. هل أدرك هرانت عدد الناس الذين يتبعونه؟ كيف يمكنه أن يعرف؟ لم يقل أحدهم شيئًا على الإطلاق. ما هو بالضبط الشيء الذي يقيمون له جنازة؟ موتُ شخص لم يلتقوه مطلقًا؟ أم ذلك الندم اللعين الناجم عن معرفة أننا لم نكن قادرين على حماية "رجلنا الأرميني" . الأسى والألم الناجم عن معرفتنا بأن الرجال الذين كانوا يحبون بلادهم ولم يكونوا خائفين من الحديث عنها مازالوا يقتلون؟ كنا جميعًا متعبين من بقائنا في بلد اليمامات الميتة.

كانوا غاضبين، كانوا غاضبين من الحياة في تركيا، حيث يمكن أن يقتل هرانت، وغاضبين من الألم النفسي الهائل الذي سببه لهم هذا الأمر. كانوا غاضبين بسبب هذا الشعور الحارق بأنهم لا يستطيعون تغيير الأمور. كان الألم حادًا جدًا، وشديدَ الارتباط بمشاعرهم نحو البلد ونحو الذات، لدرجة تجعلهم يشعرون تمامًا بما كنت أشعر به عندما كانت راكيل تصرخ، لقد أرادوا الموت -بدلا من هرانت. ولهذا كنا جميعًا نصيح "كلنا هرانت، كلنا أرمن"- بمعنى "تعال واقتلنا نحن أيضًا".

ربما هكذا تتذكر الحشود. الموت الأحدث يذكرهم بالموت الأقدمِ ، ومع فقدان هرانت، يصيبهم الأسى من عجلة الموت التي لا تتوقف، ليس فقط موت

الأرمن، بل الأتراك والأكراد والآشوريين واليساريين. هؤلاء الناس يأسون على كل هؤلاء الموتى، وعلى تلك الدولة التي قامت على الموت.

إذن، من هم هؤلاء "الأتراك"؟ لماذا أكتافهم متهدلة؟ أبسبب الجثث التي يحملونها على ظهورهم، أم الأسى على هرانت وكل هؤلاء الموتى من قبله. لقد ذكرتهم رصاصة واحدة بكل ما حاولوا نسيانه، فتعبوا من أن يكونوا الأتراك القتلة. وإلى جانب الحمل الميت الملقى على الأكتاف المتهدلة لهذا الحشد، هناك ثقل القتلة. إنهم أتراك: هم الذين اقتحموا بوابات فيينا، الذين عاشوا في بلاد الشيش كباب والشوارب، أهل البهجة التركية والأكلمة التركية، الذين "قسوا على الأكراد وقتلوا الأرمن". إنهم هؤلاء -الأتراك الذين تعبوا من ابتلاع تركيتهم بالقوة في حلوقهم، كانوا منزعجين جدًا من الموت لدرجة أنهم مستعدون للموت، جميعهم، يهتفون معًا "كلنا هرانت، كلنا أرمن".

إنهم يريدون لـ"الدم المسمم" أن يسيل، بعيدًا كما قال هرانت، يريدونه أن يسيل وينتهي، مما يجعلهم يستطيعون الحياة بين أناس لا يقتلون ولا يُقتلون. إنهم يتمنون ألا يكونوا أتراكًا قتلة، وإنما يكونونَ أتراكًا يذرفون الدمع على من يموت. يريدون أن يكونوا هُمْ أنفسهم. يريدون أن ينتهي الماضي الدموي ويبنوا المستقبل الخالي من الدماء. إنهم لا يريدون للتاريخ أن يعيد نفسه، يريدونه أن ينتهي، وأن يغادر تركيا في سلام. إنهم لا يريدون الاشتراك في الهوية التركية للأتراك الذين يقتلون أهلهم الأرمينيين. لا يريدون تقاسم دولة مع أولئك الذين يقتلون الأكراد، ويقتلون رفقاهم الأتراك لأنهم ليسوا أتراكًا بالقدر الكافي.

تسعة عشر- خمسة عشر. من المؤكد أنه كانت هناك امرأة في مثل عمري في فان أو مالاتيا أو سيفاس(17). بالتأكيد كان هناك العديدُ من الأتراك رجالاً ونساءً الذين وقفوا ليشاهدوا جيرانهم الأرمن وهم يغادرون، والذين شعروا أنهم بالفعل: هُزِموا. قطعًا كانت هناك امرأة شعرت بما أشعر به الآن، عندما أُخذت أجافني هانم وهوفانيس بيك، مع أطفالهم، إيفرونيا وآجوب(18) وتم

اعتقالهم وترحيلهم، بالتأكيد كان منظرهم مرعبًا وعندما أتى غيرهم واستقروا في هذا المنزل المغتصب عنوة. بالتأكيد كان هناك أناس يشعرون بعدم القدرة على فعل أي شيء لإيقاف ذلك الأمر، الذين شعروا بالعار الشديد لعدم قدرتهم على حماية جيرانهم، الذين شعروا بالهزيمة والعجز في مواجهة الوحشية، تماما مثلنا.

لقد كانوا موجودين، لقد كانوا هنا. لقد بكوا كما نبكي الآن على هرانت. كانوا كذلك، كانوا مثلنا. لكن حكايات أخرى كانت قد كتبت، وليست حكاياتهم. ربما كان هؤلاء الناس دوما ضمن الأقلية. وربما لذلك لا تخبرنا حكاياتنا أبدًا عن أنهم عاشوا على هذه الأراضي ذات مرة، وأننا، أيضًا، قد انحدرنا من أناس تمنوا لو استطاعوا إنقاذ اليمامات، تمامًا كما نتمنى نحن. إننا لم نتعلم القصة أبدًا من هؤلاء الناس المشابهين لمن يسيرون في مسيرة من أجل هرانت. الناس الذين يمكن أن يخاطروا بالموت من أجل حماية إخوتهم وجيرانهم.

لاحقًا، تم قتل بعض الأتراك أيضًا- المسلمين، لكنْ موتُ واحدٍ لا يغفر موت غيره. مازالت أكتافنا متهدلة، ومازالت الأشباح تحوم حولنا، وإلى أن نستطيع مواساة أشباحنا وتركهم يرقدون في سلام مع دموعنا، إلى أن نتحدث ونُفجع كشخص واحد، فإنه قدرنا أن نظل قابعين في أرض الأشباح الغاضبة.

يكفي أن نقول: "نحن آسفون جدًا"، إذا كنا قادرين على أن نقول، الآن، "نحن آسفون، لأننا لم نستطع حماية هرانت ولا غيره"؛ كذلك إذا استطعنا الاعتذار لموتانا؛ إذا قلنا: "لقد استخدمناكم للتغطية على موتى آخرين، فسامحونا"؛ إذا استطعنا القول، "رحم الله أرواحكم جميعًا" ما الذي سيحدث؟ إذا لم تبقَ الأشباح عالقة، وعثرنا على السلام"؟.

إنه المساء، والكل عائد إلى منزله يحمل الأمس والحاضر اللذين يَصعُبُ جدا على شخص واحد حملُهما. وكل شخص يفكر بعمق فى أرارات، وهو يفكر مليًّا في ألمه الخاص.

مرة أخرى، بدأت الأحزان الشديدة في الظهور في بنائنا للذات والوطن. أرارات ينهار فوق رؤوسنا.

أرى هؤلاء الأطفال في أحد الأحلام- الأطفال في المتحف تحت قلعة طيور السنونو الصغيرة في يريفان. صفوف الأطفال القدامى يحدقون في وجهي من الصور التي تملأ حائطًا بأكمله. لقد درست وجوههم جميعًا، وجهًا وجها، إنهم في الريف، تتدفق المياه من مكان ما. يقف هرانت بالبذلة ذات السروال المضلع التي كان يرتديها دوما، ويداه في أعماق جيبيه. ربما كانت تلك هي الجنة التي أشارت إليها راكيل. يقف هرانت وسط مجموعة الأطفال تلك ويبتسم. أصعد إليه وأقول: "لقد رأيت هؤلاء الأطفال، رأيتهم .. في يريفان". وقد ابتسم لسبب ما. أخبرته عن خبراتي في باريس. ضحكنا أكثر. كانت سعادة كبيرة بالنسبة لي أن أخبره أن مئة ألف شخص قد سار في موكبه الجنائزي. تحول الحلم إلى شاشة سوداء، ثم انتهى.

مرت الأيام، بدأت عناوين جديدة في الظهور في صحف الصباح. وذلك عندما بدأنا في رؤية ما كان متقيحًا في الوباء الذي انتشر بموت هرانت. تصرخ العناوين "كلنا أتراك"، وذلك على الرغم من أنهم يعلمون بشكل ما، ما نفكر فيه بالضبط. إنهم يعلمون أننا نريد تفسيرًا للجريمة، وأننا نريد لأشباحنا أن ترتاح. ولكنهم رغم ذلك غزوا أحلامنا وكانوا يصيحون: "أمعنوا في ملامحكم ! أنتم لستم أرمن!" من الجيد المناداة بأننا "كلنا فلسطينيون" أو "كلنا عراقيون"، لكن أرمن!! إن ذلك يفسد الأمر، وبمجرد أن يحدث ذلك، فستموت وحدك.

وهكذا بدأ رد الفعل العنيف، أخبار إطلاق النار من القوميين تجتاح البلاد جميعًا. وقد تزايدت حدتها مع مراسم الجنازات التي عقدت لجنودنا الشهداء في الجنوب الشرقي، كانت حادة لدرجة أن المراهقين في الحركة القومية بدؤوا يطلقون النار أمام بنايات الجيران التي يعيش فيها الأكراد: "أُخرجُوا."

سقط الظلام على تركيا، بعد يوم واحد من مقتل هرانت. لقد رأى الناس الثقب

في نعل حذاء هرانت. عرفوا أن شخصًا مثلهم قد قتل. هذه المرة كانوا قد رأوا أرمينيا يقتل أمام أعينهم: كان هذا هو وجه الخطر. إن ثقبًا قد انفتح في الطعن بال"الأرميني الخائن"، ومن خلاله تسرب الشك والذنب والغضب والألم. ماذا لو بدأ الناس في طرح الأسئلة؟ أسئلة حول أرارات .. جبل آغري الخاص بنا؟

**

لقد بدأ الناس في طرح الأسئلة؛ أسئلة صغيرة بأصوات هامسة. هذه الأسئلة الصغيرة يجب إخمادها بجُمل كبيرة. وذلك السبب في تغير العناوين الرئيسية من يوم ليوم. الثرثرة يجب التغطية عليها بغطاء من القومية الشديدة. لقد دفن هرانت في هذه الأرض التي أحبوها ، لقد حدث الأمر تمامًا كما قال:

"نعم، لقد كانت عيناي على أرضك، ولكن ليس لأستولي عليها، وإنما لأدفن تحت أعماقها!."

كان أرارات الآن أعمق من أي وقت مضى. آغري، أعلى جبل في تركيا.

***

بعد أيام قليلة، ظهر شخص على شاشة إحدى محطات التليفزيون التركي، والذي انتقد اتجاه هرانت نحو المسألة الأرمينية، بشكل بدا استرضائيًا. شخص وجهة نظره في مسألة العلاقة التركية الأرمينية بعيدة كل البعد عن وجهة نظر هرانت، شخص سأقوم بمقابلته شخصيًا في باريس. مرة أخرى، شخصية من الأرمن النازحين يأخذ على عاتقه حمل التحدث بالنيابة عن كل الأرمن.

أستطيع أن أرى أن مشهد المائة ألف شخص الذين يسيرون وينتحبون من أجل هرانت مهددٌ بفتح حوارات عن التضامن مع النازحين بنفس الطريقة التي فتحت بها حوارات حول التوجه التركي نحو المسالة الأرمينية. لقد كان الأمر خطيرًا على أهل الغربة من الارمن كما هو خطير بالنسبة للموقف الرسمي لتركيا. وبالنسبة لرجل الشارع، فقد شطر موت هرانت صورة "الأرميني الخائن"

لشطرين؛ وصورة "التركي الرهيب" كانت قد تقوضت هي أيضًا. بنفس الطريقة تمسكت تركيا بصورة "الأرميني الخائن" في سبيل إخماد الحديث عن ماضيها، وَرَدَّ النازحون الأرمن بالتمسك بصورة "التركي الرهيب" لتحافظ على وحدتها وتحفظ هويتها سالمة. وانطلاقًا من حديث الأرمن للتلفاز نيابة عن كل النازحين ، لم تكن تركيا هي الوحيدة المنشغلة بالتغطية على اللغو والثرثرة.

16- زازاكية: لهجة محلية في كردستان وشرق الأناضول. (المترجم).

17- أسماء بعض المدن التركية. (المترجم)

18- عائلة أرمينية افترضتها المؤلفة.

الجزء الثالث

أَوَدُّ أن أقومَ برحلةٍ؛ لأتعرَّفَ على الأتراك أيضًا

الفصل السابع عشر: ليس هناك ما يدعو للضحك

يخطو خارجًا من المدخل الأمامي للمطعم الإيطالي الراقي في لوس أنجلوس رجلٌ أنيقٌ قد تعدى منتصف العمر يحمل حافظةَ أوراقٍ صفراءَ تحت ذراعه. من الواضح أنه على علاقة وطيدة مع السيد المسن، الذي يبدو كشخصية خرجت لتوها من فيلم العراب. تهامسا بشكل تآمري. أشار السيد المسن إلى مكان جلوسنا بنظرة ذات مغزى، وعليها أتي الرجل الأنيق بخطوات سريعة ليجلس على طاولتنا.

كنا على وشك النهوض لتحيته عندما وضع كلتا يديه على الطاولة، وقال: "دعينا نضع بعض القواعد الأساسية من البداية. لن تفصحوا عن اسمي، ولن تنسبوا إلي أيه مقولات، ولن تعطوا أي تلميح عن هويتي بأي طريقة كانت. وبالطبع لن تلتقطوا أي صور".

للحظة أطبقت فمى صامتة، هذا الذى كان يستعد للابتسام وإلقاء التحية. علم أنه أقام حاجزاً بيني وبينه، وشرع فى التفسير قائلا: "أنت تعرفين معنى (القواعد الأساسية)، أليس كذلك؟"

أجبته مؤكدة "نعم أعرف". ثم توقفت لحظة قبل أن أستطرد قائلة "لكنني لم أعلم أنها تفرض من جانب واحد".

لم يكن لديه النيةُ فى تغيير لهجته عندما قال "حسنًا أيتها الشابة، أنا غير مهتم باجراء حديث معك، وإن لم توافقي على شروطي، فلا نيةَ لدى للجلوس على هذه الطاولة. لذا عليك ان تخبرينى هل توافقين أم لا؟"

تجمدت للحظة، لحظة تسارعت فيها أفكار عديدة في رأسي.

***

بعد وفاة هرانت، بدا لى أن كل شيء فقد معناه. ترددت فعلاً فى الذهاب إلى

أمريكا، فقد بدأت أظن أنه ليس أمامنا فرصة على الإطلاق. فالأشخاص مثلي ومثل هرانت، الذين آمنوا بضرورة الحوار، لن يصبحوا محل ترحيب على الإطلاق، ووجدت أن إيصال أصواتنا سيكون صعبًا للغاية. ولم يقتصر الأمر على المسألة الأرمينية؛ فكل مبادرة دعمت من قبل المفكرين الأتراك لدفع عملية إرساء الديمقراطية قد أحبطت وأوقفت. فالخطاب السياسي كان قائمًا على أسس وطنية متعصبة. ولم تقتصر خسائرنا على هرانت، ففي خلال فترة زمنية قصيرة، كل المكاسب التي جُنيت باسم حرية الفكر قد فقدناها. والمسدس الذي وُجه إلى هرانت قد استهدف العقول كما استهدف القلوب.

وبصفتي صحفيةً تكتب حول القضية الكردية، والسجناء السياسيين، والإضراب عن الطعام، والإسلام السياسي، والقومية، والعديد من المشاكل الشائكة الأخرى، تتلخص ملاحظاتي في أن لا أحد يقتل الطائفيين المتشددين على الجانب المقابل له من اللعبة لأنهم مستفيدون من وجودهم، لكن من يرفضون الانضمام إلى اللعبة هم من يلاقون القتل. فوجودهم يهدد اللعبة ولاعبيها في كلا الجانبين. لذا تتم تصفيتهم. كما تستهدف عمليات الاغتيال السياسي أيضاً المجموعات التي تمثلها الضحية. فقد قتل الكاتب والشاعر موسى عنتر عام 1992، وتم إسكات صوت شجاع معبر عن القضية الكردية. وتم تفجير أوغور مومجو عام 1993، وبذلك انتهت الصحافة المستكشفة التي تحقق في العلاقة الغامضة لثلاثي الدولة والسياسية والمافيا. وكذلك قُتِلَ آخرون، لطالما كان هناك آخرون... وأخيراً، مات هرانت، ودفنت معه فرصة تركيا لمواجهة ماضيها واستجوابه.

تم إسكات تلك الأصوات المعارضة، الصوت تلو الآخر، حتى ساد الصمت. وهذا هو الشعور الذي ساد تركيا في تلك الأيام، أرض الأصوات التي أخرست. والأسوأ من ذلك هو استبدال الإحساس بخسارة هرانت بإحساس الاستسلام. لم أكن في حالة تسمح لي الذهاب إلى أمريكا، وبالأخص للتحدث مع أكثر الأعضاء القتاليين من جالية المغتربين الأرمن.

وفى هذا التوقيت بالضبط وصلتنى مكالمة هاتفية من ايزابيل التى كانت فى اسطنبول. وتبادلنا التحيات، بالضبط كما فعلنا في باريس من قبل. وحددنا موعداً لنلتقي.

الألم ليس دائماً حادًا، ففي بعض الأحيان يتدفق داخلك بشكل انسيابى دافئ. كما أنه ليس دائماً ثلجياً، ففي بعض الأحيان يتشاركه شخصان، ويصبح أقرب للشعور بالمرور من خلال تيار دافئ في بحر بارد. إيزابيل وأنا على الفور عانقنا بعضنا البعض دون أن نقول كلمة واحدة. فبرحيل هرانت، قد تغير كل شيء، استغرقنا فى العناق. كان هذا العناق أيضاً شكلاً صامتاً للتواصل، وكأنه يقول "أعلم، قد آلمني أنا أيضاً".

كان الجو دافئاً بالخارج وكان الغجر ينتقلون من حانة إلى أخرى، يعزفون الموسيقى. كان الليل المنعش يخيم بالأجواء يصاحبه عزف الكمان العذب الشجي، وكنا نتحدث عن جنازة. قلت: "قد تحول هرانت إلى شئ آخر، إلى رمز". بدت إيزابيل غاضبة بعض الشئ وهي تقول: "قد يكون ذلك صحيحاً هنا. لكن الأمر مختلف تماماً بالنسبة لجالية المغتربين الأرمن. فقد حولوه إلى شئ آخر، شخص آخر. لو رأى هرانت ما يفعلون لكان استشاط غضباً". أخبرتها عن الرجل الذي شاهدته في التلفاز بعد الجنازة، يتحدث نيابة عن جالية المغتربين. فقالت: "هذا ما أقصده. هؤلاء الرجال أنفسهم الذين نصحهم هرانت بالتخلي عن الكراهية التي يكنوها للأتراك هم المتصدرون للمشهد. هؤلاء الذين ما كانوا ليتحدثوا إلى هرانت عندما كان حياً قد أعلنوا أنه أحدث شهداء الإبادة الجماعية. وقد أصبح هرانت شيئاً لطالما كان ضده".

لم تكن هناك حاجة للاستفاضة في المزيد من التفاصيل، لكننا بكينا معاً، مرة أخرى. ثم تعانقنا، من خلال هرانت، مرة أخرى. وعندما كنت في طريقي للمنزل أظن أنني فجأة اعتراني الغضب.

الغضب ليس بأمر سيئ، فهو يحرك المشاعر، ويساعدك على تحديد هدفك.

قررت الذهاب إلى أمريكا، حتى لا يكون هرانت وحده هناك، إن لم يكن لأي سبب آخر. ستكون هذه أصعب رحلة نذهب بها أنا ويورتاش على الإطلاق، أصعب من الذهاب إلى لبنان عقب القذف أو من مشاهدة الأطفال الأكراد المعذبين من الجنوب الشرقي. كان هرانت دائم التواجد، ولم نستطع توقع ما كان ينتظرنا. جلسنا والألم لا يزال في عنفوانه، تماما كما كان عندما كنا نكره أنفسنا على الموافقة على "قواعد اللعبة".

***

"حسناً، أخبريني، هل توافقين أم لا؟"

أومأت بالموافقة. عندها جلس على الطاولة هذا الشخص الذي يتمتع بنفوذ طائل في دوائر اللوبي الأرميني، والذي سندعوه من هذه اللحظة فصاعداً بالسيد "براونيان". نهض يورتاش وتركنا لأنه لم يتحمل طريقته فى التعامل، ولأنه لم يكن مسموحًا له بالتقاط الصور. توقعت أن تسير الأمور على ما يرام كما هو معتاد، فأكثر من يترددون في الحديث ينتهي بهم المطاف بالحديث أكثر من غيرهم. أردت الاستماع إلى السيد براونيان، وأردت فهم ما الذي يثير حفيظته. كنا ننتظر ضيفاً ثانياً، شخصية بارزة ليس فقط في الساحة الأرمينية لكن أيضاً في المشهد السياسي القومي. سرعان ما ظهر عند الباب. وبأسلوب راقٍ وسلوك ينم عن شخص مثقف، أصر هو أيضاً على القواعد نفسها: "السيد سميثيان" كان مستعداً لإجراء اللقاء.

كان السيد براونيان، الذي أظهر عزوفه عن الحديث معي، هو من بدأ في إثارة الموضوع بمجرد جلوسه. "إن رفض تركيا الاعتراف بارتكابها الإبادة الجماعية هو الرابط الذي يجمع الجالية الأرمنية. في حالة تم الاعتراف بارتكاب الإبادة الجماعية، على الأرجح ستكون النهاية".

كان السيد سميثيان يعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة، وأراد أن يشرح بالتفصيل المراحل التي مر بها مجتمعه في أمريكا. "أوائل النازحون هنا

أضطروا لتغيير أسمائهم ليستطيع المجتمع الأمريكي تقبلهم. وتزوج الرجال من نساء أمريكيات، لكن لاحقاً حدثت صحوة أرمينية بين أفراد جيلنا. حتى إن الأشخاص غيروا من ألقابهم الأنجلوسكسونية، من توماس إلى توماسيان على سبيل المثال. قرروا الرجوع إلى أسمائهم الأرمينية. أرادوا الرجوع إلى أصولهم".

كان السيد براونيان الذي كان غير راغب في الحديث، متلهفاً له مرة أخرى، وقد أطال الحديث. "اِنصَبّتْ اهتمامات آبائنا على أن يكونوا أمريكان. لذا فقد غيروا أسماءهم وألقابهم. وكانت نهضة جيل من المتعلمين بشكل أفضل وأكثر ثراءً ما أدى إلى تولية اهتمام أكبر بالشئون الأرمينية. فقبل هذا الجيل، لم يكن أحد يتحدث حول هويته الأرمينية، حتى الأمريكان لم يكن لديهم أية فكرة عن ماهية الأرمن. سأوضح لكِ ما أعنيه، وستكونين أول تركية تتفهم ذلك".

أخرج السيد براونيان قرصًا مدمجًا من حقيبته، وأشار بإصبعه إلى الغلاف المرسوم عليه، مشهد من الغرب المتوحش."هل تعلمين من هؤلاء الأشخاص؟"

"من؟" "هنود من فريسنو!" وماذا يعني ذلك؟ "إنهم أرمن!"

كان يضحك ضحكاً خافتاً وهو يروي له قصة أول مجموعة من المهاجرين الأرمن، الذين استقروا في مدينة فريسنو. "كانوا يصنعون أفلام رعاة البقر في ثلاثينيات القرن الماضي. عندما لم يتمكن المنتجون من إحضار أية هنود، أحضروا الجالية الأرمينية بأكملها إلى موقع التصوير. أصبح كل منهم إما كومبارس في هذا الفيلم أو لعب دوراً، لذا توجد اليوم أفلام رعاة بقر يلعب بها الأرمن دور الهنود". ثم أصبح السيد براونيان جاداً فجأة "كان الأرمن غرباء لهذه الدرجة عن أمريكا، حتى أنهم لم يفرقوا بينهم وبين الهنود. لكن الآن، وبفضل الأفراد ذوي النفوذ والأثرياء من جيلنا، عرف الناس من هم الأرمن".

كان السيد براونيان يحمل نظرة انتصار لرجل نجح أخيراً في إثبات وجوده ووجود شعبه للأمريكان، قد كان بإصبعه الذي يشير به إلى هنود فريسنو خاتمٌ

يرمز لارتياده أرقى الجامعات. إنه أدى اللعبة ملتزماً بالقوانين الأمريكية، وقد فاز.

الجميع يعرف الآن من كانوا: كانوا أرمن، وليس هنوداً. وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على الفئات العديدة التي تضمها الجالية. وفقاً لما يخبرني به السيد براونيان والسيد سميثيان، فهناك درجة ما من الشعور "بالاغتراب" بين مجموعات الأرمن الأمريكان العديدة. على سبيل المثال "تختلف جالية المغتربين في بوسطن عن نظيرتها في لوس أنجلوس" ويقال بأن الأرمن يعرفون أنفسهم بأنهم "سكان الشرق أو سكان الغرب". أما الأرمن في بوسطن يتسمون أكثر بالطابع الأوربي، ونظراؤهم في لوس أنجلوس يتسمون أكثر بالطابع ... الأمريكي! والأرمن من إسطنبول، المعروفون "بالبولسهاي" يتسمون أكثر بالطابع "الأوربي/العالمي"، في حين أن الأرمن من أرمينيا هم الأسوأ حالاً، حيث إنهم لا يزالون "روسيين" في أعين الأمريكان.

كان السيد براونيان يعدد الفئات والفئات المتفرعة عنها عندما تطرق إلى فروق أكثر تمييزًا: "يُنظر للأرمن من فان (جنوب شرق تركيا) على أنهم "يهود الأرمن"، والأرمن من هاربوت هم الأفضل من حيث التعليم، والأرمن من بيتليس يجيدون جني المال".

وفجأة في هذا المطعم الإيطالي الراقي في لوس أنجلوس انسابت أسماء المدن الواقعة في الأناضول المدينة تلو الأخرى. نطقت أسماء جميع هذه المدن بلكنة أمريكية، تلك المدن التي عندما كان يشار إليها بأسمائها الأرمينية، يستحيل على الأتراك معرفتها. من المثير للاهتمام أن التفريقات التي وجدت منذ قرن مضى بين المجتمعات الأرمينية التي أصبحت حالياً تركيا المعاصرة لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا هنا في لوس أنجلوس على يد رجال مثل السيد براونيان والسيد سميثيان. شيء يصعب عليّ تصديقه ، ولكن لاحقاً سأقدر حقيقة ما أخبروني به.

منذ أول لحظة، كان السيد سميثيان يطرح الموضوع بمنتهى التوازن مستخدماً مصطلحات علم الاجتماع. أشار إلى تجربته في الصحوة الأرمينية قائلاً: "عندما كنا صغاراً كان والدانا يتحدثان الانجليزية حتى في المنزل. في فترة الخمسينيات، أيد آباؤنا النموذج السائد حينها، ألا وهي بوتقة الانصهار الكبرى التي تزول بها جميع الاختلافات حيث كان يتم أمركة الجميع. بدأت هذه النظرة في التغير مع قيام الحركة السوداء والاعتراف المتزايد بالتنوع العرقي كنوع من الثراء الثقافي. معظم من هم في سني، بمن فيهم أنا، لم يتعلموا اللغة الأرمينية إلا عندما أصبحنا بالغين. فتحت هذه الصحوة الباب على قومية نفسية. والآن نحن نستمتع بنفوذ متزايد على السياسة والسياسيين، نظراً لكون هؤلاء الأشخاص الذين مروا بهذه الصحوة أصبحوا الآن في منتصف العمر، وهم نشطون سياسياً، يجنون دخولاً متزايدة ويتمتعون بتعليم جيد ومزايا اجتماعية راقية".

وبينما كنا نتحدث حول السياسة والسياسيين الأمريكان، فرضت أحداث 1915 نفسها على الطاولة. لم يدخلا في أية تفاصيل عما حدث في هذا العام، ولم يحاولا حتى شرح رأيهم فيه، فيما حدث أو أسبابه. فقد دخل السيد براونيان مباشرة إلى صلب الموضوع: "نحن لا نريد الأرض، نريد المال!" بهذه الطريقة! لا يمكن أن تزيد عن هذه الفجاجة! أمريكي حقيقي! قال شارحاً :"هذه هي الرسالة التي نريد إيصالها. الرسالة التي نريد إرسالها. يمكننا الاتفاق على سعر. يوجد خبراء يمكنهم تحديد المبلغ بالضبط. وعلى أية حال، إذا وافق الأتراك، ستسدد أوربا وأمريكا المال. أي أنكم لن تتحملوا دفع أي شيء من جيوبكم".

نحن هنا نختلف عن أوربا ولا نناقش ماذا حدث، ولا السبب في حدوثه، ولا ما يمكننا فعله لتغيير المصيرين المتقاطعين لشعبينا، ولا كيف تؤثر هذه القضية على مجتمعينا، نحن لا نعالج أيًّا من هذه المسائل. وعندها فهمت، فمهما ذكر هذان الرجلان مدن الأناضول، فلا يمكنني أن أخرج عن الموضوع. فلا أحد على هذه المنضدة يريد الحوار، أو الحداد، أو الخوض في تفاصيل مشوشة من أي

نوع. الرسالة التي توصلوا إليها هي: "تركيا يمكنها شراء السلام !".

اِندهشت وأنا جالسة هناك من سرعة تحول الحديث إلى المال، فقد انتقلوا إلى الأرقام. ملايين الدولارات. أخبروني بالضبط عدد الملايين التي سيتم عندها انعقاد هذه الصفقة. وشرحوا كيف تم حساب هذا الرقم. وكرر السيد براونيان ما قاله سلفاً: "السلام يمكن شراؤه".

شراء السلام، أفكر في مدى ابتعاد هذه الجملة عن الشرق الأوسط، مدى غرابتها عن تركيا. سألت السيد براونيان "هل ذهبت إلى تركيا من قبل؟". رد وقد تعكر مزاجه "لن أذهب إلى تركيا. فعندما توقفت سفينة الرحلات في كوساداسي لم أخرج حتى من القارب. لن أذهب إلى هناك" لكنه عقب على قوله "على الرغم من ذلك فإنني أتعلم اللغة التركية، هل يمكنك أن توصيني بكتاب جيد للقواعد النحوية؟"

أمر ما غريب يدور هنا. إنهما بعيدان للغاية عن تركيا التي لم يزرها من قبل، ويعتبران هذه المسألة قد حُلَّت إذا أمكنهم تلقي التعويضات. لكن أحدهما يتحدث عن كونه من هاربوت، والآخر من بيتليس. كل منهما يتخذ من الطابع الأمريكي ما يكفيه ليتحدث عن الشؤون المالية فقط، إلا أن هناك لمحة أناضولية للغاية بهما أيضاً. إنهما قريبان كفاية ليرغبا في تعلم التركية، لكنهما بعيدان كفاية ليبقيا في القارب في الميناء عند زيارة تركيا. كنت أمعن التفكير حينما عاد الحديث يدور حول المال مرة أخرى.

قام السيد بروانيان بمراجعة حسابية سريعة لأرباح تركيا وخسائرها. "وفقاً لحساباتي، المال الذي تنفقه تركيا في ممارسة الضغط لتطبق سياسة الإنكار سيكون كافياً لتغطية التعويضات". تعبر النظرة التي يرميني بها عن اندهاشه لعجزي عن استيعاب منطق حساباته، لاستثماره المربح.

كان الحديث على طاولتنا مُنصبًّا تمامًا حول المال، حتى إنني قررت عدم طرح أيٍّ من أسئلتي الأخرى. وبينما كنت أنهض للذهاب، قال السيد بروانيان "يجب

عليكِ نقل هذه الرسالة إلى تركيا. نحن نتوقع رقماً محدوداً لألمنا السرمدي. أنتِ تفهمين، أليس كذلك؟". نعم، نعم....

وأفهم أيضاً ماذا كان يعني فارتكيس يجيان، الرجل الذي رتب هذا اللقاء، عندما قال "الأشخاص الذين ستقابلينهم لا يشبهون مطلقاً من قابلتيهم في أوربا". عرفت من لقاء سابق مع السيد يجيان أنه لا يتفق معهم بالضرورة. هذا بالطبع إلى جانب أن إجراء اللقاء معه كان أسهل بكثير.

***

"اتجه يميناً 350 قدماً. ثم اتجه يميناً 150 قدماً. وبعد خمسة أقدام ..."

كنا نضل طريقنا بسبب يورتاش الذي كان لا يزال مغتاظًا من جهاز تحديد المواقع الجغرافية واتجاهاته الرتيبة وكان يقول متأففاً عندما أغلق الجهاز "اوه!"، ونظراً لعدم نجاحنا في العثور على الطريق الصحيح فعّلنا تطبيق سيدة الملاحة وبدأ يورتاش في الشجار معها . وأكثر الأمور التي أثارت عصبيته هي جملة : "يعيد الحساب!".

وعندما فقدنا اتجاهاتنا تمامًا بين الطرق السريعة المتشابكة، والمخارج والجسور العلوية، كانت سيدة الملاحة مصدر إزعاجنا تعيد وتعيد الحسابات. إذا كان هناك حقاً مدينة ساحلية تدعى لوس أنجلوس، فهي مختبئة. يوجد محيط في مكان ما، لكن لا تفوح رائحة البحر المالحة من أي مكان، ولا أي هدير منخفض ولا صوت للأمواج المتضاربة. منذ عدة أيام نعيش أنا ويورتاش في كوكب غريب مصمم خصيصاً للسيارات وغير المدخنين. كنا نهرب من خطأ النزول في فندق هو بمثابة حانة حقيقية سيئة السمعة وعلمنا بعد فوات الأوان أنه اكتسبت عن جدارة لقب "الموقع المثالي للمواعيد الغرامية السرية"، وقفزنا داخل سيارتنا، التي كانت المكان الوحيد الذي نستطيع التدخين به دون أن نعذَّب صلباً، وبدأنا في البحث عن مكان يدعوه سكان هذا الكوكب "غليندِيل"، حيث سنلتقي مع يجيان.

عندما دخلنا أخيراً المكاتب الأنيقة للمحامي فارتكيس يجيان، الذي وافق على مقابلتنا فقط لو زودناه ببعض الضمانات ، وجدنا مقالاً داخل إطار أنيق يبدو أنه كان عنه في صحيفة حريت التركية اليومية: "المحامي الذي رفع دعوى التأمين الأرمينية". وجدنا يجيان ينظر إلى الجدار، فَحَيَّانا بابتسامة مرحبة. إنه لا يشبه على الإطلاق الرجل الفظ الميال للقتال الذي توقعته. لديه طابع أنيق متحضر للرجل العثماني النبيل، ويبدو أنه من نوعية الأشخاص الذين يختارون كلماتهم بعناية ويفضل أن يطرح هموم هذه الحياة جانباً. أخبرنا على الفور بتصرفه الجاسوسي الصغير: "لقد بحثت عنكِ في جوجل".

رددت "لست مندهشة. فمنذ اللحظة التي بدأت بها البحث في القضية الأرمينية أدركت أنني قد أصبحت أكثر من يتم البحث عنها على شبكة الإنترنت ".

ابتسم وهو يقف أمام القصاصة من جريدة حريت، وبدأ في سرد القضية التي كانت سبب شهرته في الساحة الأرمينية وفي تركيا.

بعد تغيير المسار من دراسة الطب إلى التاريخ في جامعة بيركيلي، تخرج يجيان في كلية لنكولن للحقوق وأمضى الثلاثين عاماً الأخيرة يمتهن المحاماة. وفي يوم ما، ألهمته الأشياء التي قرأها في ذكرى هنري مورغنثاو، سفير الولايات المتحدة إلى الإمبراطورية العثمانية من 1913 إلى 1916، لإجراء مزيد من البحث التاريخي، وبهذا أسس دوره الرائد في هذه القضية.

"يوجد حوار مسجل بين السفير وطلعت باشا في حوالي 200 صفحة من هذا الكتاب. طلعت باشا أخبر مورغنثاو أنه لم يكن هناك أرمن عثمانيون أحياء ممن استولوا على وثائق التأمين الأمريكية، ولهذا السبب أعيدت وثائق التأمين إلى الإمبراطورية. كما أنه طالب بتزويده بقائمة أسماء حاملي وثائق التأمين. وكانت هذه المعاملة المختصرة هي السبب الذي جعلني أبدأ في بحثي. لقد عملت لدى إدارة نيكسون، لذا قمت أولاً بإرسال رسالة إلى وزارة الداخلية أسألهم إذا ما كان لديهم أية معلومات حول هذا الموضوع. أخبروني أنه قد

يكون هناك سجلٌ لوثائق التامين في الأرشيف الوطني. كتبت رسالة إلى الأرشيف وتلقيت الجواب بعد عشرة أيام. أخبروني أن هناك الكثير من سجلات الميكروفيلم وطلبوا مني سداد تكاليف الخدمة. وكان هذا أسرع شيء دفعت مقابله في حياتي. ولم يمر الكثير من الوقت حتى وصلني ميكروفيلم من 590 صفحة من الوثائق.

عندما بدأت الحرب العالمية الأولى، قامت نيويورك لايف، شركة التأمين التي باعت وثائق التامين، بسحب جميع عملياتها في الأناضول. لذا بدأ الأرمن في سداد الأقساط إلى سفارة الولايات المتحدة الأمريكية، ولذا كان يوجد سجل لمقيمي الدعوة في الأرشيف الوطني الأمريكي. لقد تتبعت وثيقة قادتني من اسطنبول إلى واشنطن إلى شركة نيويورك لايف. سألت شركة التأمين عن قيمة هذه الوثائق، فأخبروني أنها 10.08 مليون دولار أمريكي. والآن بما أنني قد وجدت المال، قد حان الوقت لتتبع مقيمي الدعوى. قمت بنشر إعلان في جريدة أرمينية تنشر في أمريكا. لم يكن ذلك صائباً بالطبع. أتاني مئات الأشخاص حاملين صوراً فوتوغرافية، ووثائق ليس لها علاقة بالموضوع، وقصص عن كل ما خسروه. لكن هذا الحشد تضمن أيضاً سيدة في التسعين من عمرها. ولسبب ما، قامت بإخفاء السجلات الأصلية لوثيقة التأمين خلال كل هذه الأعوام. إنها سليلة أحد أصحاب التامين، كانت تحاول الحصول على المال لثلاثين عاماً. أخبرتها شركة التأمين أنه يجب عليها الحصول على شهادة وفاة لأنها ليست حاملة الوثيقة الأصلية. لكن نظرًا للإبادة الجماعية لم يكن هناك بالطبع سجلات من هذا النوع. حينها قررت تحويل هذا الأمر إلى قضية. لم أتوقع أن توافقني سيدة في التسعين من عمرها على هذا الإجراء القانوني الطويل والصعب. لكنني كنت مخطئة. ضربت بقبضتها على الطاولة وقالت متعجبة "لطالما حاولت أن أفهم لماذا أبقاني الله على قيد الحياة كل هذا الوقت. الآن أنا أعلم". في الحقيقة ماتت بعد ذلك بفترة وجيزة، إلا إن أخاها، مارتين ماروتيان، وافق على أخذ دورها بصفته المدعي الرئيسي".

أخبرني يجيان كيف كان إسقاط القضايا بفعل التقادم يمثل مشكلة، ووصف كيف أنه اضطر للتصرف مثل "صائد الغزلان، وانتظر بصبر حتى ظهور الهدف المناسب. "لا تسقط جرائم الإبادة الجماعية بفعل التقادم بالطبع؛ لكن يحدث ذلك لوثائق التأمين. لقد تمكن اليهود من إدخال هذا البند. وتم مد قانون التقاضي للمدعين في القضية مثلنا حتى أواخر عام 2010. كنت في حاجة إلى قانون جديد، لذا تحدثت مع بعض أعضاء مجلس الشيوخ الأرمن في هيئة كاليفورنيا التشريعية وشرحت لهم الموقف. وبعد ستة أشهر، في عام 2000، سمحت لوائح الدولة برفع قضايا في كاليفورنيا للدعاوى الناشئة عن الإبادة الجماعية للأرمن. قمت بكل هذا بأقصى درجات السرية الممكنة. فلو علمت شركات التأمين بأية بادرة عن ذلك، بالطبع كانت ستحاول منعه".

رفع يجيان الدعوى الجماعية، وقبل أخيراً بتسوية 20 مليون دولار أمريكي. ثم قام بنشر الإعلانات على الإنترنت ليجد المستحقين. ومن إجمالي 2,300 حامل وثيقة تأمين، أتي منهم ستة عشر ألفًا، ونظراً لغياب سبعمائة شخص من مقيمي الدعوى، تم التبرع بالمستحقات إلى الجمعيات الخيرية الأرمينية. أقام يجيان دعوة مماثلة ضد شركة التأمين الفرنسية أكسا (لايونيونفي سابقاً)، والتي اتفقت على تسوية تبلغ 17,5 مليون دولار أمريكي، لكل من الأرمن وتركيا. كان أهم جانب في هذه العملية القانونية المعقدة هو تسمية "ضحايا الإبادة الجماعية للأرمن" التي استدعتها أغراض قانونية. والأهم من ذلك كان احتمالية استخدام نجاح دعاوى التأمين كسابقة قانونية لدعاوى التعويضات من قبل الجالية الأرمنية للنازحيين والمغتربين. ووفقاً ليجيان، تم تشكيل فريق من أساتذة الاقتصاد لحساب القيمة الحالية لجميع الأقساط التي تم تسديدها لشركات التأمين التي كانت تعمل خلال فترة الإمبراطورية العثمانية. وقال السيد يجيان بأن الأساليب ذاتها يمكن أن تستخدم لحساب إجمالي الخسائر المادية للأرمن الذين عاشوا في الأناضول قبل عام 1915. قد أسفرهذا عن القضية الناجحة التي رفعها يجيان "سعر السلام" لجالية المغتربين النازحين. لكن هل سيفلح هذا؟

أما عن موقفه من مراجعه التسويات والقرارات القانونية، كان السيد فارتكس يجيان يعتقد شخصياً أن هذه الأساليب لا تعني الكثير لأي من الجانبين: "الأحكام والقرارات التي تقر الإبادة الجماعية هي في الحقيقة عديمة المعنى إن لم تجمع بين الجانبين. العديد من الدول الآن تقر الإبادة الجماعية. والنتيجة؟ لم تسعَ أيٌّ من هذه الدول إلى الجمع بين الأرمن والأتراك لحل المشكلة. والأسوأ من ذلك كان رد فعل تركيا العنيف تجاه هذه الدول مما شحن القضية شحنًا سلبيًّا". وبابتسامة تنم عن خيبة الأمل، يحدد فارتيكس يجيان القواعد هنا في أمريكا وفي أنحاء العالم كافة: "الجميع يجني المال من هذا الأمر. هذا النزاع يعود بالثراء على بعض الأرمن والاتراك. لقد أصبح الأمر مادياً. "أعطنا المال وسنمرر لك القانون". هذا ما يحدث منذ خمسين عاماً. المحامون والسياسيون في الولايات المتحدة، جماعات الضغط في تركيا، هذا الأمر مربح لهم جميعاً".

يمتهن السيد يجيان المحاماة، وهو غير مضطر للدخول في جدال حول الأحداث، لكنه ببساطة يتبع قواعد اللعبة، بما يتوافق مع القانون، وذلك حتى يفعل ما يتطلبه الأمر للفوز. على الأرجح قد أرهق من الحديث حول هذا الأمر، الجانب الساخر من المكافحة للحصول على العدالة، ونهض سائراً في اتجاه رف الكتب وجذب ملفاً من بين الملفات العديدة. لانت تعابير وجهه حيث فتح الملف بعناية وأزال الصور. كانت صورة طفل، صبي أم فتاة، لم يمكنني تحديد ذلك. صورة قديمة لطفل حافي القدمين يرتدي غطاء أبيض للرأس من طراز عربي، ويرتدي ما يبدو وكأنه ملابس طويلة للنوم وجلد الحمل المدبوغ حاملاً عصا. كانت النظرة التي تعلو هذا الوجه نظرة طفل نسي كيف يكون البكاء. "جميلة، أليست كذلك؟" ضحك فارتيكس ضحكة خافتة.

ثم لان صوته ليتماشى مع وجهه، حيث حدق في الصورة. "هذا أبي". ثم صمت. "في عمر الخامسة عشر، بعد أن قطع الصحراء ووصل إلى مدينة في سوريا، ذهب إلى محل التصوير وأُخِذَتْ له هذه الصورة. قال "ليس لدي أي مال، لكنني

سأعمل وأدفع مقابل هذه الصورة. يجب أن تلتقط صورتي لأنني سأحتفظ بها لباقي حياتي وسأتذكر دائماً". لا تسأليني عن التفاصيل، لكن أبى توفي في إثيوبيا، وأنا إثيوبي".

ضحك من دهشتي، لكنني عندما فتحت فمي لأطرح سؤالاً أسكتني ملوحاً بيده. كان بالفعل لا يريد الخوض في التفاصيل. "عندما توفي أبي في إثيوبيا، كان هذه الصورة في محفظته. في بادئ الأمر لم يكن لدي فكرة عمن كان صاحب الصورة. كنت لم أرها في حياتي من قبل. لذا سألت والدتي. قالت "هذا والدك". سألتها "لماذا احتفظ في محفظته كل هذه السنوات؟ هل كان بدافع الغضب من الأتراك؟". أجابتني "لا، حتى لا ينسى أنه قد نجا". والآن أحتفظ بهذه الصورة أيضاً حتى لا أنسى".

بعد جميع الدعاوى القضائية، وعلى ضوء قصة والده، كيف يشعر فارتكيس يجيان حيال الأتراك؟ يجيان رجل يفضل الرد على الأسئلة بقصص. واصل قصته قائلاً "درست في المدرسة الأمريكية التبشيرية في قبرص. وللمرة الثانية، لا تسأليني على أية تفاصيل. حينها لم أشتهر بكوني محامياً، لكن بكوني رياضياً شاباً!. كنت لاعب تنس بارع. عندما أصبحت بطل التنس القبرصي، أتت جريدة مشاهد الأرمينية لإجراء لقاء معي. سألني المراسل "هل أنت فخور بكونك أرميني؟". رددت منزعجاً "لقد دربني الأتراك، وأحاول غلب اليونانيين. ما علاقة أي من هذا بكوني أرميني!". ذهب المراسل وشكا إلى مديري، الذي جلس وكتب رسالة إلى والدي. بعدها تضمنت الرسالة التي أرسلت إلى والدي شيئاً يشبه: "قد سألك المراسل هذا السؤال حتى تلهم الفتية الأرمن الآخرين ليكونوا ناجحين مثلك. قد لا يكون الأرمن فعلوا الكثير من أجلك، لكن يمكنك فعل الكثير من أجلهم". لذا أظن أن هذا يجيب على سؤالك".

وقد فعل. بعد أن تركنا مكتب فارتيكس نظرت إلى الصورة القديمة التي أعطاها لي. هاتان العينان- عينان لن تنسى الجوع أبداً. فكرت في جدتي. تذكرت قصة كانت تحب أن تقصها علي، لسبب ما: "كنا فقراء للدرجة أننا

عندما كنا نتناول السمك على العشاء كنت آخذ الشوك في علبة غدائي اليوم التالي. وعندما لم يكن هناك أحد ينظر لي، كنت أجثو على الأرض في الركن وألتهم هذا الشوك. لذا فمن غير المسموح أن تشتكي من الطعام على الإطلاق".

الحرمان والألم: معظم الأشخاص الذين مروا خلال الأناضول يعرفون كلاهما. وإن كان هذا السبب وراء إحساسى بأن فارتكيس يجيان يبدو كأخ لي، إلا أنه أيضاً السبب وراء شعوري بأنه بعيد كل البعد عن هذين الرجلين وحساباتهما في المطعم الإيطالي. بعيد بقدر بعدي عن الخطب التي تصم الآذان التي يلقيها الوطنيون الأتراك. في بعض الأحيان أشعر وكأننا مجتمع قائم بذاته، نحن من لدينا الرغبة الصادقة في مشاركة قصنا دون أن يصرخ أو يصيح أي منا. شعب تجمعه حكايات الأناضول. أبناء أشخاص قد ذاقوا الجوع و تبادلوا القصص، إن هؤلاء الأشخاص، لن يغيروا نظرة الأتراك إلى الأرمن والأرمن إلى الأتراك فحسب، بل سيغيروا نظرة العالم بأسره إلى القضية الأرمينية التركية. قد تشتت شعب، في أرمينيا، وفرنسا، وأمريكا ومن يدري كم من البلاد الأخرى، لقد أصبحوا مغتربين حتى في بلادهم. الأتراك الذين رثوا فقدان أفضل ما في بلادهم ينتمون إلى جالية المغتربين. وكذلك من ساروا وبكوا في موكب جنازة هرانت.

اليوم أحدق في صورة فتى جائع ، وأعتقد أن لهذه القِصَصِ تأثيرًا أكثرَ من الصراخ والنواح، إلى جانب أنها تستمر لمدة أطول .

الفصل الثامن عشر: ما الذي تحبه الأمهات أكثر من أطفالهن

هؤلاء الناس يغدون شيئًا فشيئًا أكثر شبهًا بالأجداد والجدات الذين لم نعرفهم يومًا من قبل.

عادت روث توماسين مرة أخرى تبحث عن شعر رمادي، وأرتني صورة قديمة أخرى لزوجين شابين. يذكرني الاحترام الذي أظهرته هذه المرأة متوسطة العمر وهي تريني الصور ذات الأبيض والأسود لهؤلاء الرجال والنساء بالإجلال الذي نظهره لكبار السن. (روث) واحدة من النساء اللاتي قد تلتقي بهن في أي مكان في العالم، نساء قد وجدن قصة يؤمنَّ بها، وتابعنها حتى غدت هي حياتهن كلها. إنها تبدو أكبر من عمرها، ربما لأنها ظلت تدرس الحقائق في هذه الصور لسنوات عديدة.

حكت لي قصتها بسلاسة ، إرث والدها الأرميني، والدتها الأمريكية، و"مشروع الذاكرة"، أرشيف الذكريات الذي كرست حياتها من أجله "اعتدتُ أن أصمم الملابس للمسرح. وفي أحد الأيام، بدأت جمع الصور الفوتوغرافية للأرمن كبحث لإحدى المسرحيات، حتى هذا اليوم كنت أَعُدُّ نفسي أمريكية. لكن عندما وجدت تلك الصور في خزانتنا بدأت رحلة في الماضي - ماضيَّ أنا وماضي الشعب الأرميني. عندما بدأ الناس يرسلون إلينا صورهم اكتشفت شيئًا، لقد كانوا دومًا يخبرونني عن القصص التي خلف الصور، وما اكتشفته هو ذلك السلام العميق الذي كنت أشعر به عندما أسمع حكايات عن أسلاف أبي، وقلت لنفسي "أنا لن أكسب أية أموال من السعي وراء القصص، لكن لا يبدو أنني أجنى مالاً من المسرح هو الآخر. لذلك لا بد ان أقوم بما يسعدني. وهكذا بدأت هذه الصور وحكاياتها في التراكم فوق بعضها البعض. إن ما ترينه هنا هو ألبوم صور هائل للعائلة الأرمينية."

"مشروع الذاكرة" تم حفظه في حجرة هادئة بالدور العلوي للمتحف الأرميني بواترتاون، حى أرميني في بوسطن. في اللحظة التي تطأ فيها قدمك الحجرة خافتة الضوء، ستحييك وجوه حزينة في أطر بيضاوية كبيرة معلقة على الحائط. المتزوجون حديثًا، فتاة بعباءة بيضاء تجلس قبالة البيانو، زوجان متوسطا العمر، هؤلاء الناس من زمن بعيد هم من وصفتهم روث قائلة "مثل الأجدات والجدات الذين لم نعرفهم يومًا".

تذكرت سطرًا من رواية بيرتوليوتشي "أهل الأحلام the dreamers" "نحن نقارن آباءنا وأمهاتنا بآباء أصدقائنا، لكن أجدادنا وجداتنا دومًا متفردون". إن ما يجعلهم متفردين هو حبهم الهائل غير المشروط لنا. لكن ما الذي يجعل الأجداد الذين لم نعرفهم أبدًا متفردين؟

بينما نجري الحوار لا ننظر لبعضنا البعض وإنما ننظر للصور. وبينما نتجول في أحياء أرمنية من عشرينيات القرن الماضي، تشير روث إلى "المواطنين الأمريكان الشرفاء". "بالعودة إلى ذلك الوقت، فقد كان أهم شيء هو أن تكون أمريكيًا، وهذا هو السبب الذي جعل أغلب الرجال الأرمن يتخذون زوجات أمريكيات. حافظ غيرهم على التقاليد وسافروا إلى لبنان وأرمينيا لإيجاد زوجات لهم. ذلك يعيدنا نوعًا ما لهذه الأيام، العديدُ من الشباب يفضلون زوجة من أرمينيا".

تبدو الحجرة ممتلئة بروائح الذكريات، بالروائح والناس. ابتسمت روث وهي تمسكني متلبسة بشم بعض الصور، وكأنني بذلك أستعيد رائحة من الماضي. الآن، جنبًا إلى جنب مع "المواطنين الشرفاء" نرى الصور التلقائية للأناضول، صورٌ للأشخاص "الآخرين". تم ترتيب الرجال وإبعادهم، يستديرون لحظة واحدة لينظروا إلى الكاميرا. النساء اللاتي تم جمع رجالهن، هذه الصورة ربما تكون هي الأولى والوحيدة في حياتهن، لم يستطعن تمشيط شعورهن. لقد عرفت بعضًا من المدن، سيفاز، مالاتيا، إلازيج، بعض علامات الأرض لم تتغير، ويمكن معرفتها لليوم. لقد وجدت نفسي أتخيل ما حدث، الشوارع والطرقات

الممتدة التي كان الأرمن يسلكونها ويقودون فيها سياراتهم. كلما درست الوجوه والأماكن عن قرب كلما زادت المشاهد التي تجري في مخيلتي حياةً. إنني أكاد أسمعهم تقريبًا. أيمكن أن يكون هؤلاء الناس في الصور قد عرفوا أن حياتهم وقصصهم ستؤدي ذات يوم إلى كلمة "تعويضات" - إلى خيانة أصدقائهم، إلى فقد منازلهم ومحبوبيهم، إلى الطريقة التي ضحى بهم بواسطتها عند نقطة من التاريخ؟ أيمكنهم أن يتخيلوا ما الذي سيقوله عنهم أحفادهم ذات يوم، الصغار الذين لا يتكلمون لغتهم ووجوههم تشبه الأجانب أكثر مما تشبههم؟

بينما يمشون مجهدين في الطريق الذي لا عودة فيه، تجمدت صورهم ذات الأبيض والأسود للأبد بالضغط على زر التصوير، هل كان يمكنهم أن يعرفوا أن هذه اللحظة سيتم الاحتفاظ بها بعيدًا جيدًا جدًا ذات يوم؟ عيونهم التي تحدق في العدسة تبدو كأنها تحدق في المستقبل، في العيون التي سترد لهم التحديق يوما ما، العيون التي ستحدق في عيونهم بكل عمق...

تَفجرت الكلمات مني: "هذا الأمر لن يحل أبدا، أحيانًا أشعر... أنه أصبح صناعة كبرى، ليس فقط صناعة الأموال والسياسات، وإنما صناعة نفسية أيضًا، لكلا الجانبين، صناعة العذاب."

عندما يلتقي أرميني وتركي، لا تكون هناك حاجة لشرح التفاصيل باستفاضة، على الفور فهمت روث ما أعنيه، فقالت "صناعة العذاب؟ هذا أمر مثير، هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها شخصًا يتحدث عن الأمر بهذا الشكل". توقفت عن الكلام ثم نظرت إلى الصور بابتسامة أليمة وقالت: "هذا صحيح، صناعة العذاب".

تلتقط روث إحدى الصور بأطراف أصابعها وتضعها على الجانب الآخر من الطاولة لتترك متسعا للصورة التالية - تفعل ذلك ببطء وكأنها تعالج شيئًا مجروحًا، حريصة على ألا تُحدثَ تصادمًا بينهم. عندما تتحدث، فهي تبدأ

بفكرة متوسطة: "لقد كان للأرمينيين حياتهم الثرية، لقد أفنينا أنفسنا بالتركيز على التطهير العرقي وحده. لكننا نحتاج دولة أيضًا، الأرض الأرمينية المصورة في هذه الصور لم تعد موجودة، لذا فنحن نبني دولة من ذكرياتنا". البنات في فساتينَ بيضاءَ مهندمةٍ، شعورهن السوداء مطوية للخلف. ساعات يد وأحذية مربوطة متربة. أولاد ممتلئون يسعون جاهدين للحفاظ على اللقطة البطولية. مجموعة من نساء ورجال مرهقين، لكنهم يقفون شامخين أمام منزل مازال قيد البناء، أمام جياد وعربات تجرها، إنهم في .... أمريكا.

"هذا هو السبب الذي جعلني أبدأ في فعل ذلك. هناك الكثير من الأمور لدى الأرمن غير التطهير العرقي. هذه الصور قد تم جمعها لفهم هؤلاء الناس وفهم كيف عاشوا". بينما روث تدفع بفتح صور أخرى لرسام فوتوغرافي، حكت لي عن النزهات الأمريكية الشهيرة، هناك لقطات بانورامية لمجموعات كبيرة من المتنزهين في عام 1920. "لقد وصلوا هنا قبل عام 1915، وبحسب الصور فإن النزهات كانت في الأماكن التي قضوا فيها أغلب فترات نشأتهم الاجتماعية، انظري، إنهم جميعًا يرتدون أبهى حللهم، فحصنا الصور ووجهت روث انتباهي إلى الفتاة: "كانت النزهة في المكان الذي التقوا فيه بأزواجهن المستقبليين، هذا السبب كانت البنات دوما يرتدين ملابسهن بكل جمال".

إن إحساس الأسف والشوق متأصل جدا في كلمة "الشتات" . مشتتون كما نرى في الصور. أفكر في قصة الأرميني الذي أتى إلى هنا قبل عام 1915. توضح قراءة التاريخ الأرميني أن فكرة النفي والهجرة كانت دومًا جزءًا أصيلاً للهوية الأرمينية. لكن قبل عام 1915، لم تكن أسطورة "البلد القديم" جزءًا من الهوية التركية. حتى لو كانوا قد عانوا من المذابح في مراحل عديدة خلال تاريخهم. الوجوه التي أنظر إليها بتمعن الآن، رأيت فيها الطموح والأمل، هذا هو التعبير عن "الحلم الأرميني"، وليس الصدمة التي تلت 1915، مع سعي أبناء هؤلاء الناس في الصور للبحث عن أنفسهم كأفراد من الشتات الأرميني، لابد أنهم قد استشعروا هذه الأحداث اللاحقة، وجعلوا المعاناة معاناتهم الشخصية. ومع

سعيهم لأن يكونوا مجتمعًا متمايزًا عن غيره ، وأن يتذكروا من كانوا، فقد كبلتهم حكايات المذابح أكثر مما فعل تفسيرهم للنزهات في أرض مختارة، حيث لم يستطع السكان المحليون التمييز بينهم وبين الهنود الحمر، فأنت بحاجة إلى قصة جبرية تحكيها لنفسك ولأولادك.

بينما نترك الطاولة متجهين نحو الدرج المعلق والصور الجديدة على الحائط، أشارت روث إلى صورة، "لم يذهب كل الناس غربًا". حدقت في إحدى الصور، وتأخر رد فعلي. "مفاجأة، أليس كذلك؟ أرمن يرتدون الكيمونو، بعضهم ذهب لليابان والهند.

همهمت قائلة "مبعثرون كبذور الرمان"، فوافقتني قائلة "هذا صحيح، كبذور الرمان".

أرتني مجموعة من الموسيقيين، الأفراد والآلات خارجون من اسطنبول القديمة، لكن العنوان يقرأ "بيونيس أيريس"، قفزت ذكرى بعينها إلى عقلي. "هذا مضحك، لقد نسيت تمامًا كل ما يتعلق بهذا الأمر، كان أول من علمني التانجو رجل أرميني، في مركز التانجو الأرميني في بيونيس أيريس". كان رجلاً أبيض الشعر، أبيض البشرة، يرتدي أبيضَ في أبيض من قمة رأسه حتى أخمص القدمين. رغم ذلك فقد كنت أعرف أنه أرميني، لم أفكر في أن أسأله كيف انتهى به الأمر في الأرجنتين. لكنني لم أنسَ أبدًا ما قاله لي: "آنستي الجميلة، إنك تحاولين قيادة الرقصة. هذه الرقصة يقودها رجال، لكي تتمكني من رقصة التانجو عليك أن تتعلمي الاستسلام!" شاركت روث هذه القصة وتضاحكنا على النساء اللاتي لا يعرفن كيف يستسلمن.

بينما نُبحر أنا وروث معًا في الماضي، هي ليست أرمينية وأنا لست تركية، إنها شخص تكمل قصص الناس من بلدي، وأنا شخص يكمل قصص الناس في بلدها. نحن لا نضع اسمًا لقصصنا، لكننا نرويها بتعاطف، ونستمع إليها بفهم. ستكون نغمة الكلام مختلفة تماما الليلة، اليوم هو الرابع والعشرين من أبريل،

وبطبيعة الحال سيتم عقد احتفالية تذكارية في بوسطن.

على مكتبها، دونت روث على عجالة عنوان موقع الاحتفال، بينما أنا أواصل النظـر إلى الصور المعلقة على الحوائط، هؤلاء الأرمن كبار السن- الآباء والأجداد. ثم فعلت كما سأفعل دومًا، هنا في أمريكا، سأتحدث إلى هرانت، فى وجوده وفى غيابه، كل شيء يؤخذ على محمل أخر. هناك شيء واحد تحدث عنه الجميع في أرمينيا، وفي فرنسا، وفي أمريكا، غياب الآباء والأجداد. أنا أتذكر كيف ذكر هرانت الأمر نفسه في الليلة التي فتح لي فيها قلبه وحكى لي قصة حياته.

الأرمن والأتراك يمثلون أنفسهم في الحياة بطرق متباينة جدًا. ففي وصفهم لمجتمعاتهم، يميل الأتراك إلى النظر للأمام. بينما ينظر الأرمن للخلف. تجول في مخيلتي كلمات إحدى الأناشيد التركية القديمة التي يغنيها مؤخرا الشباب والشابات كرد فعل على صعود الإسلام السياسي:

نحن أنقياء بلا ريبة

ظهر هذا بعد الحرب

وفي عشر سنوات صنعنا

خمسة عشر مليون شابًا

في مختلف الأعمار

كان هذا من اللحن العسكري للاحتفالية السنوية العاشرة للجمهورية. مازالت تغنى في تركيا حتى اليوم. أذكر إعادات توزيع لحنها التي كان يتم عزفها وغناؤها في نوادي الرقص الليلي الصيفية، ويشارك فيها الجميع. الكلمات التي تضرب في عقلي الآن تأخذ معنى مختلفا .. أنقياء، خمسة عشر مليون شاب في كل عمر... "

نحن الأتراك دومًا شباب، ونتمنى دومًا أن نكون أصغر عمرًا. نظرت سريعًا إلى روث. أفكر في الفتيات والنساء الكثر الأصغر منها عمرًا، في عمر مبكر جدًا يبدأن في الخروج إلى الحياة في صحبة مع الكبار، يستمعن لحكايات عن الأعمار الأخرى. في تركيا، نشأنا على أن نكون أصغر، وأسرع، وأكثر تفاعلاً. نعم نحن نتذكر بعض الذكريات وبعض الألحان العسكرية، لكن حتى الحكايات التي تحكيها لنا الجدات تبدأ مع إنشاء الجمهورية. كم سيكون الأمر صعبًا على هذين المجتمعين أن يفهما بعضهما البعض. وكذلك، كم كان الأمر يسيرًا علينا ، أنا وروث، أن نتشارك الحكايات عن إنسانيتنا المشتركة.

قالت روث وهي تعطيني العنوان وورقة تحتوى برنامج الاحتفال: "سأراك هناك". يبدأ البرنامج باحتفالية دينية، ثم يتلوه عرض لـ"أصوات"، عرض وثائقي للفنان أبوتوروسيان، ثم بعد ذلك مناقشة علنية. وفقا لورقة الاحتفالية، فالمشاركون في المناقشة العملية يدعون لمزيد من الأبحاث، مزيد من الأبحاث الإضافية في الماضي. قمت بفحص المجموعات الستة والعشرين المشاركة في الحدث. واحدة منهم هي من"أرمن عنتاب"، ولك أن تقول "عنتيب"، تلك المدينة في جنوب شرقي تركيا. يحدث لي ذلك دومًا. سأرى كلمات تركية أو أرمينية مكتوبة بحروف انجليزية أو فرنسية وأخفق في فهم معناها. أسماء الأشخاص على وجه الخصوص يمكن أن تكون مصدرًا للتشتيت: يكون الأمر غريبًا عندما تقرأ اسمًا مشتقًا من كلمة تركية "بالانجليزية". لكنَّ الكثيرَ من المهاجرين الأوائل إلى أمريكا وباريس قد اعتبروا قطعًا أن أسماءهم شديدة الغرابة على سكان بلادهم الجديدة، وفضلوا ترك أسمائهم التركية خلفهم، في الأناضول. بأي كيفية يجب على أن أكتب أسماءهم الآن؟ بالطريقة التي يتهجونها بالإنجليزية، أم بالطريقة التي يكتب بها بالتركية؟ سألت كل من التقيت بهم. أغلبهم قال لي إنني حرة في تهجي أسمائهم بالطريقة التي أختارها، لكن بعضهم فضل الصورة المكتوب بها الاسم في اللغة الأجنبية. بل إن قليلاً منهم سمحوا لي باستخدام حروف تركية مثل"ı,ç" ، ونظرت إلى كُنية روث. حكايتها تبدو واحدة مما تم معها الإضافة وليس الحذف، أضافت "ian"

إلى "tomas" عندما أصبحت مهتمة بجذورها الأرمينية. حتى الاسم في الشتات يكون مفعما بصورة خفية بالمعنى.

ونحن نخطو خارج "مشروع الذاكرة"، يدلف رجلٌ أكبرُ سِنًّا -أحد موظفي المشروع. عندما سمعني أتحدث التركية مع يورتاش، أشرق وجهه. قال "هوسجيلدين" بالتركية. أي "مرحبًا". قبل أن نستطيع السؤال، كان يقول لنا مغتبطًا "اسكندريونليوم بين". إذن، فهو من الكسندريتا القديمة، في إقليم هاتاي التركي الحديث. يأخذ أيادينا ويشد عليها، ويشد مرة أخرى. إنه لا يريد أن يدعنا نمضي. في النهاية، مستشعرًا الحرج مما يظهره من فرحة، يترك أيادينا. يمشي بعيدًا. أنظر مليًّا إلى هذا الرجل العجوز سعيدة جدًا بكيفية مقابلته للناس من بلده القديم. يبهت وجهه شيئًا فشيئًا ونحن نخطو عبر الباب. السعادة بوجه هذا الرجل العجوز والحزن الموجود بالخطابات الإلكترونية التي أرسلها إلي الرجل الأكبر عمرًا بعد ظهور مقالات أرمينيا ليست جزءًا من الحكاية في النسخة المختصرة للقصة والتي اختزلها البعض إلى كلمة "تعويضات". قال السيد براونيان أننا نستطيع "شراء السلام"، لكن ماذا عن هذا الجد الحزين أو ذلك العجوز السعيد: من الذي "سيحشد التأييد" لهم؟ لقد اكتشفت كيف أننا فقدنا مع موت هرانت دعمه لوجود "طريق ثالث" لتطوير لغة مشتركة لفهم كل من الأرمن والترك. إن الذي فقدناه مع فقدنا لهرانت هو البعد الإنساني الذي اصطبغت فيه لغتنا بالحزن والسعادة معًا. هل يمكننا أن نجد ما يكفي من الناس على كلا الجانبين لتطوير طريق آخر للحوار المشترك؟ هل هناك أمهات ينوين نقل الماضي إلى أطفالهن، ليس بالتركية ولا الأرمينية وإنما بلغة ذات حيادية وفهم مشترك؟ ما الذي يمكن أن يحدث إذا كَبِرَ الأطفال وهم يتحدثون هذه اللغة الجديدة؟ لكن، مرة أخرى، لن يمل الناس من تنشئة أبنائهم على القتال. هناك شيء لطالما تعجبت منه أكثر من أي شيء آخر؛ هل تحب الأمهات أبناءهن أقل مما تحب مجتمعاتهن، ودياناتهن، وبلادهن؟ لقد ضحَّت أمهات الأطفال من أجل الشعور بالهوية؛ النساء اللاتي لم يلدن بعد- هل سيرفضن يومًا ولادة أبنائهن لسبب ما ؟ بدأ الاحتفال التالي في هذه الليلة

وكأنه يستبق سؤالي.

الفصل التاسع عشر: عسى أن يتمايل الهواء على وقع خطواتنا

يملأ الحجرة وقع خطوات الأحذية الطويلة الرقبة. يفتح الباب على قاعة مكتظة بالأرمن من مؤسسة واترتاون الثقافية والتعليمية, إنهم قادمون في صفين متوازيين يقودهم اثنان من الشباب المراهق، يسيرون جنبًا إلى جنب يحملون العلم الأرميني والأمريكي وخلفهم مجموعة من الأولاد والبنات الصغار فى زى الكشافة, مرتبين من الأكبر للأصغر, أطفالٌ لا تتجاوز أعمارهم السابعة يسعون لأن يسمع الجميع وقع أقدامهم وهم سائرون خلف قادتهم الروحيين. في القاعة الصامتة تعلو أصوات الخطوات المعتادة أكثر وأكثر حتى تصل لمقدمة المسرح ثم تقف. يقف رجال الدين المنتمين إلى سِتِّ كنائسَ مختلفةٍ يصلون في أول المسرح باللغة الأرمينية. أستطيع أن أميز الكلمة الأرمينية المرادفة "مذبحة" واسم "هرانت". الأطفال الصغار جنود الاتحاد الفيدرالي الأرميني يقفون في وضع الانتباه, أنا أتأمل المشهد أطفال, أعلام, رجال دين و"المذبحة".!

هنا، في قاعة المؤتمرات بمدينة في بلد الجينز والكوكا كولا، وقنوات MTV وتمثال الحرية، والهيبز و وول ستريت، الناس يحاولون إثبات وجودهم. الذين على درجة عالية من الانضباط يستخدمون اللغة الانجليزية كلغة جديدة بجانب لغتهم الأرمينية الأم.يستخدمون الأطفال والدين والأعلام والإبادة الجماعية لتعريف أنفسهم بشكل منضبط .

فئ هذه اللحظة تمامًا، في مكان ما بتركيا ربما يكون أطفال في نفس العمر منخرطون في احتفال مماثل، يضربون الأرض بإقدامهم ويسعون أن يسمع الجميع أصواتهم يغنون أثناء السير بخطوة منتظمة :

على جباهنا تيجان التنوير

نحن الشباب التركى نسير

نحو النور الإلهي

نحن لا مثيل لنا

فى سباق لا نعرف

فيه الخوف

أو :

تطلع الشمس فى الأفق

دعونا نَسِرْ أيها الأصدقاء

لتسمعنا الأرض والسماء

عسى أن يتمايل الهواء على وقع اقدامنا

لماذا السير بالخطوات المعتادة وليس الخطوات الطبيعية؟ ربما تريد الأمم والشعوب أن تعلن للجميع وصولها أو ربما تريد الأمم والشعوب أن تثبت قوتها. أو لعلهم من خلال جعل الأطفال يسيرون بخطى كالجنود - ترم, ترم, ترم- يبرهنون لأنفسهم أنهم أصحاب عزيمة وإرادة لا تلين. يعلنون "أنهم ينشئون جيلاً جديدًا من الجنود" وسيستمرون للأبد في إنجاب الجنود الصغار لخدمة الشعب والقضية. مهما كان السبب الحقيقي فإنه يبدو واضحًا أن الخطوة المنتظمة لا علاقة بالحركة فى الساحة الخالية بالمسرح ولا علاقة لها على الإطلاق بالأطفال ولا بالمشي.

تأخذ امرأة شابة الميكروفون. بصوت مرتعش تغني النشيد الوطني الأمريكي، يليه النشيد الوطني الأرميني. وبينما تجرى الإعدادات لعرض الفيديو حاولت أن أجري بعد الترتيبات للمقابلات الصحفية الخاصة بالغد. أول شخص وجدته

هو آبو توروسيان الرسام والفنان الذي يوشك عرض الفيلم الخاص به. لقد وافق على إجراء الحوار معي بعد أن ذكرت مراجعي وعرضت رسائل التزكية التي بحوزتى. ثم انتقلت من شخص إلى آخر, وكنت كلما قدمت نفسي إلى شخص جديد كان يدير عينيه متسائلاً عنى للشخص الذي فرغت للتو من الحديث معه. إذا أومأ برأسه فإن الشخص التالي يوافق ببساطة وسرعة، وهكذا تسللت إلى داخل هذا المجتمع. الجميع كانوا يسلمونني إحدى الكتيبات التعريفية الموجودة في القاعة. كنت تقريبًا قد رتبت كل المقابلات التى سأجريها فى بوسطن عندما وصلت الى روث. أعطتني كتابًا مصورًا يحتوى التفاصيل الدقيقة عن كل الممثلين الأرمن والفرق المسرحية في أمريكا والفرق الموسيقية الأرمينية. تصفحت الكتاب. كان فريق الإعداد على خشبة المسرح يئن من كثرة العمل وأنا مستمرة في تصفح الكتاب وابتسم. اِنزلقت إحدى الكتيبات من يدي. كان يشرح زيادة حجم التبادل التجاري بين تركيا وأرمينيا منذ عام 1980.

كما يضم قائمة بالعديد من الأحداث المهمة، كذكر الرئيس الأمريكي ورنالد ريجان للإبادة الجماعية الأرمينية عام 1981 بينما كانت يتحدث عن الهولوكوست. وموافقة مجلس النواب الأمريكي في 1984 على إعلان يوم 24 ابريل يوم أحياء ذكرى الإبادة الجماعية للأرمن، واعتماد مجلس النواب الأمريكي في عام 1996 قرار منع استخدام المعونة الاقتصادية الأمريكية لتمويل "إنكار الإبادة الجماعية للأرمن". قانون يمنع استخدام المنحة الأميركية لتمويل أنشطة الضغط التركية. . . إنهم جميعًا هناك، بترتيبهم الزمني، ولكن حجم التبادل التجاري ارتفع بين الولايات المتحدة وتركيا بشكل مطرد. ربما كانت هذه هى الحجة التي قدمها الأرمن لصناع القرار السياسي- الاقتصادي: "لا يجب أن تقلق بشأن الخسائر الاقتصادية الناجمة من الاعتراف بالإبادة الجماعية" سوف يستمر العمل كالمعتاد.

وعنوان كتيب آخر "شكرًا لأعضاء الكونجرس" ويحتوى بداخله على قائمة

بأسماء نواب الكونجرس الذين كان لهم موقف فعال في الاعتراف بالإبادة الجماعية. برجاء رفع سماعة الهاتف واستخدام التعليمات المكتوبة في الأسفل حتى تشكرهم: سوف تجيب عاملة الهاتف، أخبرها أنك ترغب في الحديث إلى مسئول من وزارة الخارجية ثم أقرا الرسالة التالية ...."

وضعت الكتيبات الصغيرة بين دفتي الكتاب الذي أعطتني روث إياه, ليغطى وجوه الأرمن المبتسمين كتيبات عن المال. بدأ العرض على الشاشة، مشاهد رهيبة أطفال تتضور جوعًا، أجساد تتدلى من على المشانق؛ طلعت باشا، جمال باشا، لجنة الاتحاد والترقي. خمسة رجال مسنين يتحدثون عمّا حدث في أواخر 1800، في بدايات 1900 وهم يبكون.

قصة (يثابت) التي حدثت في مدينة العزيز والذي وصل به العمر إلى 106 عامًا. لقد رحلت عائلته بالكامل وترك مع عائلة تركية بصحبه أخته. لحق يثابت بأسرته في أمريكا ولكن أخته رفضت العودة لحضن الأسرة لأنها لم ترغب في ترك زوجها وأبنائها الخمسة ورائها. اليوم في مكان ما بالعزيز هناك سيدة في نفس عمري ربما لا تعرف على الإطلاق أن جدتها كانت أرمينية .

تلتها قصة سوسوس الذي ولد عام 1919 في يسبوس, بعد أن هربت أسرته إلى إزمير (سميرنا)، ثم عاد فى زيارة لبلدة بحر إيجة بعدها بسنوات عديدة، والتقى أحد كبار السن من الرجال الذي قال، "يا أخي، ذهبت بعيدًا. ولكن عندما رحلت أخذت زهوة المكان معك".

هناك صور في الفيلم الوثائقي لبيوت ايفاليك الفسيحة. أتذكر قيامي بجولة في خليج ايفاليك الصيف الماضي، وتكرار القبطان للكثير مما يقوله لسكان إيجة الغربية الأتراك: "عندما كان اليونانيون هنا كانت الجزيرة مليئة بكروم العنب، وبعد رحيلهم ماذا فعل الأتراك؟ لم يهتموا بالعنب وأصبحت الجزيرة جرداء"

لا يبدو أن تلك المباني المهجورة على الجزر فى انتظار أي شخص. ليس لديها

ماضٍ؛ لا يقال الكثير عن الذين بنوها، ولا حول كيف تم التخلي عنها أو لماذا. قليلٌ ما نعرفه ليس فقط عن الماضى القريب ولكن عن الأزمنة البعيدة، كم هن كثر هؤلاء النساء اللاتي كن في نفس أعمارنا واضطروا لهجر منازلهم ليبدؤوا حياة جديدة.

كايوكى(19) هى بلدة أشباح بأعلى جبل تقف هناك بالمبانى المحطمة والنوافذ المشروخة وصهاريج المياه الصدئة، لا أحد يذهب هناك بعد الآن. تقف القرية كجثة طاهرة. سوف يخبرك الأتراك الذين يعيشون فى المناطق المحيطة كم كانت رائعة بوجود يوناني الأناضول بها.إنها ليست مدرجة في كتب التاريخ، ولكن أن ذهبت إلى أي من المدن اليونانية المهجورة حول محافظة إزمير سوف تقدر المودة التي لا يزال يحتفي بها السكان المحليون، والمتعة التي يتحدثون بها عن جيرانهم السابقين، ولكن عندما يتعلق الأمر بالأرمن.. فإن كل الكتب التي قرأتها قبل أن آتي إلى أمريكا، وحتى الفيلم الوثائقي الذي أشاهده الآن، لم يذكر وجود أي من الأرمن في أزمير. ولا يوجد الكثير ليقال عنهم في شرق تركيا أيضًا. ماذا وراء فقدان الذاكرة هذا؟ لماذا على الرغم من أننا ما زلنا نتحدث عن الجيش اليوناني، بعد أن ألقيناه في البحر، لا نخوض أبدا الحديث عن "إلقاء" الأرمن في أي مكان؟ باعتباره اسطنبولي أرمينيي، كان يصر، "أنا هنا. لماذا لا تروني؟

وماذا عن أولئك الأطفال السائرين؟ ماذا لديه لتقوله عنهم؟ "حاولي أن تفهمي"، ربما يقول، "إنهم يحاولون البقاء معًا، إن ماضيهم وهويتهم المشتركة هي أكثر أهمية بالنسبة لهم من الأتراك، الذين لديهم دولة". وماذا لديه ليقول عن إضافة اسمه إلى "الصلاة التذكارية لضحايا الإبادة الجماعية؟" التي راح ضحيتها ما يصل بالتقريب600 من السياسيين والمفكرين الأرمن في 24 أبريل 1915 والتى عرفت بأنها "بداية الإبادة الجماعية".

ماذا كان هرانت ليقول وقد أصبح واحدًا من الذين تشملهم قائمة ال 600؟ ما كان هرانت ليقوله وهو الذى كان ينتقد الهوية الأرمينية المرتكزة على حالة

"الضحية الدائمة" وإذا به يصبح على قائمة هؤلاء الضحايا، كانت إيزابيلا على حق عندما قالت، في اسطنبول، لقد حولوا هرانت ليصبح شخصًا آخر.

في محاولة أخيرة لتعزيز قوة القومية التركية والهوية بدماء هرانت، اقترح المتطرفون أن "هرانت ربما قتل من قبل الأرمن".

والآن، أنا هنا في أمريكا. . . "هل استمعتِ بالعرض؟" آبو تورسيان يسأل عن شعورى تجاه فيلمه الوثائقي. إذا كنت مهتمة بالكشافة، والمسيرات، وصور الأطفال القتلى، والصلاة على روح هرانت. لقد وجدت أنه من الصعب على نحو متزايد متابعة القصص الأكثر تعقيدًا للمسنين على الشاشة، "الألم" هو كل ما يقال، "الألم"، هو كل ما يردد. ونحن نقف هناك، ننظر إلى بعضنا البعض. "أتوقع حضورك غدًا إلى ورشتي"، قالها ثم أضاف، "هناك بعض الأشياء التي أرغب في أن تريها". في اليوم التالي، سوف نذهب إلى بيت آبو، و في اليوم الذى يليه سوف نذهب إلى المنازل والمكاتب الأخرى.

لقد استمعنا للكثير من القصص من قبل، وسنستمع إلى أكثر من ذلك. كنت فى طريقي للخروج من قاعة العرض وأنا أسأل نفسي: "لماذا يخبرونني بكل هذا؟" وأنا مستمرة بالتفكير في هذا السؤال، كان يورتاش وسيدة الملاحة يتصارعان في شوارع بوسطن لتحديد موقع أحد المطاعم. وأتساءل مرة أخرى، ما الذي كان يحدث لو اندسست بينهم كمراسلة من ألاسكا. هل كانوا سيروون قصصهم بشكل مختلف؟ هل كنت سأسمعها بشكل مختلف؟ كيف استطعت الاستماع لهم في يريفان وباريس ولوس انجلوس وبوسطن؟

في تلك اللحظة، أدركت كيف استطعت التواصل مع الأرمن: ببساطة عن طريق فتح عيني والاستماع، دون مجادلة أو اعتراض. اِعتمد البعض لهجة هجومية منذ البداية، متوقعًا أن أرد بتحدي. عندما وجدوا منى الاستماع دون إيجاب أو معارضة، بدؤوا في التحدث بهدوء أكثر. إن الإنكار لما يقصون عليك يثير غضبهم بقدر كبير. لقد أدركت الآن. إنهم بحاجة إلى الحديث، و بحاجة لمن

يستمع لهم، هذا كل شيء. وكلما طال استماعك كلما أصبحت لهجتهم أكثر نعومة،حتى إنهم يبدؤون سرد قصص"الأتراك الطيبين" ، وكلما طال استماعك، تبدأ قصصهم في السير ببطء فى مسار التوازن والعقلانية. الأمر مختلف إذا أخذ شخص التعامل مع قضيتهم وحديثهم على محمل شخصي: حيث لا يصبح الأمر قصة على الإطلاق. وتبدأ لغة الخطابة فى الظهور ويتجه الحديث نحو "الانكار" أو "الاعتراف" بالإبادة الجماعية.

في حين أن كل ما علي المرء فعله هو أن لا يمثل أحدًا إلا نفسه، وأن يتخلى عن البلاغة والسرد االشخصى. إن مجرد الاستماع إلى شخص ما قد لا يكون سببًا كافيًا لجعله يشعر شعورًا أفضل، ولكنه يكون سببًا كافيًا في تحسين علاقتك به. أن الاستعداد للاستماع دون إصدار أحكام يساعد على ضمان سلاسة الحوار وتخفيف حدة التوتر وتخفيف العبء من وجود روايات متضاربة من ماض مشترك. هذا كل ما أعنيه ، وأحيانا يكون من الأفضل أن لا تتحدث، أحيانا يكون من الأفضل أن تدع الآخرين يقومون بالحديث وأن تتعلم كيفية الاستماع في صمت. هذا ما يحتاجون إليه. أشعر بهذا في كل مرة. حتى بالنسبة للناس في أمريكا، إنهم بعيدون جدًا عن الأناضول، ولهم اتصال ضئيل مع تركيا ومع الأراضي التي يتكلمون عنها، لكنهم في حاجة أيضًا إلى الحديث؛ يمكنني أن أشعر بهذا في كل مرة أستمع أليهم. على الرغم من أن المطعم اليوناني لا يقدم الراكي، كنا أنا ويورتاش منتشين لتمكنه من طلب مشروب الاوزو. وطلبنا من النادلة احضار زجاجة كاملة من الفودكا وأوزو على التوالي، يتمتم يورتاش بالتركية: "يمكنك الذهاب إلى القمر، ولكن لا يمكنك شرب الراكي!" واستمر انزعاجنا بسبب أطباق المقبلات الأمريكية المليئة بالصوص اليونانى والجمبري كبير الحجم. تمامًا كما تقدم على الطريقة التركية. وانتهت الليلة ونحن ندلف الى السيارة وفى أيدينا أكواب ورقية مملوءة بالاوزو في طريق العودة إلى الفندق الواقع على ضفة النهر. قفزت عبارة انيس باتور(20) إلى رأسي مباشرة فسألت نفسي "حسنًا, أميركا مزحة كبيرة، ولكن فقط إلى متى يمكننا الاستمرار في الضحك؟"

19- كايوكى هى بلدة تقع في جنوب غرب تركيا، تم التخلي عنها من قبل العثماني سكانها اليونان لها نتيجة أتفاقية التبادل السكاني بين اليونان وتركيا 1923 ، ووفقا لشروط فقد طردت ما يقدر ب 2 مليون شخص من الأراضى التى ولدوا بها

20- إشارة إلى المؤلف التركي انيس باتور وكاتب المقالات من يسافر إلى نيويورك: أميركا نكتة كبيرة، عزيزي فرانك، ولكن لأي حد هي مضحكه؟

الفصل العشرون: القرون المتناطحة

ما أن وصلت إلى منزل آبو توروسيان في إحدى ضواحي أشجار الصنوبر الشاهقة والمنازل المزينة بالأعلام في أمريكا، آخر ما كنت أتوقع هو أن أتناقش حول الشاعر ناظم حكمت. والأكثر غرابة أن تحدثنا حول الفنان بدري رحمى ايبوغلو والمطرب الشعبى روهى سو.

"كنا نجتمع في فندق نارملى هان، بدري رحمي ايبوغلو كان أستاذي في أكاديمية الفنون الجميلة، بالعودة لذلك الوقت كنا جميعا في محاولة لتقليد الرسامين الغربيين. ولكنه جاء لنا ذات يوم في الأتيليه وقدم لنا هذه الرؤية جديدة:" إنكم جميعًا جالسون هنا كحفنة من السيدات العجائز حول ماكينات الحياكة الخاصة بهم، يجب أن تفعلوا شيئًا خاصًا بكم فقط. لن أنسى أبدًا ذلك".

بعد التخرج من الأكاديمية انتقل آبو إلى أمريكا، حيث كان يعيش على مدى السنوات الأربعين الماضية مع فنه، وقال إنه ظل يصور الأشياء التي لم ينسها على مدار تلك الفترة .

صعدنا إلى مرسمه في الطابق العلوي من منزله المكون من طابقين، أراني سلسلة "الأناضول". التى نفذها على قطعة من القماش مطرز عليها شرائح من الخبز دائرية ومربعة . . "توفي أجدادي بسبب الخبز" يقول آبو ، "إما من نقص الخبز أو من الخبز نفسِهِ." ثم يضيف: "هذا الخبز الذي أمامه قد خبز بواسطة طباخ إيطالي."

كنت أفكر ما إذا كان الخبز الأناضولي الذي صنعه في أمريكا الطاهي الإيطالي هو الجانب المأسوى أو الجانب الهزلي من قصته، آبو شارحًا: "في عام 1915، كان والدي هرانت في سن الخامسة، عمتي ربيكا كانت في الخامسة عشرة، عمي هوفهانز كان فى السابعة عشر. ارتدى عمى ملابس امرأة وهرب إلى مرسيليا في نفس ذلك الوقت. جنبًا إلى جنب مع جميع الرجال الأرمن

الآخرين . وفي يوم ما قال له سركيس اكوبيان ، الرجل الذي أصبح لاحقًا زوج عمتي: "لقد أدخلت إلى الجيش وأخرجت من المدينة" حيث كلف بحفر الخنادق ثم قتلوا زملائه، وملأت جثثهم نفس الخنادق التى حفروها. البندقية أخطأت الهدف عندما صوبت نحو سركيس، لكنه كان قادرًا على رمي نفسه في الخندق والتظاهر بالموت. كان يرقد في هذا القبر الذى صنعه بيده لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. ثم فر إلى بلغاريا مع عمتي. كان والدي بعمر الخامسة

عندما اضطر لإعادة التوطين. عندما كنت أسأل والدي عن تلك الأيام، كان حوابه الوحيد "الله غير موجود. إذا كان هناك إله، لما حدث كل هذا". لم يكن يريد الحديث عن هذا الأمر. وراء اللوحات على الحوامل في ورشة العمل بالطابق الثاني صورة جوية لجزيرة كنالى في اسطنبول التقطت لها عام1970. هناك صورة مبتسمة لوالده، "هرانت الوسيم"، ووالدته، "الفتاة اليونانية ماري التي التقطت في جزيرة كنالى عام1950. وهو ما يعني، أن آبو ينتمي إلى عائلة أرمينية من الذين بقوا في تركيا بعد 1915. إذا هو وعائلته بقوا في تركيا، وإذا والده وأمه لم يخبراه الكثير عن عام 1915، فكيف استطاع آبو الحصول على رواياته عما حدث في تلك السنة؟ "في تركيا، أردت أن أكون مقبولاً من قبل الأتراك. "أنا لست واحدًا من هؤلاء الأرمن السيئين، "هكذا كنتٌ أقول لنفسي. كنت لا أرغب حتى في قراءة أي شيء بالأرمينية، ومعظم هذه الكتب كانت بتلك اللغة. لقد كان الاحتفاظ بهذه الكتب عن الإبادة الجماعية ممنوعًا في تركيا. ورأيتهم فى إطار حملة دعائية. "أشار آبو لمنزل العائلة الصغير في الصورة بجزيرة كنالى. "الملاك الجدد لا يهتمون به ذلك بشكل جيد"، كما يقول، قبل أن يستأنف قصته. "كنت أنكر تمامًا هويتي. ثم، في عام 1964، حينما كنت أستقل القطار إلى أوروبا مرورًا بصوفيا. كنت قد رتبت لقاء سركيس، زوج عمتي. نظرت هناك وكان هذا الهيكل العظمي رجلًا ، و قد عقد كيس الملابس على ظهره كانت تعود الى حوالي خمسين عاما مضت. كنت أرتدي الجينز.

أعطاني كيسًا، ثم جذبني من ذراعي، وقال: "أبراهام، لا تذهب إلى هناك مرة

أخرى، سوف يقتلونك" أعتقد أنه كان لا يزال يعيش في الماضي".

سألت آبو كيف عرف قصص أجداده التي حدثت من سنوات عديدة ؟"، فأجاب "بعد وفاة والدتي أصبحت مشغولاً بهذا الموضوع. كان ذلك عام 1999. أدركت أنها قريبة من الموت، فبدأت القراءة. قرأت كتب التاريخ. ثم تذكرت الخطابات قد أرسلت في وقت سابق من قبل عمي. وجدتهم بالمرآب. وسط كل هموم الحيـاة اليوميـة- من كسب العيش و تربيـة الأطفال- كنت قد نسيتهم تمامًا. وأخبرتنى الخطابات عن قصص عائلتنا. الخبز المستخدم أتى من تلك القصص، ومن كيس قدمه سركيس في محطة القطار في صوفيا ".

قادنا آبو إلى الطابق السفلي وهو مستمر في روايته بينما كنا نحن نأكل الكباب مع صلصة الثوم التي قدمها لنا. "أنا لم أفتح الكيس الذي أعطاه لي سركيس في المحطة. ولكن عندما وصلت على متن القطار، ونظرت داخله، رأيت أنه ملئ بالخبز. لقد قدم لي هدية من الخبز. لقد توفيت جدتي اليزابيث بسبب الخبز. بعد أن تم توطينها قسرًا، أُقتيدت إلى مستشفى قرب حلب.

لم يكن لديها ما تأكله إلا الخبز لفترة طويلة حتى إن لحمها قد أصبح مثل الخبز. توفيت هناك. وتوفي بعض أقاربي في الطريق جراء نقص الخبز. لهذا السبب أقول مات أجدادي من الخبز، أو من نقص الخبز. وهذا هو السبب أن الخبز هو محور اعمالى الفنية

نظر إلى زوجته جنيفر، وهى من أصل ايرلندي. "كانت تعرف ما هو الجوع أيضًا. الناس الذين يعرفون الجوع يستطيعون التعرف على بعضهم البعض".

وأنا أكل الكباب ، كنت أفكر في مدى صعوبة الحديث عن الجوع في مكان مثل أمريكا. شعب الأناضول يعتقد أن الخبز رسالة مقدسة من الله، لذلك فأنا أفهم ما يريد قوله. ولكن كيف يمكن أن يفهمه الأميركيون، كيف يمكنهم تفهم معارك الغذاء التي يرونها بين الأطفال الذين في الأفلام. كيف يمكن أن أشرح لهم أن الأطفال الأناضول يتم تعليمهم التقاط قطع الخبز الملقاة على الأرض، وتقبيلها

ثلاث مرات، ووضعها على أحد جانبي الطريق؟ كيف يمكنهم إدراك أن الوعي الحاد بالمجاعات يغرس في أطفال الأناضول الذين قيل لهم إن بقايا الخبز و فتاته ستطاردك في العالم الآخر.

حكي لي آبو عن ذهابه لزيارة أدنك ، قرية جده بالقرب من باندیرما. أتذكرت ما قاله لي سيرج أفيديكيان. عندما تحدثنا في باريس: "إنها أحدث الصيحات السياحية في تركيا: العودة لأرمن يعود لرؤية القرى التي أقام بها الأجداد". إنه لا يبكي عندما يتحدث عن قريته أو عائلته وتاريخها المؤلم. ولكن عندما يتحدث عن أصدقائه، عيونه تمتلئ بالدموع، بينما لا يتأثر بالحديث عن الأرض، أو المنزل، أو "الإبادة الجماعية"، يتأثر عند الإشارة إلى الأصدقاء الذين تركهم في اسطنبول، عندما اكتشف متأخرًا قصصَ 1915، في منتصف العمر، بعد وفاة والدته، تلك الصور التي التقطت في جزيرة كنالى ، ربما بدأت تعنى له شيئا آخر في مرسمه بأمريكا. ربما تلك الذكريات من عام 1915، والتي كانت حديثة نسبيًّا بالنسبه له، أدت إلى حدوث تحول في تصوره عن البلد الذي ولد ونشأ به. ولكن عندما يتعلق الأمر بذكرياته عن أصدقائه، فإنها دائمًا دافئة، و على مقربة إلى قلبه.

عندما يقابل الناس من "بلاده الأم " لغة مختلفة تنفجر من جسده ويبدأ بحماس

تلاوة قصائد بدري رحمي ايبوغلو: "هل تعلمين أنه كان يتحدث عن فتاة أرمينية عندما كتب "لدي التوت الأسود. لدي العنب الأسود"؟"

الفنان الأرمني آبو، الذي يحاول شرح الجوع هنا في أمريكا-أرض الوفرة والأكل الكثير، ومازال كثيرًا – يحاول أن يشرح لنا أنه لم يتعلم عمل الكباب مع الصلصة من أخته الأكبر سنًّا. الصلصة على الطريقة اليونانية، الخبز الذي يتم تقديمه يباع في أوروبا وأمريكا، وبالنسبة للطماطم... لكن نحن نأكله لأنه مصنوع بشكل جيد. ونحن نأكل، ثم نأكل أكثر وأكثر.

***

"هل ترغبين في الطعام؟" "لا، شكرًا". كنا في أحد مطاعم لوس انجليس. هذه المـرة النـائب فـارتكس يـاجيريان سـوف يقدمنا إلى بعض أصدقائه. وقد اصطحبنا ياجيريان إلى أحد الاجتماعات الأسبوعية المعتادة التي تضم بعضًا من الأسماء الفاعلة في الأرمن النازحين. رجال الأعمال والمحامون الأغنياء يلتقون بجانب حمام السباحة. أغلبهم يدخنون سيجارا طويلاً وسميكًا. الرجال يجلسون حول طاولة بشكل يشبه لوحة فنية رسمت في تركيا، أنهوا الغداء والدردشة حول القهوة: بعد الاستقبال الحافل الذي لقيته في المطعم الإيطالي في لوس انجليس، ليس لدي أي توقعات من الاجتماع على "مائدة الأثرياء."

ارتفـاع دخـان السيجار من الطاولة، لهجات أمريكيـة مبالغ فيها، إشـارات إلى الأرقام والدولارات - أنا مستاء من فكرة أن هذا سيكون تكرارًا لما حدث في عشاء سابق "يمكنك شراء السلام". ولكن النائب هشجلميز سنيز وأستاذ القانون الإسلامي البروفيسور بيرج بويجان رحبا بى، باللغة التركية، وبابتسامة وقال وهـو يتـرك السـيجار ويشـد علـى يـدي بكلتـا يـديه: "اِغفـرى لنـا لغتنـا التركيـة المبتذلة، قرويون أتراك، أليس كذلك!" إنه مشهد لا يصدق. من المستحيل عدم الضحك. إن هذا الرجل اللامع، الأميركي للغاية، أنيق المظهر يتحدث إلي بلكنة تركية -كنت أسمعها فقط في إحدى قري شرق تركيا- وذلك إلى جانب حوض السباحة بلـوس انجلـوس. . . أنـا أضـحك، ولكـن لسـت وحـدي، بيـرج بويجـان يشاركني الضحك على غرابة الموقف. قدم لي فارتكاس ياجيريان بيرج بقوله: "إنه واحد من الثلاثة الذين كانوا مسئولين عن التسوية في دعوى التأمين على الحيـاة". بويجـان، الـذي ولـد فـي سـوريا، لا يـزال يتحـدث التركيـة. "هـل يمكننـا تحدث التركية قليلاً؟ أعذري لغتي الركيكة، قالها وهو يكافح ليتذكر كل كلمة، كان هناك قصة يريد أن يرويها. "أبي وأمي كانوا يتحدثون التركية في المنزل. لمـاذا لا تتكلـم التركيـة مع زوجتـك؟ "كان أصدقاء والـدي يسألون، فيرد أبى: "النطق بالتركية يضيف نكهة مختلفة". وكان على حق. الكل حصل على كل

نكهة خاصة بـه". وهكذا واصلت مع بيرج بويجان الحديث بالنكهة التركية اللذيذة. بينما قام فارتكاس بشرح الخطوط العريضة للآخرين حول ما كنت أفعله. ما تعلمته من اتصالي مع الأرمن إنه مجتمع منغلق تمامًا أمام الأتراك، غير أنهم يفكرون بالعقلية الذكورية السائدة في الشرق الأوسط: يجب أن يقدمك لهم عضو بارز من المجتمع الارمينى حتى يتقبلوك. في الواقع، قد تحتاج حتى للحصول على "موافقات " وليست موافقة واحدة فقط من العديد من الناس في وقت واحد. بينما يشرح فارتكاس، يسحب بيرج نفسًا عميقًا من السيجار مفكرًا، ثم يقول بالتركية بالطبع: "والآن، كيف يمكن أن أقول إن الحيوانات تتناطح برؤوسها ؟. . . ماذا كانت الكلمة ذلك؟ آه، بقرونها ! نحن بني الإنسان نفعل الشيء نفسه من خلال التحدث. أنا عندي ألم خاص بي. كان والدي من عنتاب ، والدتي من أورفا. لكن ليس لى جد لماذا؟ لأن. . . حسنًا، أنت تعرفين لماذا، ولكن يجب التغلب على الألم. الحياة تستمر." .قلت لبيرج أنى واجهت المزيد من الصعوبات في لوس أنجلوس عن أي مكان آخر، كوني من تركيا لم يكن يشكل عائقًا مع المجتمعات الأرمينية في أرمينيا أو في باريس. يضحك ساخرًا: "نحن نعيش في ترف هنا، بطبيعة الحال. ليس لدينا أي علاقات مع تركيا. الجميع يتصرف كما يحلو له".

عند هذه النقطة، تدخل الدكتور كارتليان، وهو صديق آخر لفارتيكاس ومحامى أيضا ولد في مصر: "هناك تقليد في أرمينيا هو الاستفادة لأقصى درجة من الأتراك. ولكن الجميع هنا مهاجرون وليس لديهم أية رغبة أو اهتمام بتركيا".

يتحول الحديث إلى هرانت. أحاول رصد ردود فعل الجالية الأرمينية في لوس أنجلوس بعد رحيله. فارتكاس هو أول من تحدث: "نحن بعيدون عن تركيا، ونستطيع أن نقول أي شيء هنا كما نريد. لكن هرانت كان يتحدث في تركيا. أولئك الذين قتلوه قدموا للمتعصبين الأرمن أكبر خدمة على الإطلاق، فقد سكب البنزين على وفاته القوميون الأرمن، وانتشر اللهيب".

أومأ الآخرون بالموافقة. ثم بدؤوا في انتقاد القوميين الأرمن وأولئك الذين

تناولوا الحدث بعبارات قاسية: "لقد كان سهلاً بالنسبة للألمان الاعتراف بالإبادة الجماعية. لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لتركيا، بالطبع. هناك قضية واضحة بخصوص الارض. ولكن الخوف من فقدان الأرض لا يغير الحقائق. بالنسبة لي، إنها مسألة مبدأ. العدد الفعلي للأشخاص الذين قتلوا ليس بالغ الأهمية. المهم هو الاعتراف بأن هؤلاء الناس كانوا يعيشون في تلك الأراضي قديمًا. ألا تتساءلون أبدًا لماذا شرقُ الأناضول جرداء حتى الآن، لماذا هي صحراء قاحلة؟"

عاد بيري الحديث عن هرانت: "عندما توفي هرانت كان القوميون الأتراك هم الخاسر الأكبر "ينفخ دخان السيجار مرة أخرى:" ولكن هناك أمر ربما تمكنتى من معرفته: كل شيء عن هنا يتعلق بالمال. هناك تعتقدون جميعًا أن اللوبي التركي أضعف بكثير من اللوبي الأرميني. هذا ليس هو الحال. هم ينفقون من المال أضعاف ما ننفق نحن".

فيرتكاس مقاطعًا: "في رأيك، ما هي النسبة المئوية للأرمن التي ستقبل بالاعتذار؟"

وعندما لا يجيبه أحد، يجيب بنفسه على السؤال. "ستين في المائة"، الأرمن في أمريكا سيقبلون اعتذارًا بسيطًا ". كارتليان وبيرج يومئان بالموافقة. يتابع فارتكاس: "حتى إذا أعطونا الأرض، لن يعود أحد. كان أبي ليعود هناك، ولكن أنا لن افعل أبدًا".

لا أستطيع أن أصدق كيف يناقشون مثل هذا الأمر. أنا لا أفهم كيف يمكن المقارنة بين الحياة في مدينة الأناضول والحياة المرفهة في لوس انجلوس. تساءلت إذا كان أي منهم قد زار تركيا في أي وقت مضى. لقد كانوا جميعًا في تركيا. يقول فارتكاس: "يقول بعضهم إنهم لم يذهبوا إلى تركيا. الموضوع بالنسبة لهم مثير للضحك. إنهم يضحكون ويضحكون.

فجأة تنبهت إلى أنني تحدثت فقط للرجال في لوس أنجلوس، وأنه ليس لدي

أيـة مقابلات مع أية امرأة. أخبرنى بيرج عن شقيقته، أخصائية علم النفس مارال يرانوسيان . "يجب أن تقابليها" هذا ما قاله.

"بالفعل يجب أن أقابلها،" وافقت، وذلك لأنني بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى طبيب نفسي بعد مقابلة كل هؤلاء الأرمن. "ضحكنا جميعًا. وبينما أترك الطاولـة، بـيرج بويجـان حـدثنى بالتركيـة للمـرة الأخيرة: "نحـن نتحـدث مثـل الأكـراد، ألـيس كـذلك؟" وبـدون أن ينتظر الإجابة، التفت إلى أصدقائه وقال باللغة الإنجليزية: "هذا ما قالوا في آخر مرة ذهبت إلى اسطنبول. على ما يبدو نحن لا نتكلم بنعومة كافية". أخذوا يضحكون بينما السيجار في يده، وسحابة من الدخان تخيم على الطاولة.

الفصل الواحد والعشرون: **هل سيلعب الأرمن الجولف؟**

تتوجنا سحابات الدخان. ومع صعود الدخان أشعر أنني في الشرق الأوسط، وليس آمريكا. نحن نجلس في مكاتب بوسطن لجريدة هايرنيك، جريدة بدائرة توزيع تصل إلى 5000 نسخة، في صحبة مجموعة من الرجال هم بالتأكيد أقل أمريكية من الذين قابلناهم في لوس أنجلوس. هناك رئيس التحرير خاجان ماكراديشيان، وهو من بيروت، مساعده، زافين توريكيان، والمحرر في جريدة "أرمينيـان ويـيلكي"، كاتشـينج موراديـان، الشخص المسئول عن تقديمنا للآخـرين. تـوقعت أن تسير محـادثتنا بشكل أكثر سلاسة، وذلك بسبب أنهم أعضاء من المغتـربين بالسـاحل الشـرقي، وهنـاك سبب آخـر أنـني أعرف أن جريدتهم لديها توجه يساري، ولكن السبب الغالب هو أنهم نشئوا في الثقافة الشرق أوسطية. وفـي الحقيقة، بدأت الحديث بسهولة كافيـة. ماكرديشيان يعطيني ملخصًا للصحيفة، يتحدث عن سنواته الثمانية في اللجنة التي نظمت احتفاليـة الليلـة الماضيـة، وقـدم بعض المعلومات العامـة. عندما ذكر اللجنة، سألته، "أليس من المرهق أن تكون منخرطًا في أمر التطهير العرقي طوال كل هذه السنوات؟"

تظهر عليه القتامة فجأة. "الإبادة العرقية هي سبب وجودي هنا، الإبادة العرقية هي سبب أنني ليس لدي جد. الإبادة العرقية هي معنى حياتي. أنا لا أستطيع أن أحيا مثل باقي الأرمن الذين لا يتوقعون شيئًا لكنهم يستمتعون بالحياة". تتراجع السحابة الواهنة لسجائر الشرق الأوسط إلى الوراء بهذه القسوة الشرق أوسطية المألوفة للغاية.

أرى، مـرة أخـرى، أن سـنة 1915 مرتبطـة لـيس فقـط بالـهوية الشخصية والسياسية والاشتراكية، لكنها يمكن أيضًا أن تحدد إطارًا أخلاقيًا فرديًا يزود الفهم الأيديولوجي بسهولة بالسياسات الطائفية.

أفكر مليًّا بينما يسهب ماجرديشيان بمزيد من الشرح: "لقد درست الهندسة الإلكترونية لكن لأنني أرميني، لم أصبح مهندسًا. كانت هناك دومًا أشياء أكثر أهمية لدى لأفعلها". "تعنى أنك احتججت أن تنقل المعاناة إلى الآخرين، كما كانت تُنقل إليك. أليس كذلك؟"

"بلى

"إلى متى؟"

"إلى الأبد، لو كان ذلك ضروريًّا. إلى أن يصبح هناك تسوية عادلة"

" تسوية عادلة ؟"

"دعني أسألك أمرًا... يعتدل ماجرديشيان ليلقي سؤاله مع جذب يورتاش انتباهي لخريطة على الحائط لا ترى من حيث أجلس. ملت للأمام وألقيت نظرة جيدة: خريطة لأرمينيا العظمى! الآن أعرف ما سيقوله ماجرديشيان حتى من قبل أن يقوله. "هل تظن أن لدي الحق في العودة لأرض أجدادي؟" قلت له :"بالطبع لديك الحق". لكن كشرق أوسطي أنت تعرف أن نزاعات الأرض عادة ما يتم حلها بالدم." يتدخل ماجرديشيان لتبسيط الأمر ويقول: "فكري في الأمر كاغتصاب، ثم أجيبي عن السؤال." ابتسم وأقول، "كماركسي، أنت بالتأكيد على وعي كيف أن هذا القياس غير لائق، فيما يتعلق بالعلاقة بين التغير الكمي والكيفي...؟ محاولتي البسيطة للفكاهة تطير أدراج الرياح. سألت موراديان السؤال نفسه الذي سألته لماجرديشيان: "أليس من المرهق أن تعيش على هذا النحو؟" فأجاب: "أحتفظ بصور الإبادة العرقية في المنزل. عندما تشرح أحداث عام 1915 للأطفال هنا في أمريكا فإنهم دائمًا ما يقارنونها بالهولوكوست أو بما حدث في دارفور. هذه هي أيسر طريقة لهم لفهم الأحداث المخيفة لتلك الأيام. إنهم يرون دارفور في الإعلام الأمريكي، ويفهمون ما حدث لنا."

نائب رئيس التحرير زافين توريكيان تحدث عن طفلها: "لم أضطر للجلوس معه

وشرح أي شيء له. قالت لي مُدرسته شيئًا في اليوم التالي: في 24 أبريل رفع ابني يده وطلب منحه خمس دقائق ليتحدث عن الإبادة العرقية الأرمينية. أخبرته المدرسة أن عليه أن يسأل مدير المدرسة أولاً. لكن انتهى به الأمر بعمل هذا العرض التقديمي. يتعلم الأولاد هذا الأمر بطريقة أو أخرى. كلنا نفعل ذلك"

لدى ماجرديشيان قصة أخرى. "أحيانًا يُجبر البالغون على إخبار أبنائهم بالأمر. عندما سألت جدي كيف عرف بأمر الأكراد، كان عليه أن يشرح من أين نحن وكيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه."

يغير مواراديان الموضوع. "لكِ الحق في أن تظنى أنها شكلت حياتنا. أتذكر ذلك الشتاء الذي يقول فيه بيتر بالاكيان، "أريد أن أكون قادرًا على لعب الجولف في يوم من الأيام دون أن اشعر بالذنب" ذكرت كيف أن هرانت قال إن المناصرين للحوار على الجانبين قد ألقي بهم إلى الذئاب. أشرت أيضًا إلى أن اسم هرانت قد أضيف إلى الدعوات في احتفالات ذكرى الرابع والعشرين من أبريل. يقول مواراديان: "ليس سرًّا أن الإبادة العرقية هي رباط القوة الأرميني،" نعم، اسم هرانت قد أضيف إلى أسماء الناس الذين ندعو لهم. الناس هنا يرونه باعتباره آخر عضو في جماعة المثقفين الأرمينيين والذي قتل في 24 أبريل 1915."

كان ذلك عندما تركنا ماجرديشيان وتوريكيان، الذي يقول أنه سيحب المجيء إلى اسطنبول. صاحبنا مواراديان إلى مكتبه في نفس البناية لأنه أخبرني أنني لو كنت سأكتب عن هرانت فيجب أن أرى الموضوع المُهدى إليه في جريدة "أرمينيان وييكلي". بمجرد ما أصبحنا في مكتبه الصغير، أخرج مواراديان مجلة ذات غلاف أسود. مقابل اللون الأسود توجد يمامة بيضاء، والخطوط العريضة لفم مغلق. اليمامة تمثل هرانت؛ الفم، الصمت. في أسفل هذه اللوحة التي صممها زاريه هناك كتابة كالخربشة: "كي تترك "الجحيم المستعر" وتذهب إلى "الفردوس المهيأ؛". أعرف من أين استلهموا هذه الكلمات: كان هذا مما كتبه هرانت عندما كان يتلقى تهديدات بالموت. قال إنه بدلاً من الذهاب إلى

"الجحيم المهيأ"، الشتات المجهز له في الغرب، فقد فضل تحويل "الجحيم المستعر" لبلاده.

بينما أنا أتصفح المجلة، يتحدث مواراديان عن هرانت. "بعدما مات هرانت صنعنا بعض التغييرات في تقديم ذكرى الرابع والعشرين من أبريل لكي نتمكن من ضمه إليها. كان الناس متأثرين بشيئين: وحشية الجريمة وحجم الجنازة. لقد جمع موته الأرمن والأتراك معًا. اقترحت أن ذلك "ربما لأن الأرمن رأوا أن الأتراك، أيضًا، ينتحبون على أرميني". لوهلة، لم يتحدث أي منا. أضفت "لم يقل هرانت شيئًا بمثل قسوة الحوار الذي كان بيننا منذ دقيقة مضت، وقد انتقد دومًا كره الأرمن المغتربين للأتراك. كيف كان الرأي العام عنه هنا قبل أن يموت؟ يقول مواراديان: "لم يكن هناك أي شخص غاضب من هرانت شخصيًّا، لكن كان من المعروف أنه لا يستطيع التحدث بحرية في تركيا، شيء واحد غيره موته وهو أن الأتراك أيضًا قد حضروا بعض المناسبات التي عقدت هنا"، رأيت فتى تركيا. كنا نتحدث عن هرانت وبدأ في البكاء. كان ذلك نوع من الحركة". "أي نوع من المناسبات تتحدث عنها؟"

يقول مواراديان: "دعني أقدمك لاثنين من أصدقائي الليلة في مقهى بامبلونا."

***

مقهى بميدان هارفارد ذو طابع أوروبي، مقهى بامبلونا له ماضٍ يساري شهير. أسسته امرأة من الباسك عام 1980، ويديره اليوم زوجان من بيروت. قال لي خاتشينج إن من بين المشاهير الذين تم توجيه الانتباه إليهم على طاولاتها الضيقة آل جور وسبايك لي. وصل أصدقاؤه: سيفاج أرزومانيان وجيسون سوهيجيان. سيفوج يتحدث بسرعة هائلة، وهو من بيروت بالأساس، ذو بشرة سوداء وشعر مجعد؛ يبدو جيسون غير سعيد بوجودي، ولم ينطق بكلمة. بنظارته الشمسية السوداء وشعره الممشط جيدًا على جانب واحد وقميصه الجديد، ذكرني بمراهق الخمسينات. في اللحظة التي جلس فيها سيفوج، كان

يعطيني خلاصة سريعة عن سمبوزيوم اليوم الواحد الذي ساعد في تنظيمه قبل شهر مضى، وأعطاني كتيبًا إعلانيًا عنوانه "الأرمن واليسار". اتحاد الثورة الأرمينية، أكثر المنظمات اليسارية تشددا في التاريخ السياسي الأرميني، وجدتها مدرجة على الكتيب باعتبارها المنظم للاحتفالية.

تتضمن الموضوعات المطروحة للمناقشة "الظلم الإعلامي والاجتماعي في أرمينيا" و"الحوار التركي الأرميني إثر مقتل هرانت دينك. "لأن الندوة نظمتها الحركة القومية، ولأن سيفوج كان بين المنظمين، كنت جاهزة بسؤالي الأول: "كيف يمكنك تسوية الخلاف بين الفكر اليساري والقومية؟" سيفوج متلهف للشرح. "لو كنت ولدت في دولة طبيعية بمجتمع طبيعي لم أكن لأصبح قوميًا. لكنك تستطيع وصفي اليوم باعتباري يساري قومي - مثل الحركة التحررية في أمريكا اللاتينية، مثل بوليفار. القوميون الأرمن لا يدعون المطالبة بالتفوق على غيرهم من الشعوب؛ نحن ببساطة نطالب بالمساواة. وعلى أية حال، فقد كانت القومية قوة تقدمية في بعض الأحيان، في إيطاليا وفرنسا. وأنا أعتبر القومية قوة تقدمية للأمة الأرمينية." تحولت إلى جايسون لأرى ما إذا كان يود إضافة أي شيء. كان متجمدًا ومطبقَ الفم. سألت نفسي، هل عرف لماذا نحن هنا بالأساس. كسرت هذا الصمت بسؤال عن الفتيان المشاركين في احتفال الرابع والعشرين من أبريل -الأقدام السائرة، خليط العسكرية مع الدين. يضحك سيفوج. "كنت فتى كشافة في بيروت حتى عمر السادسة عشر . اسمع، لو كنا نعيش في عصر الرايخ الثالث لكان يحق لك أن تشعري بعدم الارتياح. لكن لا تنسي أننا أعضاء مجتمع يخشى فقد هويته."

أسأله: "هل يصنع ذلك أي فارق؟" فيشرح سيفوج: "كان يتم إدراج الأطفال في منظمات الشباب في ألمانيا لإعدادهم للجيش. اليوم، في أمريكا، لا أحد يأخذ أوامر من أحد. لو حاولت أن تفرض هذا النوع من الهيراركية الفاشية على أحد لبصق في وجهك."

حولت نظري إلى جايسون. وجهه تكسوه علامات الحياة. تساءلت ساعتها عمًا

إذا كان أكثر قومية من أن يتحدث للأتراك. يكتشف كاتشينج أن صمت جايسون المطبق يجعلني أتوتر، ويشرح مرة أخرى من أنا وما إفعله هنا. يتوقف ثم يضيف، "هي فقط ستقدم ما تقوله في تقريرا!" لأنني صحفية تركية، كان من اللازم تقديم التأكيدات عدة مرات أخرى. بعدما يرى جايسون الفيزا الخاصة بي، ينطق بجملة واحدة: "هذا هو الموقف الاجتماعي من الأرمن في أمريكا، والذي جعلهم يفعلون ذلك."

يتحول كاتشينج إلى ويقول: "اسأليه عن وجهات نظره السياسية."

قبل أن أجد الفرصة لأسال يقول: "أنا أناركي!" إنه بالتأكيد أفضل من ينثل الأناركيين ممن قابلتهم. يقول كاتشينج مغتاظًا: "لكنه ذهب إلى أرمينيا ليتزوج،" حسنًا، أستطيع فهم التناقض بين القومية والماركسية. لكن أن أفهم الأناركي في سعيه لاصطياد عروس من عرقه!

يتحرر جايسون من صمته أخيرًا. "أعتبِرَ آباؤنا أنفسُهم أمريكيين، وليس أرمن. لقد عملوا من أجل أمريكا؛ وأنا أعمل من أجل أمريكا، لكن عندما ذهبت إلى أرمينيا شعرت أنني أنتمي إلى هناك أكثر مما أنتمي إلى هنا. الفردية تهدد العائلة الأمريكية؛ الجميع يصل إلى الطلاق. ولهذا اخترت الزواج من امرأة من أرمينيا. إن لدينا الآن طفلاً عمره عامان."

"لكن أليست قدسية الزواج شيئًا قد يراه الأناركي ... " قطع سؤالي في منتصفه. "على أية حال"، مازال جايسون يتحدث. "أنا أناركي تقليدي، الأمر الوحيد الذي يجعلني أتعاون مع الاجتماعيين هي أنني لا أستطيع أن أجد جماعة سياسية قريبة لي."

قررت ضم القومي الاجتماعي سيفوج والأناركي التقليدي جايسون إلى موضوع فض النزاع. عندما سألتهم عن رأيهم عن الحوار التركي الأرميني، رد جايسون أولاً. "إنه لا يهمني. ليس أمرًا ذا قيمة بالنسبة لي، حتى لو كان مهما لأغلب الأرمن. أنا لا أهتم بما يقوله الأمريكيون أيضًا. هذا أمر بين الأتراك

والأرمن. والأمر عائد للأرمن أن يقرروا الحل الذي سيرضيهم ومتى". يطور سيفوج وجهة النظر قائلاً: "ليس من الصحي الثبات فقط على ما إذا كانت أمريكا أو أي من الدول الأخرى تفهم التطهير العرقي. وهذا لا يخدم القضية الأرمينية . بدأ الأمر يبدو وكأن الشيء الوحيد الذي يهتم به الأرمن هو حشد الكونجرس الأمريكي لتمرير القوانين والحلول. هذا مهين. من المهين أن تجعل السياسة مثل حفنة من فئران التجارب. وهذا هو السبب في أننا ننظم هذه المؤتمرات والاحتفالات، ليستطيع الأرمن إيجاد طرق جديدة لتشكيل السياسة، وبذلك نستطيع تشكيل حلفاء بين الجماعات السياسية ذات الأفكار المشابهة."

أكواب القهوة الفارغة تؤخذ بعيدًا ويأتي الشاي، ويتغير الموضوع. يخبرني سيفوج أنه يحسد حبيبته الكردية، والتي هي من فان. لماذا؟ "لأنني لم أكن أبدًا قادرًا على رؤية يوزجات، البلدة التي أتت منها عائلتي".

هذا السياسي الناشط الشاب المتخرج من هارفارد يجلس هنا في بوسطن ليتحدث عن يوزجات وكأنها أجمل بقعة على وجه الأرض. لم أستطع منع نفسي من الضحك. "اِعتبرْ نفسك محظوظًا!"

سيفوج لا يضحك. إنه في منتهى الجدية: "كنت أتمنى أن أكون من قرية برونكيسلا بإقليم يوزجات." أخبرني كيف تربى والده لدى عائلة تركية، وكيف تجول لاحقًا مع عمه عبر بلدان متنوعة حتى حدث أثناء العمل كبناء في بيروت أن التقى بوالدته.

قال: "لقد أخبرني كل هذا عندما كنت في السابعة، لأنني سألته عنه ذات يوم."

يتدفق التلاميذ إلى مقهى بامبلونا. يغدو من الصعب الحديث أعلى من هذه الأصوات العالية. صرح جايسون أنه رئيس مشارك في "مشروع الشجرة التركية" الذي يهدف إلى زرع نصف مليون شجرة في 625 مكانا مختلفا بأرمينيا". سنزرع 53000 شجرة من أجل هرانت"

قلت له: "سيكون هرانت سعيدًا".

عنوان الكتيب الخاص بالاحتفالية، "الأرمن واليسار"، يجذب عيني: "العلاقات الأرمينية- التركية: المخاطر والاحتمالات التي تلت مقتل هرانت دينك." ماذا كان سيشعر هرانت لو رأى أنه كان موضوعًا لمناقشة علنية؟ إذا رأى هؤلاء الشباب الصغار، الاجتماعيين والقوميين، الأناركيين والتقليديين؟ كما أفكر جليًا في مناقشات خضتها منذ الصباح، والتي تضمنت "مطالبات بالأرض"، فكرت ثانية في القصة التي أخبرني بها هرانت كمتحدث في هيئة من المتحدثين، بصوت مرتعش:

تركت بياتريك الأناضول عام 1915، لكنها كانت تعود لمحل ميلادها في سيفاج كُلَّ عامٍ. في ذات صيف، أغلقت بياترك العجوز عينيها للمرة الأخيرة في هذه القرية بسيفاج. تمكن رجل عجوز في القرية من الوصول إلى هرانت وطلب منه إخباره عن أقاربها الذين قد يكونون موجودين في اسطنبول. تم التواصل مع ابنة بياترك، وفي اليوم التالي هاتفت الفتاة هرانت من القرية وهي تبكي. قالت إنها لن تعيد الجثة إلى اسطنبول وأعطت الهاتف لرجل كبير، الذي قال، "إنها أمها، دمها. لكن لو سألتني رأيي، دعها تدفن هنا – لقد عادت المياه مرة أخرى للأرض الظمئه."

وكان هذا هو الأناضولي القديم يتحدث إلى ما كان يشير إليه هرانت عندما رفع يديه في الهواء وهتف كالرعد: "نعم إن عيوننا على أرضه. لكن ليس لنأخذها منه، وإنما لندفن في أعماقها!" كان يبكي وهو يقول ذلك. إلى أي مدى قد يتحرك ليرى أنه أصبح "عنوانًا للوحة"؟ حسنًا، سيكون سعيدًا بسبب الأشجار – ليس لدي شك في ذلك. أصبح مقهى بامبلونا مزدحمًا بشكل لا يحتمل.سنغادر جميعًا.

الفصل الثانى والعشرون: حقيبة اليد المخملية

نخرج من المقهى إلى حرارة الصحراء. ، ستكون "نتحاشى" أكثر دقة. لم يحدث أبدًا، هنا في لوس أنجلوس أو أي مكان آخر في العالم، أن تمت معاملتنا هكذا، يورتاش وأنا أصابنا ضيقٌ شديد. يصيح يورتاش: "كفى"، "نحن لم نخلق في هذا العالم لنتحمل كلَّ هذا!" له الحق في أن يغضب. وكلما حاولت فهم الكراهية والثورة التي يشعر به بعض الأمريكيين نحو الأتراك، فإن هذه المقايضة التي حدثت قبل دقيقة في هذا المقهى الفرنسي المزيف في لوس انجلوس، تجعلني أستشيط غضبًا.

المقابلة مع زافين مانجيكيان، والتي تم ترتيبها عن طريق صديق مشترك، بدأت على نحو سيّئٍ، وانتهت بشكل أسوأ: "صحفيون للبيع. الصحفيون الأتراك هم الأرخص بينهم على الإطلاق!" عند وضعنا لأكواب القهوة وخروجنا من المكان. أمنيات السيد مانجيكيان أصبحت حقيقة: لقد كان وقحًا، ولم يستطع الجلوس وحده في المقهى والإحساس بالانتصار.

لم يتحمس يورتاش أبدًا للوس أنجلوس، لكن بعد هذا الحادث الأخير، فقد بدأ بالفعل يشمئز منها: "لوس أنجلوس كذبة كبيرة!" وهي بالفعل كانت كذلك. مسرح كوداك، التي يتم فيه تسليم جوائز الأوسكار، يقع في مول تجاري متوسط الحجم، بصمات الأقدام والأيدي للنجوم موجودة على ممر صغير من الأسمنت أمام مطعم صيني؛ علامة هوليوود الشهيرة ممنوع تصويرها ولا يمكن الوصول إليها بالسيارة: الحل الوحيد إلى ممشى هوليوود للمشاهير هي الحافلات السياحية، تعلن الرحلات إلى منازل النجوم والتحف، للرجل العنكبوت، والفتاة الخارقة والرجل الخارق، هؤلاء الثلاثي بالأزياء التنكرية المطاطية فى وضع الاستعداد لألتقاط الصور التذكارية، فى انتظار أن تنتهى ساعات عملهم حتى يمكنهم التسلل إلى مقعد قريب والتهام الهمبرجر. أوه، والفتاة الخارقة تدخن بجنون. المحيط موجود في مكان ما بالخارج، لكننا لم

نتمكن يومًا من الذهاب إلى شاطئ فينيسيا: سيدة الملاحة مظبوطة على أن تحبسنا بعيدًا عن المياه بأي ثمن. يصرخ يورتاش: "هل هناك أصلاً مكان يسمى لوس أنجلوس؟". الحياة لا تستحق الحياة.

لدينا ساعات كثيرة يمكننا قضاؤها إلى أن يحين موعدنا التالي، ونحن مصرون على أن نتوه.

"هل لديك أية مشكلة في إيجاده؟"

***

عند الباب يحيينا هاري بارسيكيان، رجل الأعمال من بوسطن. ويضيف: " أن تستوعب بوسطن ليس بهذه الصعوبة." لقد التقينا في الذكرى السنوية للرابعِ والعشرين من أبريل ودعانا إلى منزله ذات ليلة لاحتساء القهوة بعد العشاء. زوجته هيلين، ذات الثلاثة والأربعين عامًا، تقف خلفه وهو يدعونا إلى منزله الجميل. بمجرد أن دخلنا رأينا خريطة على الحائط، وهو يقول: "هذه الخريطة مختلفة".

أوافقه قائلة: "أنت على حق"، "إنها خريطة جغرافية وطنية!" لم يكن هذا ليصبح أمرًا مضحكًا في أي مكان آخر، وتحت ظروف أخرى، لكن بعد كل هذا الحديث عن الخرائط والأرض، فإن هذا الأمر يجعلني أبتسم. بجانب الخريطة هناك صورة لوردة تنبت وسط الثلج. قلت بالتركية "كارديلين"، لأنني لم أعرف المرادف الانجليزي ل"قطرة الثلج".

يومئ بارسيكيان: "رأيت هذه الصورة على جبل أرارات." وهكذا بدأ يحدثني عن مغامراته في تركيا. "ذهبت أول مرة إلى تركيا لمدة يومين في عام 1967، مع والدتي. هي من قرية إفكر، في مدينة قيصري. يطلقون عليها اليوم باهشيلي. رجعت إلى عام 1985 لأتسلق أرارات، لكننا لم نستطع الحصول على تصريحات بسبب إرهاب حزب العمل الكردستاني (PKK). لذا فقد تسلقته للمرة

الأولى في عام 1986 مع مجموعة فرنسية. كذلك زرت بعض القرى في قيصرية. قالت لي إنها قد عاشت في قيصرية. أخبرتني أمي أنها عاشت في ديميركليك كاديسي، واستطعت العثور عليها. لقد فرشوا الإسفلت على كل ذكرياتنا بالطبع، لكن كان الأمر لا يزال مدهشًا أن أسير في هذا الشارع، أن ألمس هذه الذكريات."

تحضر لنا هيلين قهوة تركية، مع قطعة من البهجة التركية، تمامًا كما هو الحال في اسطنبول أو بيروت. قال لي هاري بارسيكيان: "هيلين من لبنان". لكن عائلتها من قرية إيفيليك. توقف للحظة، وتحدث بالتركية: "هذا هو حيث يكون السيد إيرسيزا!" "ألهذا أنت تتحدث بالتركية؟"

أشار بيديه "بالفعل ...بالفعل "، كان يستجيب بالتركية: "أفعل هذا ... ببطء، ببطء، أنا قادم من الأناضول!" بارسيكيان على دراية بمدى ما تحويه الجملة الأخيرة من معنى بالتركية، واستطاع التعبير عن نفسه بشكل جميل. ثم سخر من نفسه: "أنا أتعلم ببطء ببطء!" أخبره أنه يتحدث بلكنة أهل قيصري، وكم هو غريب علي أن أسمع شخصًا يتحول من اللكنة الأمريكية الانجليزية إلى التركية بلكنة غريبة. يضحك قائلاً: "إنها لكنة جيدة، إنها توضح أنني من الأناضول".

تقدم لنا هيلين "سوتلو" بقولها "سوتلاك" (أي بودنج الأرز). طريقتها في عمل أنواع الحلوى والأرز بالطريقة الشرق أوسطية جعلتني أنا ويورتاش نشعر بسعادة لم تشعر بها منذ أيام. أسأل بارسيكيان كيف هو الشعور أن تكون في الأناضول، وأذكر أن العديدَ من الأرمن في أمريكا خائفون من الزيارة.

" The Midnight Express19 syndrome!"!(21)"

يضحك ويلقي النكات حول العبارة التركية الشهيرة: "أنا الجناح اليساري، وهو ما يجعلني عالميا." أنا على وشك أن أطرح المناقشة في مقهى بامبلونا، لكني لا أريد أن أقاطع هاري بارسيكيان وهو يلخص مشاعره، مرة أخرى، بشكل رائع.

ولدت أرمينيا. كان يمكن أن أولد تركيا، هكذا أرى الأشياء. العالم هو بلدي. لم أكن لأقول بأنني ملحد - سيكون ذلك وقاحة ومباشرة. لكنني ممن لا يعلمون."

سألته: "هل يمكن أن تشرح؟ لماذا احتفال الرابع والعشرين من أبريل كان له قادة دينيون كثيرون وكل هذه النبرة الدينية الواضحة، وعلى الرغم من ذلك فأغلب المنظمين يساريون؟"

تجيب هيلين: "الكنيسة هي ولايتنا؛ القس هو قائدنا. الأرمن لا يذهبون إلى الكنيسة فقط لأنهم متدينون؛ ولكن لأنهم أيضًا أعضاء في المجتمع. وهذا السبب في أنك دائمًا ما ترى مدرسة ومركزًا ثقافيًا بجانب الكنيسة. حياتنا في توأمة مع الكنيسة. يقول هاري بأنه ينتمي لطائفة الذين لا يعرفون، لكنك لا تستطيع فعليًا نزع الدين عن كيان وهوية الارمن". أصبح هاري عاطفيًا جدًا عندما تحدث عن الأناضول؛ أسأله عن أرمينيا. يصف رحلته في عام 1998، للمساعدة بعد وقوع الزلزال. "أصبحت أكثر فهما للشعب الأرميني. ليس لديهم قوة، ولا طعام؛ لكن لديهم إحساس بالوحدة والتعاون. حاول منع الغاز عن الأمريكين لمدة خمسة أيام: سيفقدون صوابهم قطعًا. لكن الناس في أرمينيا استطاعوا الاستمرار جوعى وفقراء حيثما هم الآن."

أوقل: " لقد خُلق الأرمن قادرين على النجاة،" فينطلق هاري وهيلين في الضحك.

يحاول هاري التحدث بالتركية مرة أخرى: "ذهبت إلى أرارات وهناك نمت. في كيس للنوم!" في كل مرة يستطيع نطق جملة تركية، يهنئ نفسه بابتسامة.

أكملنا الحديث بالإنجليزية: "ذهبت لأرمينيا عدة مرات، لكن الذهاب إلى الأناضول.... " إنه يحتاج الكثيرَ من التفكير. "الذهاب إلى الأناضول يشبه زيارة أبي وأمي." سألته عمّا إذا كان قد تحدث إلى أهالي القرى عندما ذهب إلى محل ميلاد والدته. "بالطبع فعلت. سألتهم: "أين ذهب كل الأرمن؟". فأشاروا إلى جسر

وقالوا، "ذهبوا عبر هذا الجسر." لم يخبرني أحد عما حدث بعد ذلك. "يقاطع هاري قصته الخاصة: "أولدو أولدو!" ربما يعني القول "ماذا حدث، ماذا حدث؟. إنه يغير الموضوع. "لدينا مكان خاص في قلوبنا لكبار السن لأننا لم نر أجدادنا أبدًا. أذهب مرة لغناء أغنية للكبار سنا – بالتركية!" انفجر في الغناء: "كاديفيدين كيسيري/ أي: حقيبة مخملية....

أخبره: "كانت تلك أغنية والدي المفضلة." ثم أغني الشطرة الثانية. ينضم إلينا هاري، وتتردد كلمات هذه الأغنية الشعبية الاسطنبولية القديمة داخل حجرة في بوسطن.

يقف في منتصف الأغنية ويقول، " تركيتك أوروبية، نحن لا نتحدث هذا النوع من التركية. نحن لا نعرف إلا التركية الأناضولية."

شربنا قهوتنا، وهيلين، شأنها شأن أية امرأة في الأناضول، تضغط علينا لنشرب المزيد، والمزيد، والمزيد....

***

"أتريد فنجانا آخر من القهوة؟"

"واحد آخر وسأصاب بأزمة قلبية." لأننا بالفعل قد تناولنا رقما قياسيا من فناجين القهوة بأحد المقاهي عبر لوس أنجلوس في الساعات السابقة على موعدنا مع المؤرخ ليفون ماراشيليان، رفضنا أنا ويورتاش عرضها الطيب هنا في كلية مجتمع جليندال. وذكرت الحدث السيئ الذي وقع هذا الصباح- الطريقة التي استخدمناها لتهدئة الجالسين فى المقهى وكيف أن الأرمن هنا لا يشبهون الأرمن في أرمينيا وفرنسا. يقاطعني ماراشيليان: "هذا هو الإدراك – أن الأرمن في أرمينيا عقلانيون والأرمن في المهجر لديهم مشكلات."

استمر ماراشيليان في قوله أن هذه الصورة المشوهة أوجدتها تركيا. ليفون ماراشيليان هو مؤرخ نشرت كتبه بالتركية. لقد شارك في مؤتمرات مشتركة مع

مؤرخين أتراك. "دعت الحكومة التركية المؤرخين مؤخرا للاجتماع ومناقشة هذا الأمر. ما هي أفكارك عن هذا الأمر؟"

أسأله: "تخيل "جدالاً" حول وجود الحرب التركية من أجل الحرية من عدمه. أي مؤرخ تركي سيشارك في أمر كهذا؟ المؤرخون الأتراك يعرفون ما سيقوله الجانب الأرميني. إن عرض حكومتك مدفوع سياسيا؛ رفضنا له كان قائمًا هو الآخر على أرضية سياسية. إن سألتني رأيي، فإن الحكومات التركية المتعاقبة قد أجبرت الشعب التركي على الاستمرار في تحمل عبء البشاعات التي ارتكبت في الفترات العثمانية. لو كان قد تم الاعتراف بالإبادة العرقية، لغدت موضوعًا يتم تدريسه في دروس التاريخ، تمامًا كالهولوكوست في ألمانيا. هل رأيت في أي مرة الشعب اليهودي ينظم احتجاجات ضد الألمان؟ إن ذلك لا يحدث، لأن الموضوع قد انتهى."

يبدو ماراشيليان أنه يقدر الأبعاد السياسية لهذه القضية، لذا فأنا أسأله عن قرارات "الاعتراف بالإبادة الجماعية" التي حاول الأرمن تمريرها في الدول الأجنبية.

إنه متابع للإعلام التركي: "المرة الوحيدة التي أطلقت فيها الصحافة التركية تعليقات على هذه القضية كانت حين تم تمرير أحد تلك القرارات. وحتى ساعتها فقد حولوا حقيقة تاريخية إلى قضية مسائل أنية. إذا لم تكن تمرر هذه القرارات، فلن يكون هناك ذكر للتطهير العرقي في الصحف التركية. هل رأيت على الإطلاق أي مقال عن كتاب منشور لمؤلف أرميني؟ لا. إن تركيا قادرة على تجاهل المؤرخين، لكنهم غير قادرين على تجاهل التضمينات السياسية للاعتراف بالتطهير العرقي."

ذكرت الممثلين لأبناء المهجر الذين دعموا فكرة التسوية المالية. يقول ماراشيليان إن الأمر أكثر تعقيدًا من ذلك: "البعض قد يفكر بهذا الشكل، لكن الأمر بالأساس يتعلق بعملية أعم من إعادة الملكيات، من عمل تسويات.

المحددات التي سيتم ذلك عن طريقها هي أمر ثانوي. من الغريب الآن بالطبع الجلوس والتحدث عن الدولارات والسنتات. وإذا حدث، بمعجزة ما، أن اعترفت تركيا بالإبادة العرقية، فسيمكننا ساعتها أن نعمل مع الأتراك على تقرير أي نوع من التعويضات سنحصل عليه." يجذب ماراشيليان منديلاً من العلبة على مكتبه. "حتى لو قالوا إنهم سيعطوننا هذا المنديل، سيكون ذلك جيدًا جدًا. إنها مسألة مبدأ."

سألته: "هل هناك شكل من التعويض توصي به؟"

يفكر لدقيقة. "هذا شأن يخص السياسيين والدبلوماسيين، لكن في النهاية، الأرمن لن يأخذوا كل ما يريدونه - لكن أيضًا تركيا لا يمكنها أن تمضي هكذا وكأن شيئًا لم يحدث. لقد سرق منا ما هو أكبر من المال والممتلكات. فثقافة الشعب قد تم تدميرها. التطهير العرقي هو السبب في الحالة التي عليها أرمينيا اليوم، أرض منغلقة وفقيرة. كانت النية هي استئصال الأرمن كقوة محلية- وقد نجحوا في ذلك.

أعتقد أن التعويضات يجب أن تتضمن حرية مرور الأرمن بالبحر الأسود.

ماراشيليان على دراية بأن هذا الحل لن يرضي العديد من الصقور في المهجر، لكنه ليس مهتمًا بهم بدرجة كبيرة. " يمكن للسياسيين أن يحددوا التفاصيل. إنما العدالة هي ما يعنيني. أيًا كان الاتفاق الذين سنصل إليه - فإذا تم الاعتراف بالإبادة العرقية، سينتهي الصداع التركي. إذا توصلنا لحل عادل ذي معنى، ستكسب تركيا شيئًا أكبر قيمة من المال. كما ستستبعد كارت الإبادة العرقية السياسي الذي تتلاعب به جاراتها. الأمر كذلك دومًا."

ما هو؟

"إن أيًا من الجانبين لن يرضى تمام الرضا عن أي حل أيًا كان. علينا أن نعترف بذلك". أفكر في قضية المال ونحن نترك المكان. أخبرنا السيد مانجيكيان هذا

الصباح أن الصحفيين الأتراك "صاروا رخيصين". كم سيستغرق الأمر لجعل أرمينيا تتوقف عن الكراهية؟ هل هذا المال من الأناضول سيجعل هاري بارسيكيان يشعر بأي اختلاف وهو يسافر إلى الأناضول ليتحدث بحميمية مع والدته؟ من منا يمكنه التجرؤ على القول بأن "الصداع القومي" التركي سينتهي إذا دفعنا تعويضات للأرمن؟ ندلف لداخل السيارة . قضينا يومًا طويلاً، سنعود بسرعة إلى "أفضل أماكننا لعقد اللقاءات". أتصفح الصحف اليومية. هناك كتابات عن مظاهرات يوم مايو: إطلاق الغاز المسيل للدموع في المكسيك يؤثر على الاطفال. المقال يحدد تكاليف التظاهر فى أول جمله . لم أر شيئًا كهذا في حياتي، لقد تعلمت في لوس أنجلوس لأول مرة أن هناك "بطاقة أسعار" للمظاهرات.

21- فيلم عام 1978 يحكي قصة أمريكي محكوم عليه بالسجن ثلاثين عاما في سجن تركي لمهربي المخدرات، ويليام هايز، مؤلف الكتاب، وأوليفر ستون الذي كتب السيناريو اعتذرا علنا للشعب التركي عن التصوير العنصري في الفيلم عن محنة هايز.

الفصل الثالث والعشرون: عندما تكون في روما...

ماذا يمكنك أن تفعل؟ هذا المكان يدار بواسطة المال بالطبع

كان تاتول سونتز بابازيان المحرر بمجلة هاى سيرد يجلس في مكتبه في ووترتاون بولاية بوسطن يتحدث عن اللوبي الأرميني واللوبي التركي ولا يبدو عليه السرور على الإطلاق من سعيهم الدؤوب خلف المال.

بواسطة علاقاته الوطيدة بالمؤسسات الثورية الأرمنية ونائب رئيس مؤسسة الإغاثة الأرمينية أصبح باربازيان شخصية بارزة، ليس في المجتمع الأرميني في أمريكا وحدها ولكن في خمسٍ وعشرين دولةً تنشط بهم المؤسسة

بينما هذا الرجل المسن يخبرنى كم من المرات تم إقرار قانون "الاعتراف بالإبادة الجماعية"

وعدد أعضاء الكونجرس الذين دعموا الأرمن مقارنة بعدد أعضاء الكونجرس الذين دعموا الأتراك. وكيفية تمويل هذه الأنشطة وكيف انخرط في اللوبي وكيف أن اللوبي اليهودي أكثر نجاحًا من اللوبي الأرميني ولكنه توقف عن الكلام فجأة ثم قال "الأمريكيون لا يعلمون شيئًا عن المذبحة، إنهم بالفعل لا يعلمون الكثير، ولكن يمكنني القول بأن جهودنا جعلتِ الأمرَ مألوفًا لديهم كالعلامة التجارية"

سألته "ألا يمكن أن يجلبَ عليك مصطلح العلامة التجارية بعضَ المشاكل؟"

فأجاب "لا عليك، إن هذه البلاد تدار بواسطة المال، أتعرفين ما هو شعارهم؟ عندما تكون في روما فافعل كما يفعل أهل روما"، شجعتني نبرة صوته التي تحمل بعض الأسى والندم على الاعتراض بصوت منخفض "ولكنك لست من أهل روما"

عندها كان قد مضت علينا ثلاثون دقيقة في مناقشات جافة، فقال باربازيان

"هل لديك مانع أن أشعل سيجارًا؟" وبدأ يدندن بالتركية "حلوى النعناع, عصير النعناع, أنا لا أرغب في سواك"

أحدق اليه. يحدث هذا للكثير ممن تحدثت معهم، الذين لهم أصول تركية. فجأة في منتصف الحديث تصحو لديهم الذكريات ويتحدثون بالتركية وكأني أطلق لهم إشارة من نوع ما.

يسحب بابازيان نفسًا عميقًا من السيجار وهو يقول " اعتاد جدي أن يغني لي هذه الأغنية في الماضي وأنا لن أنساها ما حييت"

ولد تاتول في عام 1929. الرجل الذي كان منذ لحظة واحدة يتحدث بلكنة أميركية حول الأرقام، والمال، وجماعات الضغط، انقلب إلى رجل عجوز يحكى قصة حزينة والضعف يملؤه.

يسحب عدة أنفاس عميقة من السيجار ويحبس الدخان بداخل رئتيه قليلاً كرجال الأناضول، ويخبرني أنه ولد بالقاهرة، لكنَّ أُمَّهُ من مدينة وان, بلاده الحقيقة. وأباه من ميناء صغير على البحر الأسود كان يعمل كبحار على السفن المتجهة إلى القرم وكان جَدُّهُ من طرابزون

ببطء بدأ تاتول يتحدث عن طفولته " لم أسمع عن الإبادة الجماعية من أمي ولا من أبي ولكن المعلومات صادفتني خلال رحلتي في الحياة من خلال قراءة بعض السطور وسماع بعض الأغاني علمت ما حدث وحملت ما علمته لباقى حياتى وفى يوم ما ..."

توقف قليلاً وسحب نفسًا من سيجاره ثم سحب ملفًا من على الرف ووضعه على الطاولة أمامي قائلاً "هذه قصيدة كنت قد كتبتها عن جدي"

اسمحوا لي أن أدعوك هوفزيف

حيث إنني أكبر منك الآن

وفي ذهني كنت

وستكون إلى الأبد

والد أمي

الشاب

وزوج جدتي

العاشق

..

هوفزيف

الصمت الآن أبدي

حداد الأب والأم والجدة

على الجد المفقود

فى ذاكرة صماء عمياء

ستعيش للأبد

...

قال لى بعد أن فرغت من قراءتها " إن وجه جدي لا يغيب عن ذاكرتي أبدًا أذكره طوال الوقت، لقد كان في الخامسة والعشرين "فسألته "أليس هذا أمرًا مرهقًا"

فوافق قائلاً "إنه استنزاف عاطفي يا عزيزتي"

وأضاف "من الصعب أن أشرح لكِ، لكنى غير مهتم بنزع الاعتراف بالإبادة

الجماعية من أي دولة في العالم غير تركيا. إن هذا هو السبب الذي أعيش من أجله، لقد عشت حياة طويلة، وتدرين ما الذي توصلت إليه في النهاية: أن الشيء الوحيد الأهم من الحرية هو العدل"

أجبته "ولكن لو اعترفت تركيا بالابادة الجماعية فستفقد سبب وجودك"

قال وعيناه تترقرق بالدموع "لقد كنا مشردين، يجب عليكِ أن تدركي هذا، لقد كنت أغنى منذ قليل أغنية سخيفة للأطفال، هذا كل ما تبقى من طفولتي، أغنية سخيفة لا أستطيع أن أتذكر غيرها"

تغلب على دموعه واستمر في الحديث "إن الذين يعيشون في أرمينيا لا يدركون الوضع هنا، حتى هرانت كان يتكلم وهو يعيش في وطنه ولكننا هنا معرضون لفقد هويتنا وطمسها"

وبدأ يتحدث عن الأسباب التى يجب من أجلها أن تعترف تركيا بالإبادة الجماعية، ولاحظت التغير في تعبيراته وصوته والمفردات التي يختارها. إن التحدث إلى الأتراك لا يختلف عن التحدث مع تاتول، إنهم يغضبون كثيرًا ولكنهم أيضًا يفرغون شحنة كبيرة من الأحزان

إنهم غاضبون و متألمون ولكنه ليس غضبًا خالصًا ولا ألماً خالصًا

أتذكر ما قالته هيلين بارليان في باريس :" لو كنت أرمينيا فإنك ستخشى مقابلة الأتراك، ستخشى من مشاعرك تجاههم في حالة المقابلة "أفهم طبيعة هذا الاستنزاف العاطفي وأعرف أنه إن واتت أرمينيا الشجاعة للحديث فيجب على الإنصات وبينما أنا أنصت يبدأ الغضب والكراهية في الخفوت، لقد لمست ذلك في كل مرة، إن قدرتهم على الانفتاح والتحدث إلى بحرية تصنع المعجزات، ربما لأنني "تركية" ربما لأن أحد الأتراك يستمع إليهم ولا يعترض أو يقاطع، ربما لأنني من "الأرض القديمة" والكلام مع أحد أبناء الوطن الغائب يجلب الذكريات والحنين للأساطير التي سمعوها في طفولتهم.

كنت أفكر في كل هذا عندما أنهى تاتول حديثه، ولكنى استدركت وهو يقول: "إن الأكثر عرضة للخطر هو الهوية الأرمينية في حد ذاتها" ثم يقوم بسحب ملف آخر من على الرف ويعطينى بعض القصائد.

شعرت أنه سيكون سعيدًا ببقائي لفترة أطول ولكن الوقت كان قد تأخر بالفعل وبينما نحن نغادر مكتبة طرأت لي فكرة عظيمة، هي أن حل هذه الأزمة لا يأتي إلا بالإنصات، باستماع كل تركى لشكوى أحد الأرمن، ربما علينا أن نبدل كلمة "الحوار" بكلمة ا"الاستماع" كحل للازمة الراهنة. استمع فقط دون أن تقاطع لعل هذا يُحدثُ فرقًا كبيرًا!

***

"بالفعل الإنصات سوف يُحدث فرقًا ولكن الإنصات ليس بهذه السهولة التي يظنها بعض الناس"

إنني أسير تحت المطر على ضفة النهر في بوسطن مع فيل جامليان وسيرين ارجنس، كانوا يخبرونني عن "الحوار التركي الأرميني" تلك المبادرة التي نظمت في بوسطن عام 2005، في إطار جهد مخلص لتعزيز الحوار. يحمل فيل درجة الماجستير في مجال حل النزاعات من جامعة برانديز، بينما سيرين طالبة الدراسات العليا في العلاقات الدولية بجامعة بوسطن.

تعرف فيل على بعض الطلاب الأرمن ثم بدأ في مخاطبة بعض الطلاب الأتراك من بوسطن. لم يلقَ اهتمامًا كبيرًا في البداية حتى إن الأرمن المشاركين أعادوا النظر في الأمر ولكنه كان ثابتًا على مبدأ واحد "يجب على الأتراك المشاركين الاعتراف بالإبادة الجماعية"

بعد أن حقق فيل بعض التقدم، زار بعض الأسماء المرموقة في المجتمع الأرميني المحلى وتلقى منهم الدعم الكافي الذي ساعده على إطلاق المبادرة بالتعاون مع زينب سفجيك، وهى طالبة دراسات عليا من تركيا في جامعة

براندیز، وبدأ یشرح قائلاً: "كانت خطتنا تقتضى أن ننشئ علاقات بين المشاركين ونقيم مجموعة أنشطة مختلفة لتوطيد أواصر المعرفة بينهم قبل بدء أية نقاشات خلافية بينما كانت الخطوة الثانية هى فتح مجموعة من المناقشات النمطية وأخيرا مناقشة التاريخ المشترك والتحدث عنه"

وهل سارت الأمور كما كان مخططًا لها؟

"كنت أنا وزينب منسقي اللقاء، ولكن ما أن شرعت في الحديث حتى بدأت مشاعري الشخصية في التدخل، مشاعري كأرميني كانت أقوى مما كنت أتوقع، كان من المفترض أن ابعد نفسي بشكل أكبر. سيرين أيضًا اكتشفت العديد من المفاجآت عن نفسها عندما حضرت حلقات النقاش وذكرت أنها لم تكن تدرك الآثار المترتبة على جيرانها في تركيا بسبب جذورهم الأرمينية المسيحية والى غالبا ما يناديهم الأتراك بكلمة "مدام "

بالضبط كما يفعل بعض الأتراك الذين لا يلاحظون أثر العمارة الأرمينية في المباني التركية ولا يدركون أن بعض الأرمن لم يهاجروا ومازالوا يعيشون في تركيا حتى الآن"

قلت " بالضبط مثل مدام اناهيت" كانت يرين تدرك ما أعنيه ولكنى اضطررت للشرح حتى يفهم فيل. كانت مدام اناهيت تجول بين الطاولات في نيفيزادا وحلقة الأسماك ومنطقة بيوغلو في اسطنبول المليئة بالحانات ومشروب الراكى والمقبلات.

كانت جدران الحانات مزينة بصور مدام اناهيت بصحبة الفريق الموسيقى صناع الفرح.

عندما توفيت في عام 2003، نعتها الصحف قائلة "لقد فقدنا مدام اناهيت". كانت بالطبع، أرمينية، سيرين محقة فيها قالت. فأنا لم أكن أنظر إليها أبدًا على أنها أرمينية. لقد كانت بالنسبة لى دومًا هي تلك المرأة صاحبة الأكورديون التي

تملك من الفن والقوة ما يمكنها من إسكات طاولة من الرجال السكارى بنظرة واحدة.

الذاكرة مكان غريب يسجل أشياء كثيرة دون أن تعرف أستطيع الآن أن أتذكر مدام اناهيت وعزفها لأغنية " تحت النجوم" بينما سيرين تقول: "في يوم ما قدمني أحد الأصدقاء إلى إحدى الأرمن في الصين، كانت تكرهني بشدة حتى إنها رفضت مصافحتي، لم أكن أعرف السبب ولكن مع الوقت واختلاطي بالطلبة بدأت أردك طبيعة المشكلة حتى إنني بدأت أتعاطف مع الأرمن، بل لقد أصبحت لي رؤية خاصة حول التاريخ المشترك بيننا. ربما لا يتفق معها الجميع ولكنى تمكنت من خلال المجموعة من تفهم الآخرين ومراعاة مشاعرهم"

مما أخبرني به فيل وسيرين بدا لي أنه لم يكن كل الأعضاء قادرين على مواجهة مخاوفهم وذكرياتهم. قالت سيرين "لقد أدركت أن بعض روايات الأتراك في المجموعة تختلف تمامًا عن روايتي للتاريخ، فقد كانت نظرتي عاطفية بينما كانت نظرتهم أكثر قومية. لقد بدا أن بعض الأتراك كانوا في حاجة لترشيد انفعالاتهم حول ما حدث، وكذلك كان بعض الأرمن منفعلين بشكل أكبر من اللازم، ولكن أكثر ما صدمني هو عدم قدرة بعض الأتراك على الاعتراف بأن هذه الأحداث يمكن أن تسبب ألمًا حقيقيًا للأرمن حتى اليوم. لم يكن لديهم القدرة على إدراك الألم الذي يبدو على بعض الأرمن المشاركين في المجموعة."

وأجملت سيرين موقف الأتراك قائلة : " نحن نعترف بما بيننا من تاريخ مشترك ولكن لا يمكن أن نطلق عليه إبادة جماعية أبدًا، ولا يمكن أن نُلقي اللوم على طرف واحد، إنها بالفعل مأساة إنسانية قد خلفت جراحًا مشتركة وألمًا كبيرًا"

أخبرني فيل أيضًا عن ردود أفعال الأرمن في المجموعة.

"كنا نكتب ملخصًا عن كل اجتماع نعقده كنا نتفق على صيغة الملخص، ثم ننشره على موقعنا الالكتروني، كان الملاحظ أن بعض الأرمن يعتقدون أن

الاجتماعات لا طائل من ورائها، بينما البعض الآخر يرونها أمرًا ايجابيًا وبناءً"

قال فيل بأن المناقشات اقتصرت على أعضاء المجموعة الذين لم يتجاوزوا العشرين فردًا، وأنه بعد نهاية المناقشات عقدت ثلاثة ندوات لاستعراض النتائج. وعند انتهاء الندوة الخاصة بمناقشة التاريخ المشترك مع الأرمن تبخرت المجموعة ولم يبق أحد

فسرت سيرين ذلك بصعوبة خلق ذاكرة مشتركة للأحداث التاريخية الخاصة بالأرمن والأتراك "لقد قمنا في احدي المرات بتقسيم الحضور إلى مجموعتين إحداهما تركية والأخرى أرمينية وطلبوا منهما كتابة قائمة بأهم الأحداث التاريخية التي أثرت في العلاقة بين الأرمن والأتراك بترتيبها الزمني، وكانت المفاجأة أن القائمتين كانتا مختلفتين تمام الاختلاف.

كانت الأحداث التاريخية المهمة عند أحد الأطراف غير مهمة على الإطلاق عند الطرف الثاني أو يتم تجاهلها. لقد أدركنا أنه لا يمكن أن نكتب تاريخًا مشتركًا إلا لو اتفقنا على أهمية الأحداث التاريخية التي تخص كل جانب واعترفنا بها"

هذا ما كان هرانت يعنيه بقوله "إن الذي حدث قد حدث لنا جميعًا، فالتاريخ بيننا مشترك"

قال فيل "الأرمن دائما يفكرون ويتكلمون ويكتبون عن الأتراك ولكن الأتراك لا يتكلمون أبدا عن الأرمن. عندما قتل هرانت بدء الأتراك أخيرًا بالتحدث فيما بينهم عن الأرمن، وبدء الأرمن المتشددون في تبنى وجهه النظر التي تقول بأن الأتراك بدءوا في قتل الأرمن مرة أخرى، ولكنى على ثقة بأن هذه ليست وجهه نظر كل الأرمن"

سكتت سيرين قليلاً قبل أن ترد "لقد تأثر الأتراك لموت هرانت أكثر من الأرمن" قالتها ثم وجهت حديثها إلى فيل قائلة "أسفه لم يكن يجدر بي الحديث بالنيابة عن الأرمن"

ثم ضحكت وهى تقول "هذه من الأمور التي تعلمتها خلال النقاشات، لقد تعلمنا أن نتجاوز الأحكام المسبقة لدينا، وألا نتكلم بالنيابة عن الآخرين"

كان لديها المزيد لقوله حول هرانت "لقد خضت العديد من المناقشات الطويلة حول هرانت مع أناس مختلفين، وحدث أمر عجيب، كنا سابقًا كأتراك نفكر تقريبًا بنفس الطريقة ولو بدرجات متفاوتة ولكن بعد وفاته انقسمنا فجأة إلى مجموعتين، مجموعة لديها أفكار تصالحية ومجموعة ليس لديها نية للتصالح. هكذا قسم الأتراك"

كان فيل وسيرين في حالة من الارتياح المتبادل والتفاهم غير الاعتيادي بين الأرمن والأتراك، ربما كان ذلك بسبب أنهم عملوا معا لفترة طويلة وفى أمور صعبة على عكس العديد الذين كثيرًا ما نجد في اجتماعاتهم الكثير من الصراخ والضجيج.

قال فيل بلهجة مطمئنة "الحوار يجلب خيرًا كثيرًا ولكنه ليس سهلاً كما يظن معظم الناس؛ فالمرء لا يعرف أبدًا إن كان قد تخلص كليًا من الغضب والكراهية أم لا"

تبادلا الابتسام ثم أخبرني فيل قصة كلاهما يعلمها على الأرجح.

"عن نفسي فقد قطعت شوطًا كبيرًا لأدرك كم كنت منغلقًا. كنت قد عرفت سيرين لمدة ستة أشهر وأصبحنا أصدقاء مقربين، وفى أحد الأيام خرجنا في نزهة بصحبة ابني الذي تركته مع سيرين وذهبت إلى ستاربكس لأحضر قهوة وفجأة قلت لنفسي: "كيف أمكنني أن أترك ابني مع أحد الأتراك، لا أستطيع حتى الآن أن اصدق أننى فكرت بذلك وأنا الشخص المؤمن بالحوار. من يدرى كيف يفكر الآخرون؟

ابتسمت سيرين لأنها لا تأخذ هذا الموضوع بمحمل شخصي، لقد مرت فترة طويلة على الأمر وتوطدت علاقتهم أكثر من خلال مجموعات العمل التي

أطلقوها في العديد من المدن مع طلاب مختلفين.

اِشتد هطول المطر واضطررنا للابتعاد عن النهر، كنت أشاهدهما بينما يبتعدان، سيرين بالحذاء البنفسجي طويل الرقبة وفيل الذي مازال يحمل الطابع السوفيتي كشباب يريفان.

لا أدرى ما هو رأيهم في الآن؟ من يعلم ما هو رأى الناس الذين قابلتهم خلال رحلتي، الناس الذين ضحكوا وبكوا وهم يخبرونني بقصصهم؟ يا ترى ماذا قالوا عنى بعد أن ودعتهم وتصافحت أيادينا؟ لقد كنت في الماضي مجرد واحدة من الأتراك بالنسبة لهم؟ هل يصدقون حقًّا انني حزينة لوفاة صديقي الأرميني؟ هل يظنون أنني من الأتراك الذين لا يمكنهم أبدًا إدراك حجم معاناتهم مهما حدث؟ بالطبع لن استطيع أبدًا أن أعرف، وربما هم أنفسهم لا يعرفون.

لكنى لا أدري لماذا استمر حتى الآن في متابعة الأرمن والاستماع إليهم؟ لماذا أرى فيهم ما لا يراه الآخرون؟ لماذا اخترت الوقت الذي تقف فيه بلادي على حافة الهاوية للتنقيب في الماضي؟ هل أعنى لهم شيئًا حقًّا عندما نفترق وتتصافح أيادينا؟

***

"هذا سؤال صعب يجب أن أفكر فيه مليًّا؟"

كان الوقت فى نهاية الظهيرة عندما وصلت لمكتب الطبيبة النفسية مارال يورانوسيان بابيان بشارع فنتورا بولاية لوس انجلوس. إنها أخت برج بورجيان المحامى الذي قال لي عند حمام السباحة في الفندق الفخم "إنه يتحدث التركية كالأكراد" وأعطاني الكارت الشخصي الخاص به.

بينما كنا نتوجه للمقابلة الأخيرة كان يورتاش وأنا في غاية التعب، وكنت أعانى من كوابيس منذ وفاة هرانت، وقد ضاعف هذا الشعور الجدول الزمني

المحموم الذي ألزمنا به أنفسنا لإجراء المقابلات، وكذلك عدم قدرتي على النوم ليالي طويلة، وكانت الأخبار التي تصلنا من الوطن سيئة للغاية. أدت المظاهرات القومية إلى حدوث العديد من المشاجرات وكذلك زعمت الصحف أن هجومًا وشيكًا يخطط له حزب العمال الكردستاني. كانت تركيا تغلي كالعادة.

كان لدى قصة طويلة لأحكيها ولكنى لم أكن متأكدة من إمكانية نشر ما لدى من حكايات عندما أعود للوطن، ربما كانت محصلة رحلاتي الثلاثة مجرد عامود صغير بعنوان "في محبة هرانت"

" يجب أن نستمر في الحوار، يمكنك أن تقتل الناس ولكن لا يمكنك أن تقتل الإنسانية"

كانت هذه الكلمات تسيطر على منذ عدة أشهر كسحابة ثقيلة من الحداد على هرانت. ربما حان الوقت أن ترحل ولكنى أعرف أنها لن تفعل.

كانت صعوبة اللقاءات وعدم رغبة الأرمن في أمريكا بالحديث تدعو إلى الإحباط، وكانت الصورة الذهنية للقاتل المتطرف هي الغالبة على نظرة الأرمن للأتراك هنا، مما دعاني لأتساءل عن جدوى ما افعله ومن الذي سيهتم بما توصلت إليه.

ربما لهذا السبب كنت سعيدة وأنا أغرق في الكرسي الأحمر المخملي بمكتب بابيان، لقد أشعلت البَخور في حجرة الضيوف الصغيرة من باب قتل الوقت وهى في انتظارنا، وما أن التقينا حتى صرحت لها قائلة بمبعث من الارتياح " أنا مرهقة " فردت على بقولها "يبدو أن الأرمن قد أنهكوكِ من كثرة المقابلات"، "بل الأتراك والأرمن"، وضحكنا ثم تبادلنا الصمت للحظات.

ليس على الحذر في اختيار الكلمات مع بابيان، يمكنني أن اشعر هذا من طريقتها، ولذلك سألتها سؤالاً مباشرًا: "لو صادف أن حضرت لعيادتك مريضة

تركية هل ستقومين بعلاجها على الوجه الأكمل أم ستمنعك مشاعرك تجاه الأتراك من إتمام العلاج؟"

بدت الصدمة على بابيان من فظاظة السؤال، ولكنها بدلاً من أن تجيب الإجابة السهلة "بالطبع لا"، قالت "هذا سؤال صعب" وفكرت قليلاً ثم ردت بطريقة تثير الشك: "سيعتمد هذا على حالة المريض الصحية" وبدا واضحًا أنها تتجنب إجابة السؤال عن طريق الابتسام.

بابيان التي وفدت إلى أمريكا في سن الثانية عشرة قادمة من سوريا وتخصصت في علم نفس المراهقين لا يقتصر عملها على الأرمن ولا الأتراك ولكنها تعالج المرضى من كل التجمعات العرقية المختلفة، وبدأت أتساءل: هل فترة المراهقة صعبة بالنسبة للأرمن الذين يسمعون العديد من القصص والمآسي كجزء من عملية التنشئة؟ وسألت بابيان "هل من الضروري أن يقص على الأطفال والمراهقين هذا النوع من القصص" ففكرت في السؤال مليًا ثم أجابت: "إن الرد على هذا السؤال بالنسبة لي صعب للغاية، كطبيبة نفسية في المقام الأول وكأم أرمينية قد قامت بتربية أطفالها وتعليمهم، ولكنى أؤمن أننا يجب أن نخبرهم يجب أن يعرفوا الحقيقة كاملة حتى يستطيعوا بناء المستقبل. ربما كان من السهل علينا في الشرق الأوسط الحفاظ على هويتنا ولكن هنا الأمر يختلف. يمكننا بسهولة أن ننصهر في المجتمع. إننا لو لم نقم بزراعة بذور الحقيقة في عقولهم لانصهروا بسهولة في المجتمع الأمريكي"، "بذور الحقيقة؟"

"الحقيقة أنهم أرمن ومن واجب الأم أن تغرس في أبنائها قصصهم القديمة حتى يتسنى لهم معرفة الماضي ونقله للأجيال التالية. إنني أفكر في إجابة سؤالك في الناحية النفسية، وباعتباري أم. إن من واجبنا أن نخبرهم الحقيقة كاملة وما أن نبدأ بإخبارهم الوقائع سيرغبون في معرفة المزيد، سيرغبون في معرفة من أين أتوا ومن هم أجدادهم. ربما سنضطر لإخبارهم وقائع رهيبة، ولكن لا مفر من ذلك، فهم يجب أن يعرفوا كل شيء"

فقلت " حتى في أمريكا التي تحمى الأطفال من كل مظاهر العنف وتربيهم في بيئة معقمة؟"

فضربت بابيان مثالاً بأسرة تعرفها

"أعرف زوجين حديثي الزواج، الرجل يبلغ من العمر اثني وعشرين عامًا حاصل على مؤهل جامعى وزوجته أمريكية. فى إحدى الأيام قرر أن يحكى لها عن الإبادة الجماعية ويطلعها على ما بحوزته من الصور والمعلومات، وفى اليوم التالي جاءت أمها لائمة ومعترضة عن الصور والفظائع التي شاهدتها ابنتها. وبالفعل لم يكرر ما حدث ولكنى متأكدة أنه في يوم من الأيام سيقوم بتكرار ما فعل، فهو لا يملك حيلة إزاء ذلك، فهو جزء من شخصيته"

" لو كانت 1915 جزء منك فمعنى هذا أنك جزء منها؟"

"أعتقد هذا. إن الانتماء لهذه القصة يعنى أن يكون لديك انتماء لشيء ما. إن آباءَنا وأمهاتنا لم يخبرونا بشيء عن تلك القصص، ربما لأنهم كانوا يؤسسون حياة جديدة هنا. جاءت حاجتهم الأساسية في الاستقرار وإطعام الأبناء في المقام الأول، ثم جاءت بعد ذلك الحاجة للمعرفة، ثم الحاجة للانتماء. هكذا الناس دائمًا. إن الناس لديهم أيضًا رغبة في أن يتذكرهم الجميع بعد الموت، ربما كان لذلك علاقة بالأمر"

فقلت لها " إذا فقد كنت ترغبين في أن تُشعري أبناءَك بهذه الصدمة حتى تصبحي جزءًا من الحدث ومن التاريخ وتنتمين لشيء ما، ويتذكر الجميع معاناتك"

أشاحت بابيان براحة يديها وكأنها تريد أن تقول "إنه الأمر الواقع، ماذا سنستطيع أن نفعل تجاهه؟" ولكن كيف؟ كيف استطاعت أن تخبر أطفالها؟

" لقد اصطحبت الأطفال في الثاني من إبريل عند النصب التذكاري لإحياء

الذكرى وحضور المراسم، لقد كانوا يغنون ولكنهم لا يفهمون عما تدور الأغاني ولكن ابنتي سونيا سألتني عن ذلك لاحقًا، عندما مات جدها كانت في عمر الثانية عشرة، أعتقد أن قصة الإبادة الجماعية ارتبطت في ذاكرتها بوفاة الجد، لقد أعطاها جدها نسخة من الإنجيل مكتوبة بالتركية والنقوش الأرمينية.

لقد أحضرت لي الإنجيل وبدأت أحكى لها، ولكنها لم تستطيع النوم في تلك الليلة ولا عدة ليالٍ بعدها، وبالنسبة إلى ابني ..." سكتت قليلاً ثم أكملت مبتسمة: "لم يبدُ أن لديه هذه الحساسية. في الثاني والعشرينَ من إبريل قام بعض الأتراك بالتظاهر احتجاجًا على اعتراف أمريكا بالإبادة الجماعية للأرمن، ولكنه لم يغضب مثلى وبدا أقل ممانعة لما يحدث. الشباب الآن أقل وعيًا مما كنا عليه في الماضي، وأكثر رغبة في الحوار مع الأتراك، هذا ما لاحظته.

عندما كنا في مثل عمرهم لم نكن نتحدث مع الأتراك على الإطلاق، ولا فكرة لدينا عما يمكن أن نقول إذا اضطررنا للحديث معهم. أتدرين أن الشباب يتصرفون بطبيعة تشبه الأمريكيين أكثر مما تشبه الأرمن؟"، قلت لها "ولكن، هل يستحق التمسك بالتقاليد جلب كل هذا الألم لذاكرة الأطفال؟"

طأطأت بابيان رأسها وبدا أنها لن تجيب، ولكنها قالت في النهاية: "لكنهم سيفقدون هويتهم لو لم يعرفوا الحقيقة". يبدو أن العالم يجرى بسرعة عجيبة ويجب أن نتمسك بالقصص التي تربطنا يبعضنا البعض بشكل أكبر وربما العالم لن يتغير على الإطلاق مهما فعلنا.

إن الحياة حكاية طويلة يرويها الأحياء عن الأموات للقادمين الجدد الذين يحملونها، لتحمل وجوهًا جديدة لأشخاص جدد بعد موتهم. والذي لا يصبح جزءًا من الحكاية يخاطر بأن تمحى ذكراه من على وجه الأرض، وهذا هو فقدان الهوية.

إن الوحدة أسوأ من الموت في نظر الكثيرين، وإن كان على المرء أن يموت في النهاية فلا بد أن يموت بين الآخرين، وأن يصبح جزءًا من قصتهم، على ألا

يصبح جزءًا من أي شيء على الإطلاق. إن لم تكن جزءًا من كيان أكبر ستفقد هويتك، تماما كالإنسان البدائي الذي أدرك أنه لا يجب أن يظل وحيدًا في الغابة حتى لا يتعرض للخطر، إنها من الاحتياجات الأولية التي قد تدفع الشخص لقتل من ينكر القصة التي هو جزءٌ منها ويدعى بطلانها. إنه الخوف من أن تمحى أنت ومعارفك وكل من حولك من على وجه الأرض ثم لا يبقى من يحكى قصتك، قد يدفعك ذلك إلى القتل، قد يدفعك إلى قتل واحد من أفضل الناس على وجه الأرض، كهرانت.

ربما العالم لا يتحرك على الإطلاق أو يتحرك بسرعة شديدة حتى خرج عن السيطرة.

لقد احترق البَخورُ بالكامل وأوشك الظلام أن يحل. عندما وصلنا لباب الخروج شدت بابيان على يدي بكلتا يديها وقالت: " لكم أرغب في أن أنطلق في رحلة أنا أيضًا، رحلة لاستكشاف الأتراك. أريد أن أعرف لماذا يحجمون عن الكلام في هذا الموضوع"

شددت على يديها بكلتا يدي في المقابل وقلت: "بالفعل يجب عليكِ ذلك، فبمجرد أن تبدئي في فهم الآخرين ستفهمين نفسك بشكل صحيح"

أصر يورتاش على أن نذهب لرؤية المحيط مرة أخرى قبل أن نغادر لوس انجلوس ونفترش تلك المساحة اللامتناهية من الرمال.

الفصل الرابع والعشرون: أختي الأرمينية

كانت الشمس توشك على الغروب في نفس الوقت الذي نجحنا فيه اجتياز الطريق المزدحم والوصول إلى شاطئ فينسيا. يقف شخص أمريكي ذو أصول لاتينية مفتول العضلات مرتديًا ثوبًا جلديًّا ويحيط خصره بحزام عريض ويتلاعب في الهواء بمجموعة من الكرات، وفي أثناء ذلك يبحث عن شخص يلتقط له البعضُ صورًا فوتغرافية سريعة، يقف هندي على مقربة منه على يديه وقدماه متشابكتان في الهواء فوق رأسه ويمر على زلاجة ذات عجلات معدنية لاعب جيتار يعزف بشكل رائع وهو معتمر قبعة ذات الوان مميزة، بينما يمارس مجموعة من الرجال السود الرقص والأكروبات، وتجلس بعض النساء اللاتي اكتسبت بشرتهن اللون البرونزي وقد كشفن صدورهن الممتلئة كي تتعرض للشمس.

يصف يارتش شاطئ فينسيا باعتباره "سيركًا بشريًّا"، في هذه البلاد، هنالك فرصة لكل شخص، فرصة قد لا تتكرر ثانيًا. هذا ما كنت أفكر فيه بينما توقفنا لنشرب البيرة على الشاطئ في المكان الوحيد المسموح فيه بالتدخين.

جلسنا ندخن ونشرب البيرة وفي الأفق وبالقرب منا يقرع بعض الرجال الطبول، بينما ترقص النساء وبأياديهن زجاجات الويسكى. وعلى مقربة من تلك الحفلات تقف سيارة شرطة، وأنا ويورتاش لا نفعل شيئًا خلا تبادل الابتسامات، واستمر صمتنا قليلاً حتى قطعه يورتاش فجأة عندما شرع في غناء إحدى الأغاني الفلكلورية الحزينة. في هذه اللحظة رأيتها؛ تلك السيدة الشابة التي تجلس على مقربة منا، تلك السيدة التي ما أن بدأت تستمع إلى كلمات الأغنية حتى مالت بظهرها للوراء وأدارت ظهرها ناحيتنا، شعرها بني فاتح مموج تماما كشعري، وعيناها بنيتانِ داكنتانِ تمامًا كعيني، وربما تكون في نفس عمري؛ نفس الأنف، نفس العيون الغائرة، يبدو واضحًا أن لنا نفس الجذور.

يبدو ذلك واضحًا جدًا من فمها وعينيها وأنفها، ولكنه أكثر وضوحًا من رد فعلها السريع عندما سمعت الأغنية الفلكلورية القادمة من "الوطن القديم". إنها عصبية ومتوترة كما أراها غاضبة، إنها غاضبة ولكنها ترفض أن تطلق لمشاعرها العنان. أنا أرى ذلك كله، إنها تدور في حلقة مفرغة من المشاعر المتوترة واحدة تلو الأخرى، العصبية ... التوتر ... الغضب، إنها مشاعر تأتي من جرح قديم، جرح لم يصبها شخصيًا ولا حتى أصاب أمها، وربما أيضًا لم يصب جدتها. إنه ألم يعتصرها حتى النخاع، هي تتألم لمعاناة سحيقة عاناها أناس آخرون، ولا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل حيال ذلك.

الآن ماذا أستطيع أن أقول لك يا أختي الأرمينية؟ ماذا أستطيع أن أقول؟

لا يصح أن نعتبر أن قصص اليهود والألمان ولا السود والبيض في جنوب أفريقيا مثل قصتنا. ولا يمكن أن نتخذ الإنجليز والسكان الأصليين ولا الفرنسيين والجزائريين كنموذج لنا. نحن بحاجة إلى إيجاد أرضية مشتركة، ونحن بحاجة لخلق مثالنا الخاص.

يزعم هرانت قائلاً: "نحن بحاجة إلى الاعتراف بأن هذه مسألة شرف، إن الرفض التركي هو مسألة شرف، فهم غير قادرين على الاعتراف بأن أسلافهم قد فعلوا شيئًا من هذا القبيل. وأن إصرار الأرمن، أيضًا عليها هو مسألة شرف، لأنهم قد تحملوا لتبقى معاناتهم على قيد الحياة لمدة قرن من الزمن"

إنه من السهل على كلا الجانبين أن يخلطا بين الشرف والكبرياء، فقد انحدرنا من أراضٍ تؤمن أن التطهر لا يأتي إلا بإراقة الدماء، وأن التاريخ لا يكتبه إلا الرجال المسلحون. نحن أبناء أمة تعتقد أن الدفاع عن الشرف لا يتم إلا باستخدام الكبرياء. والحقيقة أننا خسرنا الاثنين في هذه المعركة وكلنا يعلم ذلك.

هناك أجبر الشرف قومي على التجاهل وعدم الرغبة في السماع عما حدث في 1915 وهنا أجبرك الشرف على الصراخ بأسماء الذين ماتوا بلهجة أجنبية.

وبرغم أننا في أرض بعيدة جدًا فما زلنا نخلط الكبرياء بالشرف ولم يعد علينا بعد الآن أن نعيش معًا أو نتحدث معًا أو نقدم الاعتذار عما فات. كما أنه لا يجب عليكِ أن تسامحي.

لا يجب على أحدنا أن يفعل شيئًا، وسيستمر الصمت باسم الشرف وستستمر المطالبات باسم الشرف. ولو كانت لدينا القدرة على فعل أي شيء فيجب علينا أن نختار أن نزيح حبل المشنقة عن رقابنا، لو كانت لدينا القدرة على فعل شئ فيجب علينا أن نبحث عن مستقبل أفضل لأنفسنا ولن يتأتى هذا إلا من خلال التعامل مع أنفسنا بإنسانية

إنني الآن أدرك أن أية كذبة قيلت في الماضي ستظل وصمة عار على جباه أولادنا في المستقبل، وسيظل الجميع إلى الأبد لا يعرفون ما حدث بالكامل، وتنخفض قيمة الوطن بموت من يعلمون الحقيقة.

لقد أصبح الناس في بلادي على قدر كبير من الهمجية، لقد أصبحوا كذلك منذ سنوات طويلة عندما شغلوا أماكن أولئك الذين هاجروا، هذه ليست طبيعة البلاد إلى أرغب فيها.

إنني أدرك أنه ليس عليكِ أن تمنحي الغفران لمن أجرم في حقك، كما أنه ليس على أن أشعر بالذنب لذنوب لم أرتكبها. أنت الآن تتخيلين أرضًا لم تطأيها أبدًا وتتكلمين عن لغة لا تعرفينها ولا يمكنك أبدًا العودة للماضي، فهل هذا سيجلب عليكِ السلام ويحررك من عبء الكراهية تجاه "الترك المجرمين"؟

أتمنى أن يكون كل ما نفعله من أجل أن نتخلص من الكراهية وليس لأننا مجبرون، أعرف أن علينا الحوار ولكن قبل أن نبدأ في الحوار يجب أن نعرف أولا من نحاور.

أنت يا أختي الأرمينية ستحاورين أولئك الحزانى على فقد أصدقائهم الأرمن، ستحاورين المائة ألف الذين تبعوا جنازة هرانت وعرفوا معنى الفقد والانتزاع.

ولكن من الذي يجب التحاور معهم؟ لقد قطعت رحلة طويلة عبر العالم لأجلس على هذا الشاطئ الرملي وأفكر في إجابة هذا السؤال: من الذي يجب التحدث إليهم؟ إنهم الأطفال الذين يجب أن نربيهم بعيدًا عن أشباح وذكريات الماضي، ألم تكوني مثلهم وقد مَررتِ بنفس المعاناة؟ إنني محقة، أليس كذلك؟

هل هو أرارات الخاص بالأرمن أم آغري الخاص بالأتراك؟ هل هو فقدكم أم هي معاناتنا؟

اننى لا أريد أن أثبتَ إذا ما كنا قتلناكم مرة في قديم الزمن، أريد أن أُثبت أنكم عشتم معنا مرة في قديم الزمن. هذا هو الأهم بالنسبة لي. أريد أن تقدس الناس في بلادي الحياة ولا تترك نفسها هباء في مهب الريح. أود ألا نضطر لشرح معاناتنا للغرباء، وأن نشعر للارتياح لبعضنا البعض، ربما كان السياسيون ذو الحلل الفاخرة غير مستعدين لذلك، ولكن الأغلبية الصامتة تعرف جيدًا معنى التألم في صمت.

ولكن للأسف فإن بلادي، بلادي المجنونة، لا تترك لي اختيار وكذلك أنتِ. هذه هي فرصتنا الأخيرة، لقد كنا أشقاء في الماضي والآن أمانا فرصة كي نصبح أصدقاء. نحن لم نختر أن نكون أشقاء ولم نختر أن نفترق، ولكن ربما يمكننا اختيار أصدقائنا يمكننا اختيار أصدقاء ذوي أرضية مشتركة وفكر متقارب مثلى ومثلك.

إننى في حاجة لأن أسمعك وأنت في حاجة لتسمعي قصتي مرة أخرى، يجب أن تخرجي في رحلة لبلادي حتى تفهميها بشكل أكبر، يجب أن تفهمي طبيعة الناس ولماذا يتصرفون بتلك الطريقة.

نحن نتخلص من آلامنا بطريقة خاطئة ونوزع شكوانا على المستع الخطأ. هل هذا ما سيحدث هذه المرة أيضًا؟ إنهم لا يشعرون بذنوبنا ولا آلامنا ولا يساعدوننا في التخلص منهم، بل يجب علينا نحن أن نفعل ذلك. ليس المهم أن يسمعونا، المهم أن نستمع إلى أنفسنا وأن تختلط أصواتنا، يجب أن نقترب من

بعضنا للدرجة التي لا يمكن معها تجاهلنا. أريد أن يسجل التاريخ أصواتنا وليس فقط الأصوات الزاعقة. أن يعرف أبناؤنا في المستقبل أننا كنا موجودين، وأننا بذلنا قصارى جهدنا لكشف الحقيقة. لا أريد أن ألد مجرمًا ولا أريدك أنت أن تلدي ضحية، أريد أن ننجب أطفالاً طبيعيين ليصبحوا أصدقاء في المستقبل،

هذا ببساطة كل ما لدى لقوله، ولكنى لا أستطيع أن أتحدث، لا أقدر على الحديث.

اِنتهى يورتاش من الغناء وسحب نفسًا آخرَ من سيجارته ثم قال "هيا بنا فقد انتهت الرحلة"

رحلنا ببساطة بينما المرأة تنظر إلينا. كانت السماء تتحول من اللون الرمادى للأسود.

اِلتفت ونظرت إليها نظرة أخيرة، كانت تنظر إلى، ربما كان لديها أيضًا ما تقوله، ولكنها فضلت الصمت،

عدنا إلى تركيا. كانت ردة الفعل العنيفة التى تسبب بها موت هرانت قد وصلت إلى ذروتها، وأصبح النقاش العقلاني أصعب كثيرًا من أي وقت مضى. صعود أحزاب الإسلام السياسي والجيش واشتباكات المتعصبين في الجنوب الشرقي قد تثبط أي شيء. في هذا المناخ السياسي المتفجر، يبدو أن هذه البلاد

ليس لديها نية لمناقشة القضية الأرمينية والرجوع إلى مشكلة متجذرة في الماضي.

وفي ليلة اجتماع المثقفين قال أحدهم " يجب أن ننظم أنفسنا لمواجهة أي مكروه يحدث لأحدنا"

كنا في غاية الخوف ولكننا كنا أكثر خوفًا على بلادنا، إنها البلاد التي أحببناها

والتي ما زلنا نبحث عن حلول لمشكلاتها. ولكن أي بلاد هذه؟ إنها لم تعد البلاد التـي عرفنـاها في الماضي، إنها تتحطم أمام أعيننا لقطع صغيرة جدًا ، أين سنذهب عندما تتحطم تلك القطع الصغيرة؟ أين يمكننا أن نكون؟

هل سنتحول نحن أيضًا إلى أبناء الأشباح كاللبنانيين والعراقيين والإيرانيين الذين يجوبون أوروبا؟ هل سنصبح مثل الأرمن؟

في أحد الأيام قام مجموعة من تلاميذ المدارس بجرح أصابعهم ورسم العلم التركي بدمائهم. هذا العلم الذي يقطر دماءً قد تم وضعه في برواز وإرساله إلى رئيس هيئة الأركان.

بعدها بدأت صورتي في الظهور في الصحافة بكثرة عندما كتبت مقالاً يعارض ما حدث "هذا العلم أحمر بما فيه الكفاية ولا حاجة للمزيد من الدماء"، كانوا يصفون صورتي دائما ب" المرأة البشعة"، وعندها أدركت أنني أحب هذه البلاد ولكنها لا تحبني. كنت خائفة جدًا هل يمكن أن يحب شخص ما بلاده في هذه الظروف ؟! . وهنا أدركت معنى الشعور بالانتماء، حتى إذا حاولوا قتلى فإنني ما زلت بموطني ، مهما كانت طبيعة هذا الوطن، حتى إذا تحول إلى رماد.

لقد كان هرانت على حق؛ يستطيع الوطن أن يتخلى عنك ولكنك لا تستطيع أن تتخلى عن الوطن. أنت ملتزم بحب وطنك مهما أثقل قلبك بالجراح